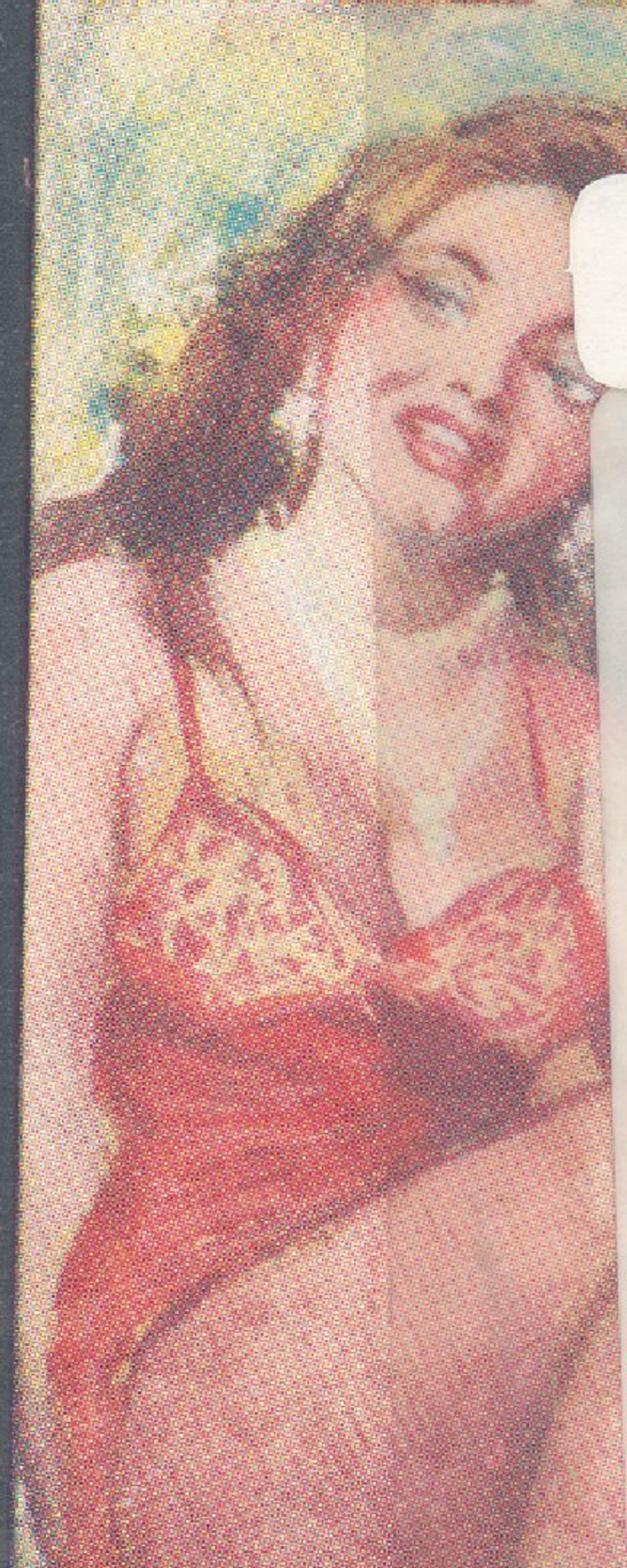
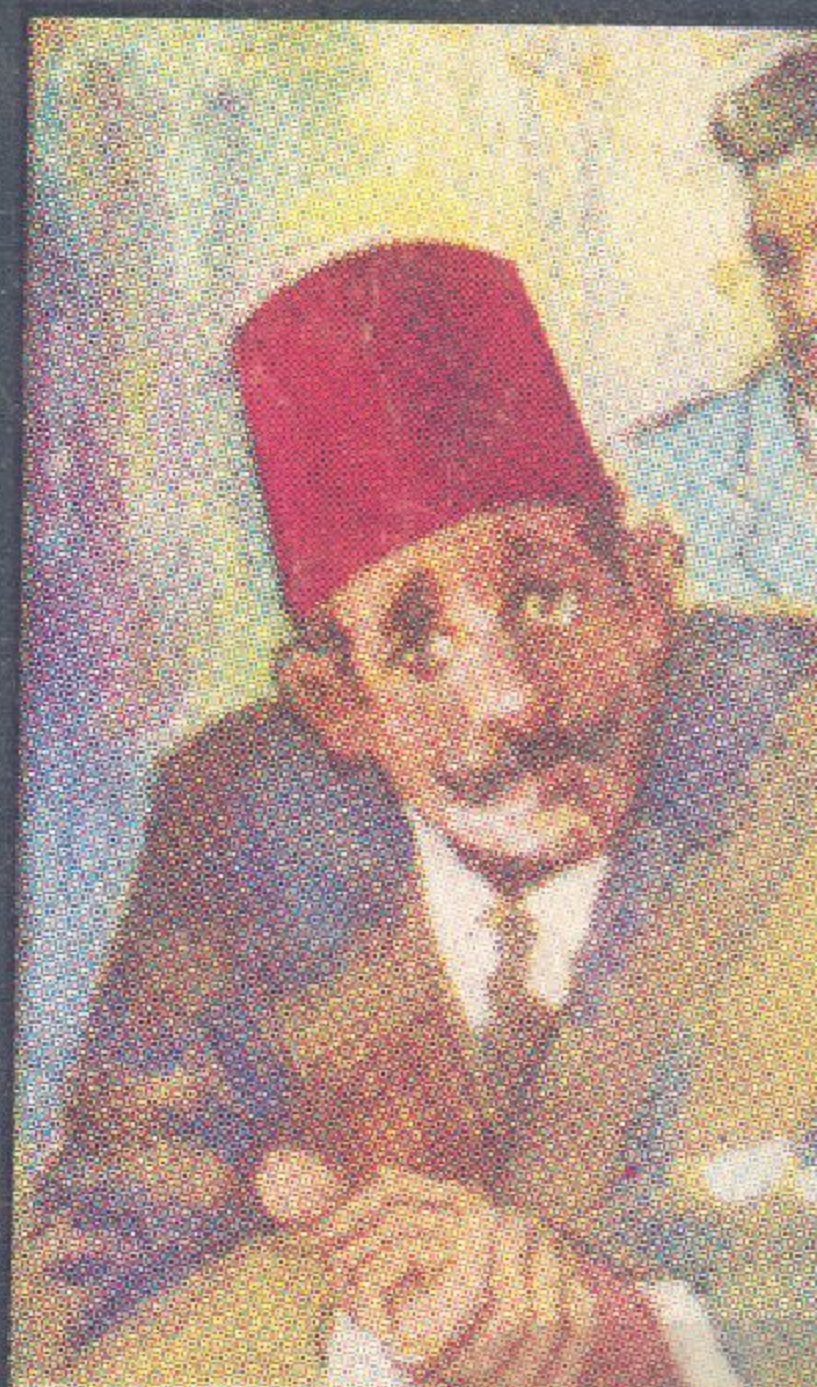
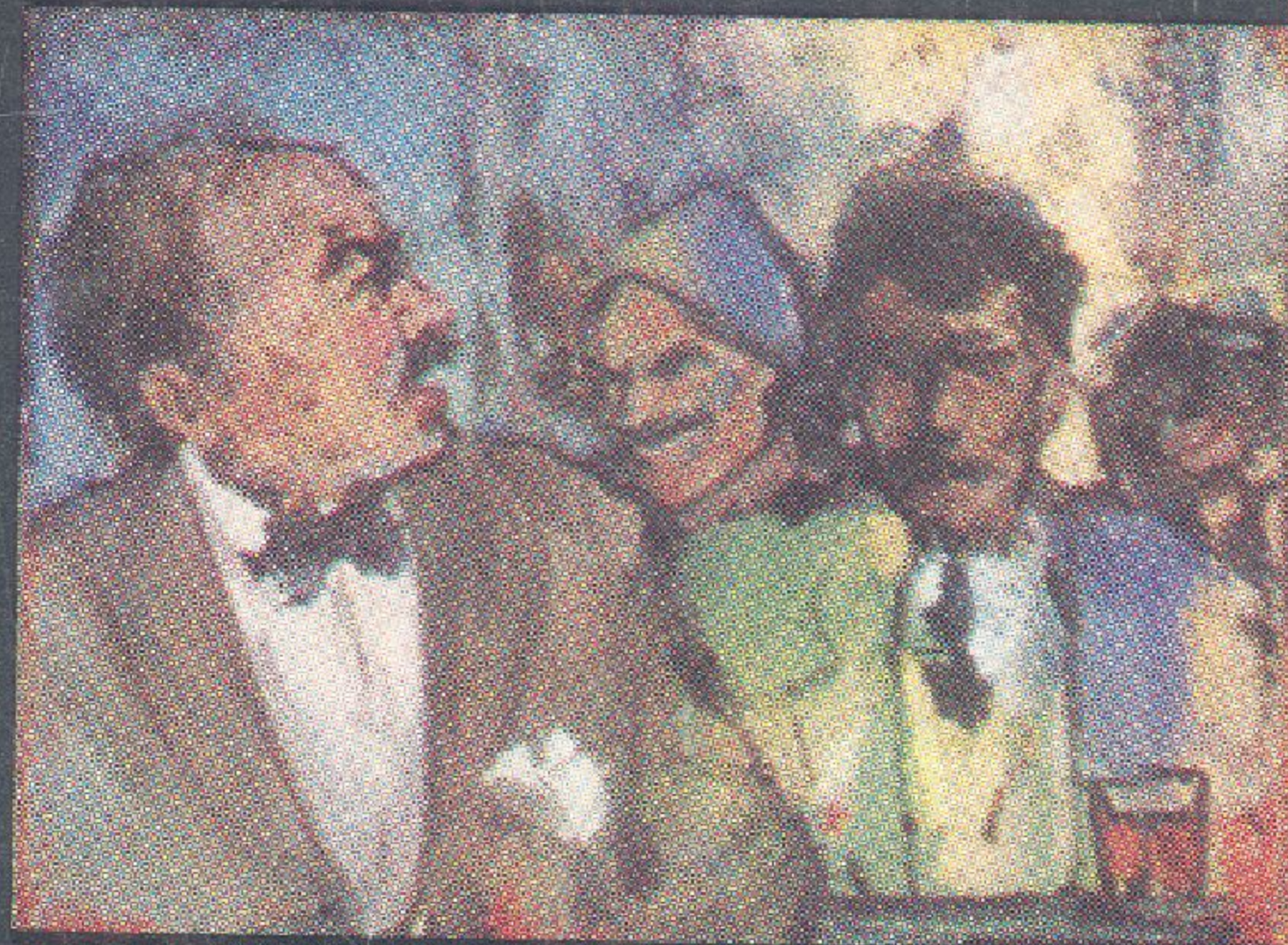


نجيب محفوظ



مكتبة مصر





مطبوعات مكتبة مصر

# المرايا

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية  
وجائزة نوبل العالمية للأدب ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة

دار مصر للطباعة

معيد جودة السحار وشركاه





## إبراهيم عقل

سمعت أول ما سمعت عن الدكتور إبراهيم عقل في مقالة للأستاذ سالم جبر .  
لا فكرة لي الآن عن موضوع المقالة ولكنه ذكر في سياقها الدكتور إبراهيم عقل  
باعتباره عقلا فذا بشر في وقت ما بثورة فكرية في حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة  
أجهضته قبل أن يقف على قدميه . ردها شخص لا خلاق له زاعما بأنه —  
الدكتور إبراهيم — طعن في الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التي قدمها  
للسربون . وشن على الدكتور هجوم نارى في عديد من الصحف والمجلات .  
فاتهموه بالإلحاد ، وتبنى آراء المستشرقين المبشرين لنيل الدكتوراه على حساب  
دينه وقومه ، ثم طالبوا بفصله من الجامعة . واهتز الدكتور من جذوره حيال  
الحملة العاتية ، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ، ولا قبل له بتحدى الرأى العام ، فضلا  
عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته إليها ، فأنكر التهمة ، ودافع عن عقيدته ،  
وتوسل بكثيرين — على رأسهم صديقه وزميله في هيئة التدريس الدكتور ماهر  
عبد الكريم — لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيه . ولما التحقت بالجامعة عام  
١٩٣٠ وجدته أستاذا مساعدا بها . والظاهر أن المحنة التي مر بها علمته كيف  
يركز نشاطه في دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران  
الكلية . ولاحظنا أن همة يطويها الفتور والملال ، وأن دروسه أقرب إلى  
التوجيهات العامة منها إلى المحاضرات الدسمة التي يلقيها علينا زملاؤه . رغم ما تمتع  
به من صحة وحيوية ، ونضج تربع فوق الأربعين من العمر . وما لبث أن انقلب  
في مجالسنا نادرة ودعابة . ومرة سألته في أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات :

— لم لم تؤلف كتابا يا دكتور ؟

فرماني بنظرة متعالية وقال بصوته الجهورى :



— أظن أن عالم الكتب في حاجة إلى مزيد ؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال :

— لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين !

ثم بامتعاض وازدراء :

— ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديدا من الفكر لما غطت سطح

زقاق !

ولم يكن من النادر أن ألقاه في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بقصره الكبير في المنيرة . وما أكثر من عرفت من أهل الفكر في ذلك الصالون العتيق ، وما زلت حتى اليوم أتردد عليه وإن تغير مكانه وزمانه . وثمة ذكرى لاجتماع فيه ترد على خاطر بوضوح ويسر كلما استدعتها الظروف والأحوال . ولعل الدكتور إبراهيم عقل كان أقرب الحاضرين تجانسا مع البهو الكلاسيكى الفخم بجسمه العملاق ومهابته الطبيعية ونظرته الزرقاء الذكية . وعلى غير المؤلف خاض الحديث في شئون السياسة . وكنا نتجنبها إكراما لأستاذنا صاحب الصالون لعلمنا المسبق بنفوره من الأحاديث الانفعالية ، ولكونه من المتمين إلى الحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعا كانوا من شباب الوفد . غير أن الانقلاب الذى قام به إسماعيل صدقى فى ذلك التاريخ طوق المشاعر وضغط على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله . وتكلم كثير من الطلبة الحاضرين حتى قال الدكتور إبراهيم عقل :

— إن حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه فخ !

فتحفز الشبان للنضال ولكنه قال :

— انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى . غرقنا فى معاركنا الحزبية ، ولدى

كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق ، ويوما بعد يوم يتفتت

البناء الشاغخ الذى ورثناه عن ثورة ١٩١٩ ...

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابة :



— بناء الشعب غير قابل للتفتت .

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم ، وتفكر قليلا ، ثم قال بصوته الناعم  
الهامس :

— شعبنا مثل الوحش المذكور في بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أيا ما ثم ينام  
أجيالا .

فعاد الدكتور إبراهيم عقل يقول :

— لن نضار ألبته إذا استمسكنا بالمثل العليا .

وجعل ينقل عينيه الزرقاوين بين وجوهنا المتحفزة ثم كرر بنبرة منغومة :

— المثل العليا ... المثل العليا .

وكان يردد لها كثيرا في محاضراته عن الأخلاق حتى أطلق عليه زميلنا عجلا

ثابت « دكتور مثل عليا » .

ولعل الدكتور تذكر موجة الإلحاد التي كانت تحتاح الكلية في ذلك الوقت

فقال :

— أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية ، اعتبروها إذا شئتم المنبع

الذي تدفقت منه العقيدة نفسها ..

فقال شيخ أزهرى لا يحضرني اسمه الآن :

— السياسة ترمى بنا كل يوم في محنة جديدة ..

فقال الدكتور إبراهيم عقل بإصرار :

— المثل العليا ، حسبنا أن تبقى لنا ..

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين في فوتيل وثير :

— يا سيدى الدكتور ما الأخلاق إلا علاقات اجتماعية ، وعلينا أن نغير

المجتمع ...

فسأله بهدوء :

— أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق والدين ؟



فقال سالم جبر باستهانة :

— إني أقرأ برجسون كما أقرأ قصيدة حاكمة !

فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم :

— إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت فى روسيا منذ أربعة عشر عاما ، وهى

تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة ..

فقال سالم جبر بحدة :

— نحن لا نعرف عن روسيا إلا ما نقرأه فى صحف الغرب وكتبه .

وحلت هدنة ريثما نشرب أقذاح القرفة وننعم بحشوها الطيب من البندق

واللوز والجوز . ثم خرق الهدنة شاب قائلا :

— لا حل إلا القضاء على أحزاب الأقلية الطامعة فى الحكم .

فقال سالم جبر :

— هذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات .

ولكن الدكتور إبراهيم عقل قال :

— إن رئيس الوزراء يزعم أنه يسعى للحصول على الاستقلال فلندعه يسع !

— وإن فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير ؟

فقال الدكتور بشيء من العنف :

— الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر !

طالما عذبنى التناقض بين تناول الأوساط الشعبية للسياسة وتناولها فى الأوساط

الثقافية الرفيعة ، فهى هناك انفعال مضطرب سرعان ما يسيل دما . وهى هنا

مناقشات متفلسفة لا تخلو من تشييط للهمم وتخيب للآمال .

فكرت فى ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة ، وتبادلنا الآراء فى سرعة

محمومة :

— لا بد من ثورة !

— أيكفى الإضراب لإشعال ثورة ؟

— هكذا قامت ثورة ١٩١٩ فيما يقال .







— كيف قامت ثورة ١٩١٩ ؟

— ما أقربها وما أبعدا ..

— وفي صيف ذلك العام قابلت الدكتور — كان بصحبته أسرته المكونة من زوجة وغلامين — في كازينو الأنفوشي بالإسكندرية . كنت أجلس هناك في الصباح — عقب الاستحمام — فأشرب القهوة وأقرأ الصحف ، وأشاهد في الوقت نفسه ما يجري على مسرح الكازينو من بروفات للعروض المسائية رغم نفورى الطبيعى من الغناء الأفرنجى .

وقد منا الدكتور إلى حرمة وأظنها كانت مفتشة بوزارة المعارف . ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية ، فلم أكن أكنّ له احتراما يذكر لعزوفه عن التأليف ، ولعدم إخلاصه في عمله . وما أعجبنى فيه إلا منظره وخفة روحه وسخريته المموهة بالتفلسف .

وسألنى :

— أتستحم عادة في الأنفوشي ؟

فأجبت :

— إن أمواجه أهدأ بكثير من الشاطبى .

— عندما يتم بناء الكورنيش سيتغير وجه الإسكندرية .

فوافقته على قوله فقال باسم :

— ولكنكم تكرمون إسماعيل صدقي !

فقلت وأنا أدارى العواطف المريرة التى استفزها ذلك الاسم :

— ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان .

فضحك قائلا :

— لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى .

ثم أشار إلى زوجه وقال :

— والدتها — حماتى — عضوة فى اللجنة الوفدية للسيدات .



فرمقت السيدة بامتنان إكراما لوالدتها .

وفي مطلع العام الدراسي تولى الدكتور إبراهيم عقل منصبا جامعا كبيرا ولكنه اغتال في سبيله جميع مثله العليا . كانت الهتافات العدائية للسراى تتردد في جنبات الوادى . ونشرت جريدة التيمز أن مظاهرة في أسوان هتفت لمصطفى النحاس رئيسا للجمهورية . وانقسمت البلاد إلى أقلية موالية للملك وأغلبية معادية تكاد تجهر بعدائها . وإذا بالدكتور إبراهيم عقل ينشر مقالة في الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على وإسماعيل . كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال . ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من فساد . عصر الزلازل والبراكين المتفجرة . عصر إحباط الأحلام وانبعات شياطين الانتهازية والجريمة . عصر الشهداء من جميع الطبقات . وظل الدكتور يخطر بيننا ، متظاهرا بالثبات والشجاعة . يطالعنا بنظرات متحدية تخفى في أعماقها إحساسا بالهزيمة والذنب . وإنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمّر له الاستهانة والسخرية . الاستهانة والسخرية أجل ، لا البغضاء ولا الرغبة في القتل ، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة . لم تكن شخصيته تثير شيئا من ذلك ، وكان لحفة روحه ومناورات البهلوانية خليقا بأن يتبدى لنا مهرجا أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقيا للشعب .

وفي اليوم الأخير للدراسة ، ونحن ذاهبون لعطلة قصيرة نتقدم بعدها لامتحان اللسانس ، دعانا إلى الاجتماع به في مكتبه . كنا عشرة ذكور ، هم طلاب اللسانس للقسم الذى يرأسه إلى جانب منصبه العام .

أجلسنا أمام مكتبه وراح ينقل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين مطيلا الصمت والتأمل وابتسم وهو يهز رأسه في تعال ساخر ، وقال :

— نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة ...



وعاد ينقل بصره بيننا مواصلا هز رأسه ، ثم قال :

— طالما خمنت ما دار بنفوسكم يوما ، ولكن ليس الأمر كما توهمتم !

ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل . صمت طويل جدا . ولكن علينا أن نلزم أنفسنا الأدب والحذر . علينا أن نذكر أننا سنمتحن في كل مادة تحريريا وشفويا معا . وعلينا أن نذكر أن من حق مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان — بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب — لتتفق مع مستواه العام كما يقرره الأساتذة . كل ذلك يضعنا تحت رحمته بلا مراجع ولا معقب . وواصل حديثه قائلا :

— المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام إلى العاملين . وكلنا في النهاية مصريون .

ولذنا بالصمت إلا واحدا فقال بجرأة :

— إن من يخطب مطالباً بالاستقلال والدستور خير ممن يبنى الكورنيش ويسفك الدماء ..

كان القائل يدعى إسحق بقطر ، وكان الغنى الوحيد فينا ، وكان سيمضى عقب الامتحان إلى مزرعته عند مشارف القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور . ولم يغضب الدكتور إبراهيم عقل . ابتسم وقال بشيء من الأسى :

— ليس كالسياسة مفسدة للعقل ..

ثم بنبرة تشي بالرجاء :

— الحقيقة ، اعبدوا الحقيقة عبادة ، ليس ثمة ما هو أثمن ولا أجل منها في الوجود ، اعبدوها واكفروا بأى شيء يتهدها بالفساد .

ظللنا ملازمين الصمت ، متذكرين الامتحان الشفوى وحق مجلس القسم ، أما هو فعاد يقول :

— لن أناقش بقطر ، لن أتفوه بكلمة في السياسة ، إنما دعوتكم لنلقى نظرة معا على المستقبل ..



فانتشر الارتياح في نفوسنا كالضوء . نجونا من مزلق السياسة وها هو يفتح باب المستقبل الذى نرقبه بوجوم قائم منذ صدرت القرارات الوزارية بوقف التعيينات والترقيات والعلاوات لأجل غير مسمى . ماذا بقى لنا من أمل وماذا عند أساتذتنا من وعود ؟ . قال :

— هذه أيام أزمة ، أزمة تطحن العالم كله وليست خاصة ببلادنا كما يصور البعض ، ماذا أنتم فاعلون ؟ !  
وسكت قليلا ثم قال :

— لن تجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة ، ولن تكونوا أسرة فى أجل قريب ، وربما تفاوتت بينكم الحظوظ ...

وتلقى نظراتنا التى أطفأ نورها الفتور بابتسام وقال :  
— حتى الفرص الضعيفة التى يفوز بها الضييب أو المهندس أو الحقوقي فى الميدان الحر ، حتى هذه الفرص لا نصيب لكم فيها ، ولكن يبقى لكم شيء هام ، جوهرة لم يتعود أحد أن يتحلى بها بعد !

فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرة أخرى فواصل حديثه قائلا :  
— أمامكم طريق الحقيقة والقيم !  
تذكر كل منا آله وحبيبته والآمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة . أما هو فقال :

— تخففوا من غلواء الطموح الدنيوى وارضوا من الدنيا بما تجود به أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حدا !

ترى أدعانا الرجل ليعذبنا ويسخر منا ؟  
— إن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة .  
أنت تقول ذلك يا من بعت جميع القيم من أجل ...

— إن حكمة الحياة هى أئمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيام المحدودات ..  
وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس .



واستبقنا إلى نعته بكل قبيح :

— الوغد .

— المهرج .

— الدجال .

ومنذ تخرجنا في الكلية انقضى زمن طويل لم أراه فيه مرة واحدة . غاب عن عيني كما غاب عن وعيي إلا في النادر من المناسبات . وكان يتجنب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازي إلى الوظيفة الكبيرة أن يتعرض لهجوم بعض المتطرفين فاقصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة . لذلك مرت ثلاثة عشر عاما دون أن أراه حتى عرضت مناسبة غير سارة ، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف إذ فقد ابنيه الوحيدين في وباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد عام ١٩٤٧ . عانيت صدمة وأنا أتلقى الخبر ورجعت بي الذاكرة إلى كازينو الأنفوشي وهو يلعب الغلامين . يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية . وذهبت إلى الجيزة للاشتراك في تشييع الجنازة . جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان . وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى . ولا أظنه عرفنى وأنا أقدم له العزاء ، لم يتلفت إلى أحد ، ولم يهتم بشيء مما يدور حوله ، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيتة خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر . وعند منتصف الليل دعانى الدكتور ماهر عبد الكريم إلى مرافقته في سيارته إلى المدينة . وفي أثناء الطريق تتم بعطف :

— الله معه ، إنها كارثة لا تحتمل ...

فوافقته على رأيه وكنت في الحقيقة متأثرا جدا فعاد يقول :

— ولكن حديثه أقلقنى !

فسأله عما أقلقه فأجاب :

— جعل يقول بنبرة متهدجة إن الموت جميل ، وإنه مظلوم ، وإنه لولاه لما

كانت للحياة قيمة ...



قصمت متفكرا فعاد أستاذى يقول :  
— الله معه ..

غاب الدكتور إبراهيم عقل عن عيني مرة أخرى وإن لم تغب عني مأساته طويلا . وفي صالون قصر المنيرة علمت بما طرأ عليه من أحوال في الأعوام التالية للحادث . قيل إنه أصبح يرى كثيرا في جامع الحسين . وإنه يمضي الساعات متربعا أمام المقام . وفي كلمة أنه يتدروش ويسلم للإيمان تسليما بلا قيد ولا شرط . وأثار مسلكه الكثير من الجدل عن الإيمان بصفة عامة ، والإيمان بالنشأة والإيمان بالاعتناء ، والإيمان بسبب الكوارث ، وإيمان الفلاسفة . وإيمان العجائز ، وكان ماهر عبد الكريم يفند كل حجة يأنس منها هجو ما ولو من بعيد على مسلك صديقه القديم . وفي عام ١٩٥٠ ترك الدكتور إبراهيم عقل الخدمة لبلوغه السن القانونية ففرغ تماما للدروشة . وفي يوم من عام ١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحى الحسين — ذاهبا أو راجعا من الجامع لا أدري — فجذبتني طلعتة المهية المجللة بالمشيب . واقتربت منه مادا يدي للمصافحة فصافحنى وهو يحدجنى بنظرة لا يلوح فيها أنه عرفنى ، فلما ذكرته بنفسى هتف بصوته الجهورى :

— أنت ! ... كيف حالك ؟ . ماذا تفعل ؟

فلما أجبته قال :

— لا تؤاخذنى فأنا لا أقرأ . .

وسايرته حتى موقف سيارته في ميدان الأزهر وهناك سألتنى :

— ماذا يدور فى الدنيا ؟

فذكرت من الأمور ما رأيته جديرا بالذكر منوها بصفة خاصة بالثورة الجديدة فقال :

— هبوط صعود ، موت بعث ، مدنى عسكرى ، فلتسر الدنيا فى طريقها أما أنا فأبى أستعد لرحلة أخرى .



وغاب عني من جديد حتى قرأت نعيه عام ١٩٥٧ على ما أذكر . وأطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل من عثور ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية في الجمال لديوان « أزهار الشر » لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته . ولما كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له — توفيت زوجته في العام السابق لوفاته — فقد أذن بنشره ، وهكذا بقي اسمه في المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان « أزهار الشر » .

ولا خلاف في الرأي عن الدكتور إبراهيم عقل بين طلبته . فقد اعتبروه — بلا استثناء — مهرجا . ولكن ثمة مفكرا له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه ضحية لمجتمع فاسد وإن لم يغفر له انهزاميته . وذات يوم قال لي أستاذي ماهر عبد الكريم بصوته الهامس :

— إنكم تظلمون إبراهيم عقل .

فلم أتكلم احتراما لعواطفه نحو صديقه ، فقال :

— إنه عقلية فذة ، وكان يهرنا بكائه ونحن في السربون .  
فقلت :

— لم يفد أحد من ذكائه شيئا ...

فقال متجاهلا تعلقي :

— وهو الوحيد في مصر الذي يتمتع بعقل فلسفي ، بالنظرة الشاملة للأشياء ...

ونظر إليّ باسمائم استطرد :

— لم يخلق كاتباً ، ولكنه محدث موهوب ، نوع من سقراط ، خص أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره ، وطرح أيسر ما عنده على الناس .  
فقلت له :

— لعله يحتاج إلى أفلاطون جديد ليرد إليه اعتباره !

ولكنه اندثر فلم يبق منه إلا مأساة وترجمة نادرة لأزهار الشر .



## أحمد قدرى

يقترن أحمد قدرى فى ذاكرتى بالشهد والفظائر المشلّسة والسينا ، كما يقترن بواقعة لا تنسى . وهو قريب لى من أسرة ريفية ، كان يفد إلينا فى بعض المواسم لقضاء أيام فى القاهرة . وكانت إقامته تنقضى فى اللعب فى شوارع العباسية الهادئة المحفوفة بالحقول والحدائق . كنت فى التاسعة أو العاشرة وكان يكبرنى بخمس سنوات ، وكان وحيد أبويه ، وكان عفريتاً بكل معنى الكلمة . واقترح ذات مرة القيام برحلة ، ولكى يؤكّد براءتها استأذن والدى فى أن يصطحبني معه . وذهبت معه مرتدياً بدلتى القصيرة . وقال لى ونحن فى طريقنا إلى محطة الترام : — سأشترى لك بسكوتا بشرط .

فسألت عن الشرط فقال :

— أن تحفظ تماماً ما سأقوله لك ثم تردده عند عودتنا ..

فسألت عما ينبغى لى حفظه فقال :

— إننا ذهبنا إلى سينا أولمبيا وشاهدنا فيلماً لشارلى شابلن .

فوعده بذلك وأخذت البسكوت ثم ركبنا الترام ، وغادرنا الترام فى شارع لم أره من قبل ، فمضى لى من حارة إلى حارة فى عالم جديد وغريب ومثير . وجرنى من يدي إلى مدخل بيت آية فى الغرابة كان يجلس فى دهليزه ثلاث نساء يهرن النظر بألوان وجوههن وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق . نهضت إليه إحداهن فأجلسنى مكانها وهو يقول :

— لا تتحرك من مكانك حتى أرجع إليك ...

ووصى لى المرأتين ومضى بصاحبته إلى الداخل . وركزت بصرى فى بلاط



الدهلير المعصراني متجنباً النظر إلى المرأتين ، شاعرا في الوقت نفسه بأن مخالفة خطيرة ترتكب على كذب مني ، ومتابعا من حين لآخر صوت إحدى المرأتين وهي تغني « يوم ما عضتني العضة » . ثم مالت نحوي الأخرى فسألتني :

— هل معك نصف ريال ؟

فأجبت بالنفي فسألت :

— معك كم ؟

فأجبت بخوف وأدب :

— شلن .

— عال ، تحب أفرجك على شيء لطيف لم تره ؟

— ولكنه قال لي ألا أتحرك ..

— دقيقة واحدة في هذه الحجرة أمامك ..

— كلا !

— لا تخف ، مم تخاف !

وأخذتني من يدي إلى الحجرة وأغلقت الباب وهي تقول :

— هات الشلن ..

فأعطيتها إياه بلا تردد فقالت وهي تمسحني بعينيها :

— اخلع بدلتك ..

فقلت بفرع :

— كلا ..

وإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامي عارية . رأيت امرأة عارية لأول مرة . ملأني

الحركة المقتحمة المستهترة فزعا . وملأني المنظر الذي رأيته خطفا فزعا أشد .

تراجعت نحو الباب وأنا أنتفض .

فتحت الباب وهرولت إلى الخارج وضحككتها المائعة المتموجة تتعقبني

كثعبان . وتلقتني المرأة الأخرى بقهقهة . وأشارت إلى الكرسي كي أجلس .



ولكنى وقفت فى وسط الدهليز لا أريد أن أمس شيئاً ولا أريد لشيء أن يلمسنى .  
وجعل المتسكعون خارج البيت ينظرون إلى فى دهشة ويطلقون فى وجهى أبشع  
النكات . ولبت أعانى محنة وأى محنة حتى رجع أحمد فسألنى بفتور :  
— مالك واقف كالديديبان ؟

فقبضت على ذراعه كالمستغيث فمضى بى إلى الخارج ، ولم تكن العودة  
يسيرة كالذهاب إذ صادفتنا مظاهرة ضخمة فشق طريقه خلال أزقة جانبية  
وأصوات الرصاص تدوى فى الجو . ولما جلسنا فى الترام سألنى بنبرة المتحزن :  
— أين كنا يا بطل ؟

فأجبت من قم جاف :

— فى سينما أولمبيا .

— ماذا شاهدنا ؟

— شارلى شابلن .

— عظيم ، ولكن مالك مخطوف الوجه ؟

— لا شيء .

— ضايقتك المرأتان ؟

— كلا ..

وجعل يراقبنى بقلق ثم عاد يسألنى :

— مالك ؟

ففاض بى الحزن حتى كدت أبكى فسألنى بقلق :

— مالك ؟

فقلت بمرارة :

— لا شيء ، إنه شيء خاص جداً ، دورا ، ليست دورا جميلة كما توهمت ..

— دورا ! ... من هى دورا ؟

— حبيبة دان ..



— ومن هو دان ؟

— بطل المغامرات ، ألم تقرأ مجلة الأولاد ؟!

— أولاد ؟ .. بم تهذى ؟ ... ابسط وجهك ، لن نرجع إلى البيت حتى

ترجع إلى حالتك الطبيعية !

لم يعلم بمدى شغفى بدورا ، ولم يدرك بأنى تخيلت جسدها من الماس النقى ! .  
ولكن بصفة عامة كانت أيامه بالقاهرة من أسعد أيامى . علمنى كرة القدم  
والملاكمة ورفع الأثقال وأمتعنى بنوادره الفكاهية ، وكان يقلد شابلن فى  
مشيته ، ويغنى المنولوجات المشهورة ، ويحاكى عمدة القرية وشيخ الخفراء .  
وانتقل والداه إلى القاهرة فأقاما فى عابدين فلم يعد يزورنا إلا كل حين ومين .  
وتعثر فى دراسته الثانوية فاختر التحاق بمدرسة البوليس . وعقب تخرجه عين  
فى القاهرة لتقدمه ، وشغل بحياته الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء . لم  
أره طيلة عمله الأول بالقاهرة إلا خطفا ومصادقة وهو يتسلل خارجا من سراى  
عصام بك عقب مغامرة غرامية . وتوفى والداه وكدت أنساه تماما ، بل نسيت  
حتى ذكرتيه الحوادث فى أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد أن اختير  
عضوا فى البوليس السياسى . لم يعد أحمد قدرى بأحمد قدرى الذى عرفته ،  
انقلب شخصية مخيفة تنسج حولها أساطير الرعب ، سل سوط عذاب فى أيدي  
الطغاة يلهبون به الوطن والوطنيين . وكنت أسمع عنه وأتعجب ، كيف استحال  
الظريف الماجن شيطانا من شياطين العذاب ، كيف يمثل بالشبان من ذوى  
العقائد الحرة فيجلدهم ويطفىء السجائر المشتعلة فى جفونهم ويخلع بآلات  
العذاب أظافرهم ! . وحدث أكثر من مرة أن نوقش مسلكه على مسمع منى فى  
بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنية مثل رضا حمادة وسالم جبر  
وغيرهما ، وقيل إنه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقل من أن توجد جمعيات سرية  
لممارسة الاغتيال السياسى دفاعا عن الشعب الأعزل . وقد حدثت بالفعل محاولة  
لاغتياله أمام نادى محمد على ولكنه نجا بأعجوبة وأفلت ممن سموهم وقتها بالجناة







الهاربين .

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم إلى التحقيق فاكثفى بإحالة إلى المعاش ، ومضى بالنسبة إلى يذوب في ماء النسيان ، حتى دعيت في خريف ١٩٦٧ تليفونيا إلى المستشفى الأنجلو أمريكي . هناك وجدته راقدا مصابا بأزمة قلبية . لم أعرفه لأول وهلة . جاوز الستين وذكرني بصورة أبيه في أيامه الأخيرة . قال :  
— معذرة عن إزعاجك ...

فشجعتة بما حضرني من كلمات فقال :

— لا أحد لي غيرك في الواقع ...

ثم بصوت هامس :

— لكي تدفني إذا قضى الأمر .

فعدت إلى تشجيعه . وخلوت إلى الطبيب مستعلما فأكد لي أنه اجتاز مرحلة الخطر وأن صحته بعد ذلك تتوقف على إرادته . ولما سمع بتلك المعلومات قال :  
— عندي أكثر من داء ! .

فخمنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار ، فقلت :

— تجنب الانفعال لكي تتجنب أزمة أخرى .

فقال باستهانة :

— إنها آتية لا ريب فيها :

وجعلت أنقب في وجهه المريض عن الوحش الضاري الذي نشر الفرع في الزمان القديم أو الشاب المهرج الظريف ولكن عبثا ، ولم يكن في صدرى حياله إلا شعور بالواجب . وعلمت أنه يقيم بشقة صغيرة بالزمالك وأنه لم يتزوج طبعاً ، وأنه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل . وهز رأسه ثم غمغم :

— يخيل إلى أنني انتهيت كما انتهوا ..

فقطنت على البداهة إلى من يعنى . كان ٥ يونية ما زال ممتزجا بريقنا كالعلقم .



وأدركت من فوري مدى الحقد الذي عاشه منذ إحالته على المعاش . وكرهت مناقشة شماته المنغصة بسوء حاله لتحديها الجراح لعواطف الشخصية . وعلى أى حال لم تتحقق نبوءته السوداء فيما يتعلق بحياته أو حياة الثورة . غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع . وزارني في بيتي للشكر . تبدى في حال صحية مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق . وطيلة الوقت وجدت إغراء لا يقاوم في نبش ماضيه الغريب ، حتى واتتني الفرصة فقلت :

— أتدرى أننى لم أكن أصدق ما يقال عنك ؟  
خيل إلى أنه تجاهل قولي تماما . اقتنعت بأننى أخطأت . ولكنه قال وكأنه يقرر حقائق لا علاقة لها بحديثي :

— يحدث أحيانا أن تصدم سيارة أحد المارة فترديه قتيلا ..  
وأشعل سيجارة متحديا أولى نصائح طبيبه ثم قال :  
— من الخطأ أن نحمل السيارة تبعة ما حدث ، التبعة تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحية نفسها أما السيارة فلا ذنب لها ...  
وقال أيضاً :

— لم لم نعذب أحدا في عهد الوفد ؟ . المسألة أنه يوجد نوعان من الحكومة ، حكومة يجيء بها الشعب فهي تعطى الفرد حقه من الاحترام الإنساني ولو على حساب الدولة . وحكومة تجيء بها الدولة فهي تعطى الدولة حقها من التقديس ولو على حساب الفرد ...  
وقال أيضا :

— لم نعذب أحدا بالمعنى الذي تظنه ، كنا نصب العذاب كما تملأ أنت الاستمارة ٥٠ ع . ح . أو كما تكتب تقريراً بناء على طلب الوزير ، عمل ليس إلا له مقاييسه من الإتيقان وتقديره في حساب الواجبات العامة . وإذا وجد بيتنا من يغالى في عمله أو ينفذه بلذة خفية أو ظاهرة فكما يوجد حيانا في أوساطكم من يفرط في العمل ليدارى نقصا أو تعاسة ملحة ..



وفي أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على منضدة فنظر إليها مليا ثم تساءل :

— أليس هذا هو الدكتور إبراهيم عقل ؟  
فقلت بدهشة :

— بلى ، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة ، أكنت تعرف الدكتور عقل ؟

— كلا ، ولكن ظروفًا معينة جعلتني أتابع ما كان ينشر له من صور في الصحف ..  
— أى ظروف يا ترى ؟!

تفكر طويلا ثم قال :

— لعلك تذكر وفاة ابنه ؟

— أجل ، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا .  
فضحك قائلا :

— يبدو — والله أعلم — أن الكوليرا لم تكن هي الجانية ...  
فهتفت بذهول :

— ماذا تقول ؟!

— رئيسى رحمه الله همس لى يوما فى مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا !  
— قتلا ؟!

— اضبط أعصابك ، ذاك تاريخ مضى وانقضى ..

— ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلها ؟!

— لا شىء مؤكد ، صدقنى لا شىء مؤكد ، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه

أكثر من همس ، تسلل إليه خبر عن غرام امرأة هامة وشخص من رجال الملك  
وجريمة قتل فى بيت خلوى بالطريق الصحراوى ..

— أعطنى مزيدا من المعلومات ...

— لا مزيد عندى ، ولا شىء مؤكد ، صدقنى لا شىء مؤكد ...



وأصر على موقفه فلم أجد مبررا لتكذيبه . وقد أفضيت بما بلغني منه إلى أستاذى الدكتور ماهر عبد الكريم فأبدي من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادئ من قبل . وقال لى :

— لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عني سرا ..

— لعل صلة الأمر بالسراى ألزمته بالصمت ..

فhez رأسه وهو فى شك وحيرة ، وقررت تناسى الموضوع من أساسه . أما أحمد قدرى فقد اختفى من حياتى مرة أخرى . وكنت ألحx أحيانا فى مقهى فنكس وسط نفر من كهول الخواجات ، وفى أوائل عام ١٩٧٠ رأيتx — من بعيد — سائرا فى ميدان طلعت حرب ، وثبت لى من تهدل شذقيه أنه خلع أسنانه ، ولكن صحته بدت خيرا مما توقعت .

## أمانى محمد

كان التليفون واسطة التعارف بين أمانى محمد وبينى . بدأت حديثها بالتحيات والمجاملات المعروفة . واستأذنتنى فى طرح أسئلة عن بعض المناقشات التى تتابعها فى التلفزيون . وأنست منها اهتماما بالفن ورغبة فى التزود ببعض المراجع وحماسا للقاء تتم به الفائدة . دعوتها إلى مكتبى ولكنها عالتنى بنفورها من جو المكاتب واقترحت لقاء فى الخارج . وتم اللقاء فى استراحة الهرم فى أواخر ربيع عام ١٩٦٥ . توقعت أن تجيئنى طالبة أو خريجة حديثة العهد بالتخرج . ولكن التى أقبلت كانت امرأة ناضجة ، فى الأربعين ، ريانة البدن ملونة العينين ، تخطر على الحد الفاصل بين حرية المرأة المصرية وبهرج الغانية . ولدى رؤيتها غازلنى شعور مستفز بأن الفن لن يكون — وحده — ثالثنا . لم يهزنى قبول ولا صدنى رفض فسلمت أمرى للظروف . جلسنا فى طرف الحديقة المطل على المدينة ونظراتنا المتبادلة تعكس الحياء والترقب . قالت بلسان محور الرءاء غينا :

— معذرة عن جرائى ..

ثم كالمستدركة :

— كان لا بد أن أقابلك ..

فأكدت لها سرورى باللقاء فقالت :

— إن فراغ حياتى لن يملأه إلا الفن ، ومن حسن الحظ أننى لا أدخل من

استعداد .

— سيدتى موظفة ؟

— كلا ، ولا حاصلة على شهادة عالية ، الثانوية العامة فقط ، ولكنى قارئة

ممتازة ، وكتبت أكثر من تمثيلية إذاعية ..



— لم يسعدنى الخط بسماعها ..

— لا غرابة فى ذلك .

وتفضلت بإغداق الثناء فشكرت لها تقديرها فقالت :

— إنى بحاجة إلى مراجع تاريخية لأواصل الكتابة .

— مطلب يسير فيما أعتقد .

— أود أن أكتب عن أشهر نساء الشرق وبخاصة اللاتى لعبن أدوارا خالدة فى

الحب ..

— موضوعات شائقة ..

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت :

— أطمع أن تشترك معى فى العمل .. ؟

فاعتذرت بلا تردد قائلاً :

— إنى مشغول بأعمال أخرى .

— ممكن أن تمدنى بالمراجع والمادة العلمية وأن تشترك فيما يعجبك من

الموضوعات ..

— سأهديك إلى المراجع .

ولكنها تجاهلت اعتراضى وقالت وهى ترمى بنظرتها إلى رعوس أشجار الحور

تحتنا :

— سنعمل فى الحداثق ..

ثم بعد توقف قصير :

— إلا إذا تفضلت بتشريف بيتى .

نجحت الغزوة الجديدة فى اقتحام ترددى فتساءلت :

— بيتك ؟

— لم أعرفك بحالتى الاجتماعية ، إنى مطلقة . أقيم مع خالتى المعجوز ، ولى

ابن وابنة يقيمان مع والدهما .

— لكن خالتك ؟!

— لا عيب في العمل ..

ثم وهي تنظر بعيدا :

— يمكن تدبير الأمر لنهىء جوا صالحا للعمل .

— ولكن ..

— ولكن ؟

— أصرحك بأنه من المؤسف ألا تنعم سيدة مثلك بحياتها الزوجية ..

فقلت بامتعاض :

— لم تكن حياة موفقة ، ولا يوما واحدا ..

— عجيبة .

— علمنى كيف أمقته ، ولم أحبه من قبل .

— ولم قبلت الزواج منه ؟

— زوجت إليه وأنا بنت ستة عشر ، أبعد ما تكون عن النضج وبلا وزن

لرأى .

— زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذلك .

— إنه أنانى نذل متوحش .

لم تشأ أن تتقل من العموميات إلى التفاصيل ففتر اهتمامى بالموضوع ،

وبخاصة وأنه أصبح من ذكريات ماض بدا أنه ذهب إلى غير رجعة . حتى الفن

نفسه تراجع إلى الهامش وذاب في الظلام . وبحركة غير متوقعة تسللت يدها

البضة فاستقرت فوق يدي على طرف المائدة :

— إني فى حاجة إلى إنسان أطمئن إليه ...

ورغم احتمال المبالغات بل والأكاذيب فإني شعرت نحوها بعطف ورثاء . ومع

ذلك سألتها مداعبا :

— يهيك الفن لهذا الحد ؟



فقلت ضاحكة :

— الفن والحياة !

ولكننا نسينا الفن والتاريخ ونحن نتجول في صحراء الهرم . تركزت همومنا في الواقع المعاصر ، واقع البيت بالذات ، وخالتها بصفة خاصة ، سنها الطاعنة ، ونومها الثقيل ، وحواسها الضعيفة ..

— إلا إذا أردت أن نلتقى في بيت آخر !

وباندماجي في المؤامرة تدفق طوفان الرغبة في دمي فقلت :

— ليكن اليوم .

ولكنها قالت بسرور وبلا مكر :

— أمهلني حتى أهيبء الجو ..

وعندما جمعتنا الحجرة هفت على حواسي أخلاط روائح مركزة من العطر والبرقان والخمر تسبح في أمواج نور أحمر خافت فردتني إلى ذكريات بعيدة ما كنت أتصور أنها ستعود . وجدتني مرة أخرى موثقا بالحرير مدعنا لرغبة سكرى يبقظة مباغته . وبلا حب بالمعنى الحقيقي . أما أمانى فكانت متفانية في المودة ، اهتدت إلى مرفأ بعد تخطيط في ليل بهيم ، لهفة بلا حدود على الحب والحنان يزفرها قلب محروم من الحب والأمومة والثقة . وجعلت تصارحني بخباياها في لقاءاتنا المتتالية .

— حالتى المالية حسنة ، ليس لدى ما أشكوه من هذه الناحية ..  
أو تقول :

— ربنا يسامح بابا ويرحمه ، كان السبب ...  
أو تقول :

— لا أمان لشبان هذه الأيام ، ربنا يحفظ بنتى ..

وتضخم شعورى بالمسئولية ، وكان يستفحل كلما تذكرت بأن حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس مشترك ، وأنه لا يمكن أن تمضى هكذا إلى الأبد ،

وأن العطف والجنس لا يكفیان لاستتباب الأمن في أسرتنا ذات الجناح الواحد .  
و ذات يوم من أيام العام نفسه — أواخر الصيف أو أوائل الخريف . زارني في  
مكتبي الأستاذ عبده البسيوني ، تذكرته من أول نظرة رغم التغير الهائل الذي طرأ  
عليه . ورحبت به بحرارة كأننا لم نفترق حوالى ربع قرن على الأقل . ترى ماذا  
غيره بهذه الدرجة رغم أنه لا يكبرني بأكثر من بضعة أعوام ؟ . وسألته :

— ماذا تفعل الآن ؟

ولكنه تجاهل سؤالى وسأل بدوره :

— لعلك تسأل عما دعاني إلى زيارتك بعد ذلك العمر من الانقطاع ؟ .

— لعله خير يا زميلي القديم .

فقال وهو يرمقني بهدوء :

— إني أزورك بصفتي زوج أمانى محمد !

مرت ثانية وأنا لا أعى لقوله معنى وفي الثانية التالية انفجر معناه في وعي  
كصاروخ . الحق أنى غبت عن الوجود بمعنى ما ، تلاشى المكان والزمان ، لم  
أعد أرى إلا وجه عبده البسيوني الأسمر المستدير ، كأنه وجه شخص آخر ، وجه  
تمثال يقوم أمام مكتبي منذ الأزل . لم أنبس بكلمة ، وطبعاً لا فكرة لى عن  
الصورة التى انطبعت فوق صفحة وجهى ، ولكنه هز رأسه بهدوء وقال بنبرة  
مستأنسة :

— لا داعى للجزع .

وابتسم ابتسامة ما وقال :

— لا علم لك بشيء ...

ثم بتوكيد :

— لم أحضر للانتقام .

مضيت أرجع إلى مقعدى وحجرتى ولكن شعوراً حاداً اجتاجنى بأن دنيائى

على وشك التصدع والتلاشى .



وسمعه يقول :

— من حسن الحظ أن الأيام التي عشتها في باريس لم تضع عبثا !

وقلت وأنا مستسلم تماما للمقادير :

— لعلك تعني امرأة أخرى .

— أعني المرأة التي كنت عندها أمس !

— ولكنها مطلقة !

— بل هي على ذمتي وأنا زوجها !

فغمغمت :

— يا لها من كارثة !

— لم أزرك بدافع غضب أو انتقام .

— ولكنني أموت أسفا وحزنا .

— لا ذنب عليك .

ثم بامتعاض شديد :

— وما أنت إلا آخر صيد لها !

— ماذا ؟

— مرة ومرة ومرة ، وفي كل مرة أتدخل لإنقاذها من التدهور ، لإنقاذ

مستقبل ابني وابنتي ...

— يا لها من حياة ! ... ولكن ..

وترثت مرهقا ثم عدت أتساءل :

— ولم تتحمل ذلك كله ؟

— لا مفر ، إني أرفض تطليقها رغم مطالبتها به .

— لم ؟

— هي أم ابنتي وابني ، وهما في طور المراهقة ، والطلاق يعني لها التدهور

حتى الاحتراف !

— قد تتزوج مرة أخرى .

— لم تعد أهلا لذلك !

— موقف عسير محزن .

— لذلك فإني مصمم على استردادها . وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ومن حسن

الحظ أن حياتي في باريس لم تضع هدرا !

فقلت بحزن :

— ما أبغض الحياة إذا فسدت ..

— أجل ، لعلها حدثت عني ، وعندى أيضا ما أقوله ولكنى مصمم على

إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

فقلت متأسفا :

— ما تصورت يوما أن أقف منك موقفى هذا !

فلم يكثرث للأسفى هذه المرة . أشعل سيجارة وراح يدخن متفكرا ، بدا لي

هرما متهدما . ثم نظر إلى قائلا :

— أنت تذكر بلا شك حياتى الماضية !!

أجل أذكر . زمالته في الجامعة . سفره إلى باريس في بعثة خاصة على حسابه .

عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا نتيجة . انتخابه عضوا بمجلس النواب . تمتعه بجاه

الأسرة والحزب والنيابة . قلت :

— طبعا أذكرها ..

فقال :

— لما قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضا بينها وبين فكرى الحر ...

— معقول جدا ...

— وعملت في نطاقها بإخلاص ولكنى اتهمت ظلما في مؤامرة اتهم بها بعض



أقطاب الحزب فقبض على حيناً ثم صودرت أملاكى ..  
وجمت لا أجد ما أقوله فقال :

— وجدت نفسى فى الطريق متسولاً !

— ولكن حرمك ذات مال !

فضحك قائلاً :

— أفقر من الفقر نفسه ، لها حالة غنية ولكن لها ورثا ، ولعلها كذبت عليك فى ذلك أيضا .

وشملنا الصمت حيناً حتى قلت :

— أذلك ما أفسد حياتكما ؟ .

— كلا ، لقد توثبت للعمل الجدى من أول يوم ، كرسى وقتى وما أزال

للترجمة والاقتباس ، واستعنت على النشر ببعض الزملاء القدامى المنتشرين فى الصحف والمجلات ، غير أن أخلاقى تغيرت فى سياق المحنة ، ونشب نزاع متواصل بينى وبينها ...

— ولكن تلك أموراً طارئة يمكن معالجتها .

— كان قد فسد الأمر .

— خسارة فادحة وغير مقنعة ..

— إنها حمقاء ، غير جديرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة ابنى وابنتى ..

وصمت لحظات ثم قال بنبرة اعتراف :

— ضربتها مرة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها لى ...

— يؤسفنى ما صادفك من سوء حظ ..

فقال بنبرة متجددة :

— إنى أطالبك بقطع علاقتك بها ..

فقلت وأنا لا أصدق بالنجاة :

— طبعا ..

— وأن تحاول إقناعها بالرجوع إلى بيتها ..

— سأبذل جهدي وفوقه ..

فقال وهو يلوح بحركة قاطعة :

— حسبنا كلام في هذا الموضوع البغيض ..

تنفست من الأعماق . وجعل يتذكر عهدنا القديم . وذكر فيمن ذكر

الدكتور إبراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم . قال :

— لقد انقطعت عن صالونه منذ سفرى إلى باريس ولكنى زرته مرارا زيارات

خاصة ، وأفكر في الرجوع إلى اجتماعات الصالون ..

وهز رأسه قائلا :

— لقد ضاعت أراضي أسرته في الإصلاح الزراعى ، وباع قصر المنيرة

وابتاع قليلا في مصر الجديدة انتقل إليها صالونه العتيد .

— أعرف ذلك فأنا من المترددين عليه بانتظام منذ عام ١٩٣٠ ...

فراح ينوه بنشاطى وتقدمى ثم قال :

— إنى أكدح بلا انقطاع للمحافظة على كرامتى ..

— أنت مثال طيب .

— ولدى مشروعات ترجمة لا حصر لها ... كتب . مسرحيات .. قصص

سينائية ..

— عظيم .. عظيم ..

— ولكن تلزمنى عقود المؤسسات الثقافية ..

— اعرض ما لديك ...

فسكت قليلا ثم قال :

— قيل لى إنه لا جدوى من العرض وحده ؟



فتساءلت متبالتها :

— ماذا تعنى ؟

— قيل إن الوصول قد يقتضى مالا ولا مال لدى !

— لا تصدق جميع ما يقال !

— أو أن أكتب مقالات نقدية تقديرا للبارزين في المؤسسات ..

— قلت لا تصدق ...

— أنا على استعداد لتقرير أن أى بغل فيهم أعظم من أحمد شوقي ولكن

المتنافسين في التقدير لم يدعوا مجالا لشخص مثلى لم يعرف كناقذ من قبل ! ...

وفضلا عن ذلك فلست إذاعيا ولا تلفزيونيا لأدعوهم إلى برامج أو أعرض

أعماهم ، فلم يبق أمامى إلا الطريق الطبيعى وهو كما تعلم غير طبيعى ..

وضحك لأول مرة فشعرت بالنجاة أكثر ، وحاولت تبديد ظنونه

وتشجيعه . وقام وهو يذكرنى بمطلبه الأصيل فقلت له :

— سأبذل ما فوق طاقة الإنسان ..

وقد بررت بوعدى . وما أن طرقت الموضوع حتى هتفت أمانى :

— الوحش وصل إليك !

واحترقت عيناها بنار الغضب فذكرتها بواجبها نحو ابنها وابنتها فصاحت :

— أنت لا تعرفه !

فقلت :

— بل أعرفه من قديم ، ليس سيئا كما تتوهمين ، وهو خير من كثيرين ...

— كلا .. أنت لا تعرفه ...

فأصررت على نصحتها فصاحت :

— كفى .. لا تضطهدنى ..

— بل لى عليك عتاب ، كيف تخفين عنى علاقتك الزوجية وأنت تعلمين أنه

يطاردك ؟

فهمت :

— لا غيره عنده ألبته !

— إنه يحب ابنه وابنته ...

— بل يحب نفسه وحدها ...

— المسألة ..

فقاطعتني بحدة :

— المسألة أنك لا تحبني ..

ثم وهى تجفف عينيها :

— مات الحب فى هذه الدنيا منذ زمن بعيد ...

ثم رمتنى بنظرة عتاب وقالت :

— لم تقل لى إنك تحبني ولا مرة واحدة ، ولكنى لا ألومك ..

فقلت معذرا :

— أنت تستحقين الحب أما أنا فلم أعد أهلا له ..

— كلام .. كلام .. كلام ..

— ستجدين فى بيتك ما هو أهم .

رجعت وفى أعماق شعور بالتححرر والنجاة والندم ثم اجتأحتنى حزن عميق .

وظل إحساس حاد بالرتاء يطاردنى نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى

محمد . وتوقعت أن يتصل بى ولكنه لم يفعل . وأردت أن أتصل بها لأطمئن عليها

ولكنى لم أجد فرصة ولا وسيلة . والتقيت بعد ذلك بأزمة متفاوتة وفى أماكن

مختلفة بعبده البسيونى فأشعرنى سلوكه بأنه يتقدم فى طريقه المرسوم بإرادته

الكادحة . وفى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ وكنت سائرا بشارع رمسيس أمام مبنى

التليفون وجدت أمانى مقبلة نحوى على بعد خطوات ١ . وبحركة عفوية مددت

يدى فصافحتنى بلهوجة وارتباك أشعرانى بتسرعى وخطئى . وهمست



معتذرا :

— إن شاء الله تكونين بخير .. ؟

فأجابت وهي تمضى :

— الحمد لله ..

تبدت مفرطة في البدانة والرزانة غير أن ارتباكها أقتعني بأنها تعاني مسئولية  
السيدة المتزمتة إذا ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة في مصافحة رجل  
« غريب » .

## أنور الحلواني

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره . ميدان بيت القاضي المتربع بين الجمالية و خان جعفر والنحاسين ، وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير . وقسم الجمالية العتيق ، وحوض الماء القائم في الوسط تسقى منه البغال والحمير ، وكشك حنفية المياه العمومية ، وهو ملعب طفولتي وصبأى . وكنت أتطلع باهتمام إلى أنور الحلواني في ذهابه من بيته الملاصق لبيتنا أو في إيابيه إليه . لم يكن شابا عاديا ، كان من رواد المتعلمين الأوائل في الحي ، كان طالبا بمدرسة الحقوق . وربما كنت معجبا بطربوشه المفرط في الطول ، وشاربه الغزير المبروم ، وبذلته الأنيقة . وكان يسير في رزانة لا تناسب سنه فكان يحلو لي أن أقلده ما تيسر لي ذلك . وكنت أتذكر جيدا الشربات الذي شربته احتفالا بنجاحه في البكالوريا ، قدمته لي أمه بيدها وهي امرأة من أصل ريفي كان يحلو لي أيضا أن أقلد لهجتها . والظاهر أن أحداثا كانت تجري في خفاء من حولي وأنا ألعب تحت أشجار البلخ .

استيقظت ذات صباح على صوات يترامى من بيت جيراننا . وحدث اضطراب شامل في بيتنا فجعلت أتمسح في المضطربين والمضطربات مستطلعا . وعرفت في ذلك الصباح أن جارنا الشاب أنور الحلواني قد قتل ، برصاصة ، في مظاهرة ، بيد جندي إنجليزي . عرفت لأول مرة فعل « القتل » في تجربة حية لا في حكاية من الحكايات الشعبية . وسمعت لأول مرة عن « الرصاصة » في أول اتصال سمعي بإحدى منجزات الحضارة ، وثمة لفظة جديدة أيضا « مظاهرة » استدعت الكثير من الشرح والتفسير ، وربما لأول مرة سمعت عن ممثل جنس بشري جديد في حياتي الصغيرة هو « الإنجليزي » . وتطايرت الأحاديث في البيت وفي

الميدان مكررة لتلك الكلمات ومضيفة إليها غيرها مثل الثورة والشعب وسعد زغلول . انهمرت على الكلمات حتى أغرقتنى وانطلقت منى الأسئلة بلا حساب وباللحاح شديد ، قتل .. ما معنى قتل ؟ وأين ذهب أنور ؟ وماذا ينتظره في العالم الذى ذهب إليه ؟ ومن الإنجليزى ولم قتله ؟ وما معنى الثورة ؟ وما معنى سعد زغلول ؟ وما وما وما ؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت إلى الميدان نفسه في جنون خيالى .

قبع وراء شيش النافذة أنظر بعينين محمقتين إلى جموع البشر المتدفقة من ذوى البدل والجيب والقفاطين والجلابيب ، حتى النساء في الحناطير والكارو ، يحملون الأعلام ويهتفون . وسمعت أزيز الرصاص ، أجل لأول مرة أسمعه ، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل ، ورأيت الإنجليز رؤية العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة ووجوههم الغريبة ، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة في جوانب الميدان ، ورأيت الدم البشرى يلطخ الملابس وأديم الأرض ، وسمعت الحناجر وهى تهتف من الأعماق « يحيا الوطن » ، و « نموت ويحيا سعد » .



## بدر الزیادی

كان زميلا بالمدرسة الثانوية . وكان بدينا خفيف الروح ، يحب الطعام واللعب والبنات ويحب الوطن. وكان أبوه ضابط المدرسة ، عاصرناه عامين . ثم اتهم في ظروف لا أذكرها بالغيب في الذات الملكية فقدم إلى المحاكمة التي أدانته وحكمت عليه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنه فصل من وظيفته . وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنيته فجاريناه في ذلك إذ كان الغيب في الذات الملكية يعد درجة لا بأس بها من درجات الجهاد يضمن لصاحبه موصفا في صفحة المجاهدين . وكان بدر تلميذا عاديا في الفصل ، بل خاملا ، أما مجده الحقيقي فكان يتألق في فناء المدرسة . في فناء المدرسة كان قطبا ينجذب إليه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من الفصول الأخرى . وعندما يجد نفسه محورا تتحرك مواهبه ويحيى صدره بالعطاء ، فيلقى بعض الأزجال الوطنية ، ويحكى النوادر اللطيفة ، أو يتصدى لتحديات غريبة . سألنا مرة عن أوفق الأماكن لممارسة الحب ، فأجاب كل بما خطر له ، ولكنه جعل يهز رأسه ساخرا حتى نضب معين خواطرنا ، ثم أجاب هو قائلا :

— القرافة !

ودهشنا ، وضحكنا مما ظنناه مزاحا فعاد يقول :

— في المواسم يبست الناس في أحواش المقابر ، نساء ورجالا ، والنساء يكن عادة أضعاف أضعاف الرجال ، وفي ظلام الليل تسنح فرص لا تخطر على بال .. فقال بعضنا :

— ولكنها مناسبة لا تفتح النفس للحب !

فقال يقين :

— الحب لا يتخير مناسبة فهو صالح لكل مناسبة !

وقص علينا كيف انقض على خادمة في مكان خال من البيت وجثة عمته مسجاة تنتظر من يكفنها والنائحات ينحن في ساحة البيت . وفي ذاك المجال كانت له حكايات غريبة لا تنفذ . أما امتيازها الحق فقد ناله بكل جدارة في كرة القدم . كان قلب الهجوم في فريق المدرسة . ورغم بدائه اشتهر بالسرعة ونخفة الحركة غير أن اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير في الملعب عاصفة من الضحك . وعرف بقدرته الخارقة في المحاورة والمداورة ، والسيطرة على الكرة كأنما يشدها إلى مجال قدميه بقوة مغناطيسية ، والمكر الأريب الذي يفقد أعداءه توازنهم ويطرحهم أرضاً ، كما امتاز بقوة ضرباته للكرة .

وكان يعد نفسه للعب في النوادي ويحلم بالاشتراك في الأولمبيات العالمية . وكان مستر سمبسون المدرب العام بوزارة المعارف يعجب به فتصححه في ختام إحدى المباريات العامة بين المدارس بتخفيف وزنه فكانت استجابته للنصيحة أن التهم — في حفل الشاي الذي أعقب المباراة — طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات والفطائر !

و ذات صباح وقف بدر الزياى يهتف — مع الهاتفين — بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتورية .

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحاس وعهد بالوزارة إلى محمد محمود فأعلن هذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وأضربت المدارس جميعاً ، ومنها مدرستا . غير أن قوات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكن من الخروج . ولكي نسلح بما يلزمنا في المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ والأبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحلل والمغارف والشوك والسكاكين ، وتصاعدت هتافاتنا العدائية مفتحة كل مقام حتى مقام الملك . وعند ذاك هجم الجنود فجأة ومن جميع الأبواب وانهالوا علينا بالعصى الطويلة على حين أطلق الكونستبلات الإنجليز الرصاص في الهواء على سبيل الإرهاب . ودارت معركة

غير متكافئة ، ولم ينج واحد منا من ضربة أو أكثر ، وسقط جرحى كثيرون ، واستشهد فراش وتلميذ . كان بدر الزياى هو التلميذ الشهيد إذ قضت عليه ضربة أصابت مؤخر رأسه . وصممت المدرسة على تشييع جنازته فى اليوم التالى ولكن الشرطة ضربت حصارا حول قصر العىنى الذى كان عامرا بالشهداء من جميع المدارس . وحملت الجثث رأسا من المستشفى إلى المدافن تحت حراسة الشرطة ، ولكننا ذهبنا فرادى إلى بيت ضابط مدرستنا القديم لنقدم له واجب العزاء . وما زال الرجل حيا حتى اليوم ولعله فى الخامسة والسبعين من عمره . أراه نادرا فى بعض زياراتى للعباسية وهو جالس فى مقهى صغير قريب من مسكنه . مهتما بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو . لا يتصور من يراه أنه كان من ذوى العقائد الحرة أو أنه جابه الحياة بشجاعة وأنه فقد فى سبيل ذلك وظيفته وابنه . ومن مكانه المتزوى يراقب السيارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال المجتمع المعتزين بإقبال الحياة الذين لم يكتبوا بنار تضحياتها وقيمها السامية . ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هذا التيار الغريب المتدفق ؟ ، أم أن الكبر والزمن قد أعفياه من كل شىء إلا ما يعانىة فى لحظة العابرة !! .

أما بدر فما زالت الصورة التذكارية لفريق كرة القدم تجمعنا ، وهو يتوسط الفريق ، الكرة بين قدميه ، يطالع الكاميرا بنظرة مريحة مترعة بالثقة بالنفس ..



## بلال عبده البسيوني

التقيت به مصادفة في قبلا جاد أبو العلا في أوائل عام ١٩٧٠ . ورغم أننا لم نتصادق ، بل ولم نلتق مرة أخرى إلا أنه ترك في نفسي أثرا يستحق أن يذكر . ولما ذهبت إلى القبلا ذلك المساء لم يكن يهو الاستقبال إلا الأستاذ جاد أبو العلا وزميلي القديم عبده البسيوني وشاب وسيم به شبه منه سرعان ما قدمه لي قائلا :  
— ابني ... الدكتور بلال ..

وفي الحال تذكرت قصة الابن والابنة اللذين كانا محور حديث ذي شجون بين عبده وبينى ثم بينى وبين أماني محمد منذ سنوات خمس . واشتركت في حديث مما يجري بلا هدف وقد عاودني شعور بالذنب القديم . وإذا بعبده البسيوني يقول مشيرا إلى ابنه :

— الدكتور يفكر في الهجرة !

واسترعى قوله اهتمامي فنظرت إلى الشاب من جديد بحب استطلاع أسر . إن كلمة « الهجرة » من الكلمات الجديدة التي غزت قاموس حياتنا وأثارت في جيلنا القديم العجب . ها هو واحد من فرسانها فما أطيب الفرصة .  
وعاد عبده يقول :

— إنه مرشح لبعثة دراسية قصيرة بالولايات المتحدة ولكنه يضم الهجرة ..

فسأله جاد أبو العلا :

— وما رأيك أنت ؟

فأجاب عبده ضاحكا :

— وما قيمة رأيي أو رغبتى ؟

— على سبيل العلم بالشئ ؟

— لا أوافق ..

— وأمانى هانم ؟

ضاعف من ارتباكى الخفى ذكر الاسم ولكنى عرفت لأول مرة أنها رجعت إلى أسرتها ، كما أدهشنى أن يتحدث جاد عنها بتلك الألفة . أما عبده فأجاب :  
— إنها ترحب بالفكرة وتتخيل أنه سيكون بوسعها أن تسافر إلى الولايات المتحدة كلما شاءت ...

فضحك مضيفنا وجارته فى ضحكه ثم قال مخاطبا الشاب :

— ينتظرك هنا مستقبل باهر .

فقال الدكتور بلال :

— إنى أتطلع إلى بيئة علمية صحية ..

فقال عبده البسيونى :

— إن هجرة صديق له يدعى الدكتور يسرى أدارت عقله ولكنه فى اعتقادى شخص شاذ لا يصلح مثلاً طيباً ، كان طبيباً ناجحاً سواء فى المستشفى أم فى العيادة ولكن غضبه على كل شىء لم يكن يهدأ لحظة واحدة ، ولم يكن يكف عن النقد المر ، كان يفور بكراهية غريبة نحو البلد ومن فيه . فانتهاز فرصة وجوده فى إجازة دراسية ثم قرر البقاء هناك ..

فقال الدكتور بلال :

— ونجح هناك نجاحاً فريداً ، فى العمل والبحوث على السواء ...

— وكان هنا ناجحاً أيضاً فما معنى الهجرة ؟!

— البيئة العلمية يا أبى ! ، وإليك قصة وكيل قسم بالمستشفى الذى أعمل

به ، درس حتى حصل على درجة الدكتوراه بامتياز رائع ، انتظر أى تقدير فلم يظفر منه بشىء ، بل حورب حتى لا يحتل المكان العلمى اللائق به ، فما كان منه إلا أنه هاجر ولدى عرض بحثه فى الولايات المتحدة تلقى أكثر من عرض للعمل فى الجامعات والمستشفيات ..

لاحظت أنه كان يتكلم بحدة تقارب الغضب ، فقلت :  
— قد يوجد خلل ولكن ليس للحد الذي يدفع الناجحين إلى الهجرة ...  
فقال لي دون أن يخفف من حدته :  
— بل الشأن في كل شيء يدعو للثناء !  
— حسن أن تشعر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذ الذي ينيرى للإصلاح  
سواكم ؟ ...

— لن أشغل نفسي بهذه الأفكار ...  
— ولكن وطنك قيمة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ؟  
فقال بهدوء نسبي :  
— وطني الأول هو العلم !  
ثم بعد تردد كأنما حاسب فيه نفسه :  
— الوطن .. الاشتراكية .. القومية العربية ... ماذا أقول ؟ . لا تتصورني  
عابثا ... كلا ... ولكن ماذا بقي لنا بعد ٥ يونية ؟!  
فقلت :

— مضت على النكسة أعوام خليقة بأن تجعل منها درسا لا نكسة ...  
فقال لي عبده البسيوني :

— لا فائدة ، إنه جيل لا يقتنع إلا بما في رأسه ...  
فقال جاد أبو العلا :

— لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه ..  
فقال الدكتور بلال :

— لا منقذ لنا سوى العلم ، لا الوطنية ولا الاشتراكية ، العلم والعلم  
وحده ، وهو يواجه المشكلات الحقيقية التي تعترض مسار الإنسانية ، أما  
الوطنية والاشتراكية والرأسمالية فتخلق كل يوم مشكلات نابعة من أنانيتها وضيق  
نظرها وتبتكر لها من الحلول ما يضاعف في النهاية من حصيلة المشكلات



الحقيقية .

فسأله :

— وماذا يمنعك من أن تكون باحثا وعالما في وطنك ؟

— توجد موانع وموانع ، استعداد بدائي للبحث وجو خائق للفكر والعدالة والتقدير ، لذلك أفكر في الهجرة ، وسأكون في أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه ، فالعلم لجميع البشر ، باستثناء علم الحرب والهلاك فالعلم لجميع البشر ...

وسأل جاد أبو العلا عبده البسيونى :

— وماذا عن شقيقته ؟

— ستحصل على بكالوريوس فى الصيدلة فى نهاية العام الدراسى وهى متحمسة أكثر منه للهجرة ...

فضحك الرجل عاليا وقال :

— وقتى الأحلام ؟ ... ألم تفكر فى هذه المشكلة ؟

— إن ما نعهده مشكلة يعدونه لعبا ...

فقال جاد أبو العلا :

— من المؤسف أن الفن لم يقدم لنا بعد نموذجا من هذا الجيل ، كم أود أن أسبق

إلى ذلك !

فقلت له :

— إنه يتقدم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا المسكينة !

فقال عبده البسيونى مخاطبا ابنه :

— إنكم تحلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة !

شعرت بأن عبده غير جاد فى معارضته وأنه لا يحسن إخفاء إعجابه بابنه . وهز

الدكتور بلال منكبيه استهانة فأيقنت أنه يمثل موقفا جديدا من « الوطنية » تلك

الأمانة القديمة التى أرهق جيلنا حملها . وقال بلال ضاحكا وقد ذكرتني ضحكته



بأمة :

— الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم .

فسأله :

— وماذا عن القيم ؟ ... العلم لا يتعامل معها ، وحاجة الإنسان إليها لا تقل عن حاجته إلى الحقائق .

فنظر إلى فيما يشبه العجز ثم قال :

— يجب ألا يعنى ذلك التمسك البائس عديم الجدوى بقيم بالية ، إنكم لا تمسكون بها إلا خوفاً المغامرة بالبحث عن غيرها ، والعلم لا يعطى قيماً ولكنه يضرب مثلاً حسناً فى الشجاعة ، فعندما تهاوت الحتمية الكلاسيكية كيف نفسه برشاقة فوق أرض الاحتمال وتقدم لا ينظر إلى الوراء ... فقال جاد أبو العلا :

— من العبث أن تناقش قوماً ليس بينك وبينهم لغة مشتركة .. فقلت وقد أخذ رأسى يحمى بالحدة :

— إنكم تودون الهجرة إلى الحضارة بدل أن تنموها فى أرضكم ... فقال محتداً :

— الإنسان فى الأصل كائن مهاجر وما الوطن إلا المكان الذى يوفر لك السعادة والازدهار ، لذلك لا تقبل على الهجرة إلا الصفوة ، أما المتخلفون ... وتوقف كالتردد فقلت :

— أما المتخلفون فيحسن التخلص منهم !

فباخت حدته وقال ضاحكاً :

— لو سار الازدياد السكانى على معدله الحالى وعجزت الوسائل عن تغذيته

فربما تقضى المصلحة العامة للحضارة بإفناء أجناس برمتها !

فهتف به أبوه :

— حسبك !



وقال جاد أبو العلا :

— ما أسعد إسرائيل بكم !

فعاودت الشاب حديثه وهو يقول :

— أتحدى إسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا !

وقد بت ليلتي متفكرا في حديث الدكتور بلال ، مستعيدا جملة وعباراته ، متأملا الموضوع من شتى جوانبه ، حتى اقتنعت في النهاية بأنه لا نجاة للجنس البشرى إلا بالقضاء على قوى الاستغلال التى تستخدم أسمى ما وصل إليه فكر الإنسان فى استعباد الإنسان وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خير ما فيه من إمكانيات رائعة ، وذاك كخطوة أولى لجمع العالم فى وحدة بشرية ، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة والعلم ، فتعيد تربية الإنسان باعتباره مواطنا فى كون واحد ، وتهىء لجسمه السلامة ولقواه الخلاقة الانطلاق ليحقق ذاته ويبدع قيمه ويمضى بكل شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة فى ذلك الكون الباهر الغامض . أما ذلك وإما مستقبل جعلنى أشعر بالامتنان لكونى من جيل يوشك أن يختم رحلته فى هذه الحياة العجيبة التى تدور بخيرها وشرها فوق فوهة بركان .

وقد التقيت بعبد البسيونى بعد مرور أشهر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن ابنه فأخبرنى بأنه سافر ، ثم قال :

— وستلحق به أخته فى القريب !

ثم قال بنبرة اعترافية :

— أجد كثيرا غمزا أليما فى قلبى ولكن زمانى علمنى التسليم للمقادير ..

وبعد قليل من الصمت عاد يقول :

— لا أخفى عنك أنى مقتنع بقرارهما ، لم لم تؤهلنا دراستنا العقيمة

للهجرة ؟!

فقلت :

— ٤٨ —

— العلم لغة عالمية أما مهنتنا فألغاز محلية .  
وأفضيت إليه بالخواطر التي اجتاجتني عقب استماعي لحديث ابنه فضحك  
طويلاً ثم قال :  
— نحن الكهول مطالبنا يسيرة ، سعادتي اليومية تتحقق لدى شرب قدح من  
القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت ...

## ثريا رأفت

رأيتها أول عهدى بالوظيفة عام ١٩٣٥ . كانت تتردد على الوزارة لزيارة عمها فقدمنى إليها فتعارفنا . وكانت طالبة بالمعهد العالى للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرسة . وكانت متوسطة الجمال ولكن بارعة القد والقامة ، تنم عيناها عن ذكاء وشخصية ، ولاحظ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية إعجابى بها فقال لى يوما — عقب ذهابها مباشرة — وهو يوقع لى على بعض الأوراق : — أن لك أن تفتح بيتا وتستقر .

فأدركت أننى ضبطت متلبسا وقلت :  
— أترى ذلك ؟

— إن صافى مرتبك ثمانية جنيهات وهى تكفى للزواج من اثنتين !  
فضحكت وقلت مرددا مشاعر جيلنا :  
— ولكن هل تجبذ الزواج من موظفة ؟  
فقال بتهكمه المعهود :

— كما قد توجد منحرفة بين ستات البيوت فقد توجد مستقيمة بين الموظفين !

فعلمت أنه يحذرنى بأسلوبه الملتوى . ولكن سيطرة الفتاة الجنسية على كانت فوق أى تحذير فسعيت إلى توثيق علاقتى بها . وكانت — كطالبة — تتمتع بقدر من الحرية خليق بأن يثير فى سوء الظن ، فضلا عن نظرة عينها الساختين الجريئة ، واستجابتهما المثيرة للقلق . كان كل أولئك جديرا بأن يصدنى عنها ولكنه أغرانى بها فانتظرتها فى الخارج بدافع هو خليط من حسن النية والجري وراء مغامرة . صافحتها وسرت إلى جانبها وأنا أقول :

( المرايا )



— أود أن نجلس معا قليلا من الوقت ...

فسألتني متظاهرة بالدهشة :

— لم ؟

فقلت :

— رغبة في مزيد من التعارف .

— نيس اليوم ...

وأرادت أن تودعني فقلت :

— ولكنك لم تحددى يوما آخر ؟

فأبطأت قليلا كأنما غلبت على أمرها وقالت :

— ليكن يوم الاثنين ، العاشرة صباحا ، بحديقة الحيوان ..

ومع أن استجابتها لبت صميم أمنية القلب إلا أنها في الوقت نفسه ثبتت سوء ظني بحريتها ، وغلبت في نفسي جانب المغامرة على حسن النية . والتقيننا أمام باب الحديقة . ورحنا نتمشى في أرجائها ونتكلم . أعلنت عن إعجابي بها ، ثم جرنا الحديث إلى تفاصيل حياتنا ، ومستقبلنا . وكانت عواطفى المكبوتة تعذبني ، وكنت شديد الثقة في أنها ستستجيب لها كما استجابت إلى الميعاد . وحاولت لدى أول فرصة لخلو المكان أن أقبلها . وتجنبتي ، ونظرت إلى ، والظاهر أنها قرأت في عيني معاني لم ترتح لها فتسألت في استياء :

— ماذا بك ؟

فأشرت إلى خميلى وقلت :

— لنجلس هناك ..

فقلت بحزم تغيرت به صورتها :

— يخيل إلى أنك أسأت إلى الظن ..

فقلت وموجة باردة تجتاحني :

— كلا ...

— أو أننى أحسنت بك الظن خطأ ...

فقلت بحرارة مصدرها الندم :

— لا هذا ولا ذاك من فضلك !

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجاد السعيد ، ثم  
افترقنا على ميعاد جديد ، وانجذبت إليها بقوة فحتى الزواج منها فكرت فيه جادا  
وراغبا . وفى اللقاء الثانى أهدتنى قلم أبنوس فأثرت فى الهدية تأثيرا نافذا  
وساحرا . وقالت لى :

— ترددت طويلا ، فكرت فى الانقطاع عنك ..

فسألتها بجزع :

— لم ؟

— أخاف من خيبة الأمل .

فضغطت على يدها بحنو وقلت :

— أنت تدركين تماما أننى أحبك ..

وفى المقابلات التالية تبلور الاتفاق بيننا وفكرنا فى الخطوات العملية التى تسبق  
عادة إعلان الخطوبة . وجاءت معها مرة شقيقتها الكبرى المتزوجة ، وتركز  
الحديث فى الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرغ للبيت . وقلت ببراءة :

— لا أتصور كيف يستقيم أمر البيت إذا تمسكت بالوظيفة ...

فتساءلت شقيقتها :

— وعلام كان الجهد والتعب ؟

فقلت :

— إن مرتبى يغنيان عن توظيفها ويوفر جهدا للبيت ...

فقالت الأخت ضاحكة :

— رغم ثقافتك فأنت دقة قديمة ...

وقالت ثريا :

— لم يسألنى أحد عن رأى بعد ؟  
فقلت :

— ولكنك تشتركين معنا بصمتك ...  
— كلا !

— إذن فما رأيك يا عزيزتى ؟

— سأعمل فيما أهلت نفسى له حتى النهاية ...

ثم كان آخر لقاء قبل الميعاد الذى حددناه لإشراك الأسرتين . وجدتھا على غير  
عادتها قلقة ، مشتة الفكر . فقلت :

— يوجد شىء يشغلك .

فقلت ببساطة :

— نعم !

— ما هو ؟

— لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك ...

وبسرعة استطردت :

— وأعترف أنى أخطأت فى تأجيله حتى هذه اللحظة .

— شىء خطير ؟

— يجب أن نتكاشف !

— ألم نتكاشف بما فيه الكفاية ؟

— كلا .. الحب يطالبنا بالصدق ...

فقلت بقلق :

— طبعاً ..

فقلت وهى تغمض عينيها :

— يجب أن أصارحك ..

اعترفت بأن شخصاً ما « خدعها » وهى فى سن البراعة ! . وفى أثناء الاعتراف

القصير اغرورقت عيناها . لم أفهم شيئاً بادی الأمر ، ثم أدركت كل شيء ببلاهة  
كأنه دعاية ، ثم اجتأحني شعور قدرى بأن كل شيء محتمل وأننى لا شيء ، ثم  
هبطت فى هاوية من الخمود والفتور والاستسلام المشلول كأنها حفرة فى قلب  
الشتاء ردمت بطبقات من الرماد . وجعلت ترنو إلى من خلال رموشها المبتلة ثم  
همست بياس :

— ألم أقل لك ؟

فتساءلت ببلاهة :

— هه ؟

— أنت لا تحبنى .

— أنا ! .. لا تقولى ذلك ..

— لن تغفر لى ..

فسألتها جاذبا نفسى عن تيار أفكارها .

— من هو ؟

— لا يهم ...

فسألت مصرا :

— من هو ؟

— وغد من الأوغاد !

— ولكن من هو ؟

— لا تعذبنى ...

وتناولت حقيبتها وهى تقول :

— أستودعك الله ...

فقلت بآلية :

— لا تذهبى .

فنهضت وهى تقول :



— أعطيتنى الجواب بلا كلام .

— ولكنى لم أتكلم .

— إني أرفض ما دون الثقة الكاملة ..

فقلت وأنا أجد ارتياحا في الأعماق لنهوضها :

— تلزمنى دقائق للتفكير .

فقلت وهى تمضى فى كبرياء :

— أستودعك الله .

بدت لى المشكلة عقدة غير قابلة للحل . تكشف حبى عن ولع عنيف ليس إلا وكان حبى القديم لصفاء قد استنفد طاقى للحب الحقيقى . وكانت تلك الهفوة مما لا يغتفر على أيامنا . كنا نحارب طبقات كثيفة من الماضى العتيق كلما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلب المعاناة والعناء لقهرها . كان علينا أن نقطع خمسة قرون وستة فى ربع قرن . حزنت وخاب أملى ولكنى لم أشك لحظة فى أن ثريا قد خرجت من حياتى إلى الأبد . وامتنعت عن الحضور إلى الوزارة لزيارة عمها فلم تقع عينى عليها حتى كان المعرض الزراعى الصناعى الذى أقيم قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . كنت أمضى وقتا فى لونا بارك الملحق بالمعرض ومعى صديق صباى عيد منصور فمرت بنا ثريا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها . لم ترنى ولكنى رأيتها ، ولما رآها صديقى مال على أذنى هامسا :

— انظر إلى تلك الفتاة !

فسألته : — ما لها ؟

— من حى السكاكينى وجارة لخالتى ...

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقتحة أدركت منها أنه الوغد

المتعدى فقلت بامتنعاض لم يدرك مداه :

— أنت وغد !

فضحك باستهتار كعادته وقال :

— وزغم ذلك سمعت أنها مخطوبة وستزوج في هذا العام !

ومرت أعوام كثيرة لم أر فيها ثريا ولم أسمع عنها حتى ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريا ضمن آخرين مجتمعين به في مكتبه ، كنت في تلك الأيام ألتبس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتبس المحترق مادة — غطاء أو ترابا أو ماء — ليطفئ به النار المشتعلة في ملابسه . وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرا من الزملاء مثل جاد أبو العلا ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وسيدة وقورا فوق الخمسين عرفت فيها ثريا رأفت . ألقيت تحية عامة وجلست فلم تلمس يدي يدها ولكنى شعرت بأنها تذكرتنى كما تذكرتها . وكان الحديث يدور حول النكسة : تحديد أبعادها ، تحليل أسبابها ، واستقراء الغيب عنها . ومضى الزملاء في الانصراف ثم قامت ثريا فصافحت الأستاذ سالم وهى تقول :

— موعدنا يوم الاثنين .

فأكد لها الموعد وهو يوصلها حتى الباب . ثم رجع إلى مكتبه وهو يقول :

— جاءت تدعونى إلى مناقشة وطنية بنقابة المعلمين .

فسألته متجاهلا :

— من هى ؟

— الدكتور ثريا رأفت ، مفتشة كبيرة بالتربية .

ثم استطرد بعد قليل :

— زوجها من رجال العلم النادرين المكرسين حياتهم للبحث أما هى فمن وجوه نهضتنا النسائية ، امرأة تستحق أن يفخر بها جنسها وأن يفخر بها الوطن ..

ثم قال :

— يندر أن تجد امرأة فى قوة شخصيتها وعلمها وخلقها .

تذكرت عيد منصور . تذكرت ضعفى وانهامى . تذكرت نفرا من أصدقاء الصبا مثل خليل زكى وسيد شعير ، تذكرت أحمد قدرى قريشى الذى لم أره منذ دهور ، تذكرت عشرات وعشرات ممن تلاطمت معهم فى مجرى الحياة ، برزت وجوههم وسط هالة من غبار متعفن كما تبرز الحشرات فى أعقاب انهار بيت آيل للسقوط .

## جاء أبو العلا

هو موجود وهو غير موجود .

ويرجع تاريخ معرفتي الشخصية به إلى عام ١٩٦٠ تلفن لى فى مكتبى طالبا مقابلتى فرحبت به متأثرا بما يتمتع به اسمه من شهرة فى دنيا الأدب . كان قد أصدر خمس روايات وربما أكثر . وكانت الإعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التى تشغلها فى الصفحات الأولى من الصحف . ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقدية فى الصحف والمجلات الأدبية مفرقة فى التقدير والثناء . وقد ترجمت رواياته جميعا إلى الإنجليزية والفرنسية ، كما ترجم ما كتب عنها فى الخارج إلى صحفنا ، وهى تشيد بأعماله إشادة لا تتحقق إلا للكاتب ذى خطر وشأن . وتبعاً لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكتنى لم أستطع أن أتم واحدة ، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام ، وأدهشنى أننى لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلى . وجميع أعماله تحولت إلى مسلسلات إذاعية وأفلام سينمائية فلم تحقق أى نجاح ولكنها كانت تشق طريقها بكبرياء كأنها درر .

ولما جاء لزيارتى وجدته لطيفا مهذبا ، لبق الحديث . سرعان ما تشعر بأنه صاحب قديم ، وألا مكان للكلفة بينك وبينه . صارحنى بأنه يود أن يتخذنى صديقا ودعانى إلى صالونه الأدبى بيته الجميل فى الدقى . ومن يومها وأنا أتردد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردا أو ضمن مجموعة من الزملاء ، ولعل عبده البسيونى كان آخر من انضم إلينا بعد عامين أو أكثر من مقابلاته التى لا تنسى معى . ولم يتوان عن عرض تاريخه على منذ أول لقاء . أشار إلى صورة كبيرة مموه إطارها بالذهب وقال :



— كان أبى رحمه الله من تجار التحف بخان الخليلى ..

وضحك عاليا وقال :

— لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى لسجلت تاجرا فحسب ونجوت من

انقسام الشخصية !

فسأله عما يعنى بانقسام الشخصية فقال :

— شعرت منذ عهد مبكر بالموهبة فألححت على أبى حتى وافق على إرسالى

فى بعثة خصوصية — عقب حصولى على الثانوية العامة — إلى فرنسا ...

وهز رأسه وهو يتسم إلى ثم قال :

— لم أكن أومن بالدراسة النظامية ولا كانت هدفى فالتحقت بمعهد لتعليم

الفرنسية ثم اتجهت بكل قواى نحو منابع الفن الحقيقية فى المتاحف والمسارح

وصالات الاستماع والكتب ...

وأسهب فى وصف تلك المنابع وتجربته التذوقية معها ..

— ولكنى اضطررت إلى قطع دراستى بعد مرور ثلاثة أعوام لوفاة والدى

فعدت لإدارة معرضه بصفتى أكبر إخوتى وأرشدتهم ...

وحكى لى كيف انقسم — وما زال — بين التجارة وبين الأدب ، وكيف

استطاع أن يشق طريقه العسير ويحقق موهبته باستغلال كل دقيقة من وقت فراغه

القليل . وترك حديثه — والأحاديث التالية على مر الأعوام — انطبعا فى نفسى

لا يمكن أن يوصف بالثقة . كان كثير المرح عادى الذكاء أقرب إلى السطحية ذا

طلاء ثقافى بلا أعماق . ومن هذا ومن قراءاتى السابقة لبعض رواياته ملت إلى

تصديق ما يقال عنه فى مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم

ومجلس الأستاذ سالم جبر وغيرهما . قالوا إنه أنفق أعوامه الثلاثة فى فرنسا فى مجالس

اللهو والعبث باسم اكتساب التجارب الحية ومعرفة الإنسان . وشهدوا له

بالمهارة فى تجارته مما عاد عليه بثروة طائلة ، تزداد مع الأيام ضخامة . وهو فى نظر

الجميع محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به إلى طريق

ملء بالمتاعب ، فقد صمم على أن يكون أديبا وأن يكمل ما ينقصه من موهبة بماله . وكان يكتب تجاربه . ثم يعرضها على المقربين من الأدباء والنقاد ، ويجرى تعديلات جوهرية مستوحاة من إرشاداتهم ، بل يقبل أن يكتب له بعضهم فصولا كاملة ، ثم يدفع بالعمل إلى أهل الثقة منهم في اللغة لتهديب الأسلوب وتصحيحه ، غامرا كل صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعا للظروف والأحوال . ويطبع الرواية على حسابه طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة — على حد قول بعضهم — كالعروس ، ومن ثم يوجه عنايته إلى بعض النقاد فيملأ نقدها أنهار الصفحات الأدبية ، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتى فرض نفسه على الحياة الأدبية . وبنفس الأسلوب شق سبيله إلى الإذاعة والتليفزيون والسينما ، دون اهتمام بربح ملم واحد ، بل ويضيف إلى ذلك من ماله إذا لزم الأمر . كان يحتقر بيئة التجار وهي مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كوكب محترم ، ويغرس نفسه غرسا شيطانيا في بيئة الفن وهي تأباه وهو فيها غريب محقر . وقد سألت مرة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا :

— أى لذة حقيقية يجنيها من جهده الضائع وهو أول من يعلم بزيفه ؟

فأجابني الرجل :

— أنت مخطيء ، لعله انتهى بتصديق نفسه ..

— أشك في ذلك ..

— ولعله بات يعتقد أن التجربة التي يقترحها أساسا لعمله هي كل شيء ،

أما الشكل .. أما الأسلوب .. أما الصناعة فأمر ثانوية لا وزن لها يقوم بها عبيد مأجورون !

فقال الأستاذ رضا حمادة صدقا :

— لا نهاية ولا حد للغرور البشري ..

فعاد زهير كامل يقول :

— الزيف في الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذي يجعل من باطن

الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته في الوقت الذي تتجلى فيه لأعين

الجميع .

وضحك زهير كامل ثم قال بنبرة تسليم يائسة :

— بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي : كيف تكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة ؟! .

وظهر عبده البسيوني في صالون جاد أبو العلا متأخرا ، عام ١٩٦٨ أو بعد ذلك . وقلت لنفسي ساعة رؤيته — ولم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبي — ها هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقا ! . وتصافحنا بحرارة كالأيام الخالية على عهد الدراسة وكأن الخطيئة لم تكن . وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعني إلى سؤاله عن زوجه وهل رجعت إليه ، ومن ناحيته لم يشر بكلمة إلى ذلك . وقال لي :

— القافلة تسير والصعاب تذلل ، وابني بلال في السنة النهائية بكلية طب القاهرة وهو شاب نابغة وسيكون له شأن ، وأخته لا تقل نباهة عنه وهي في كلية الصيدلة ، وعمما قريب سأستقبل عهدا من الاستقرار المالي والنفسى ..

فهنأته بذلك وتمنيت له أصدق التمنيات ، وقلت له :

— الظاهر أنك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثا ؟ .

فقال لي همسا :

— منذ عامين ولكنى لم أتردد على هذا الصالون إلا مرات معدودات لم يتصادف وجودك بها ..

ثم وهو يتسهم :

— إن أغلب مسلسلاته الإذاعية والتلفزيونية بقلمى ! ...

وضحكنا معاً ثم عاد يقول :

— وحتى الآن لم أوفق إلى بيع سلسلة باسمى ! .

ولما فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية زارنى الأستاذ عجلان

ثابت ومضى يضحك ساخرا وهو يقول :

— ألا يتقون الله ؟!

وتحدثنا طويلا حتى جاء ذكر عبده البسيوني فقال عجلان :

— لعلك لا تعرف أن زوجه كانت خليلة للأستاذ جاد أبو العلا ؟.

فجرى في باطنى تيار مضطرب لم يدر به عجلان ولا بأسبابه الحقيقية ..

وقلت :

— اتق الله بدورك .

— صدقنى فأنا أخصائى فى هذا النوع من الأخبار .

فسكت فعاد يقول :

— وعبده البسيوني يعرف ذلك أيضا وقد ضبطهما فى قفلا بالهرم واكتفى

بقطع العلاقة وتسلم حرمه ، ثم أعقب ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق ..

قلت باذلا جهدا غير قليل لتمالك أعصابى :

— متى كان ذلك ؟.

— منذ سنوات لعلها ثلاث أو أربع أو خمس !.

— ليكن ..

— يا له من رجل زائف !..

— عبده البسيوني ؟!

— هذا حمار بائس إني أعنى صاحب الجائزة الكبيرة ..

— نعم ..

— ومن عجب أن أبطال رواياته مثل للصدق والكرامة والفضيلة !.

— نعم ..

فهتف ضاحكا :

— علينا اللعنة جميعا حتى يوم الدين .



## جعفر خليل

بذكره يذكر حينا « العباسية » في العشرينات من هذا القرن . حتى الهدوء  
الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء . شرقه قصور كالقلاع وشوارع شبه  
خالية يجللها صمت وقور ، وغربه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة  
تردان بكرمة وشجرة جواقة وأرض مغروسة بالشيخ والورد والقرنفل ، تحديق  
بها الحقول ، في طرفها ساقية تدور بين خمائل من أشجار الحناء ، وتزكو رقعتها  
بالجرجير والطماطم ، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات ، أما فيما يلي أسوار  
البيوت فتمتد غابة من أشجار التين الشوكي . في النهار لا يخرق صمتها إلا جلجلة  
الترام وفي الليل لا يتردد في جنباتها إلا صيحة الخفير . وإذا هبط الليل لفها بظلامه  
فلا يخفف من غلظته إلا إشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالي أبواب بيوتها . ويوم  
انتقلنا من الحي القديم إليها ، ومضى الحمالون بالأثاث إلى داخل البيت الجديد  
تجمع في الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون . فعندما خرجت مستطلعا  
كذلك وجدت أمامي جعفر خليل ، سرور عبد الباقي ، سيد شعير ، عيد  
منصور ، رضا حمادة ، خليل زكي ، شعراوى الفحام . وقفنا تبادل النظرات  
حتى سألتني خليل زكي :

— تلعب معنا ؟

ترددت بلا جواب فسألتني سرور عبد الباقي :

— من أي حي ؟

فأجبت متشجعا بأدب أختض به :

— حي الحسين .

فسألتني جعفر خليل :

— تلعب كرة !

— كلا .

— تعلمها ، متى تدخل المدرسة الابتدائية ؟

— عقب الإجازة ..

— سندخلها جميعا في وقت واحد .

وسأل رضا حمادة :

— هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قادمون ؟

— جئنا عن طريق الحسينية ، المحال والمقاهى مغلقة في إضراب شامل .

— هل صادفكم إنجليز ؟

— دورية واحدة . هل ترونهم هنا ؟

فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما :

— ثكناتهم هناك في قلب العباسية ، ستراهم عند كل خطوة تخطوها ..

وسأل سرور عبد الباقي :

— أتممت الدراسة الأولية ؟

— مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك في الكتاب .

— لا توجد هنا كتاتيب !

فسكت وأنا أرمقهم في عدم ارتياح ، غير أن صداقتنا كانت قد بدأت ، وهي

لم تنقطع بعد ذلك إلا بالموت في حال شخصين منهم . وفضلا عن ذلك كان

جعفر خليل الوحيد الذى زاملنى أيضا في مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية

والجامعية . وكان يمتاز بخفة الروح وحلاوة النكتة والتفوق في اللعب والجد معا .

وقد دعانى إلى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادى الأهلى ولما سألته عن

التكاليف أجاب بكل بساطة :

— ولا ملين .

ذهبنا بجلايينا وصنادلنا مشيا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر ، الفجالة ،

ميدان المحطة ، عباس ، ميدان الخديو إسماعيل ، جسر قصر النيل ، حتى بلغنا  
النادي ، وإذا بالمجموعة تتسلق شجرة كبيرة وتتخذ أماكنها فوق الغصون فلا  
يسعني إلا أن أفعل مثلهم . في ذلك اليوم شاهدت مباراة كرة قدم لأول مرة في  
حياتي ، وعرفت لاعبين لم يمح أثرهم من نفسي حتى اليوم مثل حسين حجازي  
ومرعي ، ورأيت الإنجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد أنهم يقتلون فقط ، وهالني  
أن أرى على الحسنى وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضا فلا يعقب ذلك معركة  
دامية . سررت وسعدت ، وبدأت أعشق هواية جديدة ، وآمنت بأنه يمكن  
الانتصار على الإنجليز ولو في ملعب النادي الأهلي ، ولكننا تأخرنا في العودة إلى  
بيوتنا وتعرضت هناك إلى حساب شديد . وانضمت إلى ناديتهم « قلب  
الأسد » واشتركت في اللعب الذي كان يجري وسط غابة التين الشوكي ، وقدر  
لي أن أنافس في المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذي توهم في ذلك  
الوقت أنه يعد نفسه لاحتراف اللعبة . وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان  
يغني لنا بعض أغاني سيد درويش ومنيرة المهدية وعبد اللطيف البنا ، وبتقدم  
السنين راح يؤلف الزجل . بل كان يحول بعض مناظر الأفلام إلى مواقف زجلية  
ويخرجها ويشارك في تمثيلها في غابة التين الشوكي أيضا . ولم أعرف له قصة حب  
واحدة وإن ضبطته مرة وهو يعلم بنتا يهودية من جاراته كيف تركب الدراجة .  
وبتوثق علاقتي به عرفت أنه فقير بحق ، بل لعله كان أفقر المجموعة ، إذ كان أبوه  
موظفا صغيرا رغم تقدمه في السن ورغم طول مدة خدمته ، ولكنه كان ورغم  
ذلك أكثر مرحا وسيطرة . ورغم تعدد ميوله في اللعب والفن لم يبد اهتماما  
بالسياسة أو الوطنية كما كانت تعرف في تلك الأيام . وظل على سلبيته تلك حتى  
الجامعة وبعد التخرج . وقلت له يوما :

— عجيب ألا تهتم بما يصهرنا حتى الذوبان .

فقال ضاحكا :

— للوطنية رجالها ، لست منهم وإن تمنيت لهم النجاح .

— ولكن كل مواطن فهو من رجالها ..

— إني أجد سعادتي بين أهل الفن .

فحتى وهو تلميذ بالثانوية كان يتردد على نقابة الموسيقيين الأهلية ويشهد حفلاتهم المجانية ، ويحضر مجالس الرجالين بالقهوة الخديوية ، وكان يتمتع في ذلك بجرأة انفرد بها وحده . وعن طريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق إلى الوسط السينمائي ، فقام بدور ضمن الكومبارس في بعض الأفلام . وقدم قصصا سينمائية وهو طالب بالجامعة ، حتى وفق إلى المشاركة في كتابة سيناريو عقب تخرجه عام ١٩٣٤ . وعين مدرسا للغة الإنجليزية ، وعرف في المدرسة بنشاطه الرياضي وإشرافه على فريق التمثيل ، وسحر بشخصيته الخلافة الألباب . وقال لي :

— الوظيفة خطوة ليس إلا ولكنني عرفت هدفي ..

وكان من الشاق أن تعرف له هدفا محددًا ، أزجال هو أم ممثل أم مطرب أم سينارست ؟ ، فسألته :

— وما هدفك يا صاحب الأهداف ؟

— السينما !

— السينما ؟

— أجل ، هي مجمع الفنون ، هي دنيا السحر والرفاهية والجمال ، ولي فيها مجال وأي مجال في التمثيل والكتابة والغناء ...

ثم وهو يضحك :

— وشكلي مقبول ، لا تحكم عليّ بماضتي ، الفقر لم يوفر لي الغذاء الكافي لكنك سوف تحكم بعينيك عندما يستفيد جسمي من اللحوم التي طالما حرمت منها ظلما وعدوانا !

وفيما بين تخرجه ونهاية الحرب العظمى الثانية تقدم في نشاطه السينمائي بخطى ثابتة وملموسة ، اقتبس أربع قصص . وكتب ستة سيناريوهات ، ومثل أدوارا ( المراهبا )



ثانوية في عشرة أفلام ، وألف عشرات الأغاني ، وتحسنت أحواله المالية بدرجة طيبة جدا ، وكان باراً بأسرته الفقيرة فنقلها إلى عمارة جديدة بالشارع العام الذى تغير مع الزمن شكله ومضمونه ، وأقام معها وإن استأجر شقة خاصة في شارع شامبليون لعمله — أو قل لعمله ومزاجه — وحافظ بالمثل على علاقاته القديمة بحبه وأصدقائه . وإذا به يختار عضواً يبعثه إلى الولايات المتحدة في العام الذى أعقب انتهاء الحرب . ولم تكن البعثة في حسبانها ولكنه وجدها ممكنة بوساطة صديق من الوسط الفنى ذى صلة طيبة بوزير المعارف . ولم تنقطع عنى رسائله طوال مدة بعثته ، ومنها علمت أنه يعد رسالة للدكتوراه عن الفن في المجتمع العربى ، ومنها علمت أيضاً أنه ينوى دراسة السيناريو في لوس أنجلوس . وفي رسائل تالية علمت أنه يرأسل بعض المجلات بأجر طيب وأنه سيجرب حظه في الكتابة للإذاعة ، وأنه سيعود بمقدار طيب من الدولارات الأمريكية .

وعاد إلى مصر عام ١٩٥٠ ، وزرته في اليوم التالى مباشرة لعودته في مسكن الأسرة ولم يكن بقى فيه سوى أمه . تعانقنا بحرارة . ووجدت في زيارته كثيرين من أهل الفن كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعاً عدا شعراوى الفحام الذى قتل في غارة أثناء الحرب . وسئل أبقى في الوظيفة أم يستقيل للتفرغ للفن فأجاب : — سأبقى حتى أمتو في المدة الإلزامية بمقتضى البعثة وهى خمس سنوات ! وقال :

— الحياة الأمريكية حياة غريبة وعظيمة ، والأمريكى ذو مزاي لا يستهان بها ، ولكنى لم أستطع التخلص من إحساس عام بالنفور والكآبة بسبب قبلة هوريشما ..

وقال أيضاً :

— يخيل إلتى أن الأمريكين يتجهون الآن نحو الاهتمام بالشرق اهتماماً غير

عادى ، وأن علينا أن نعمل لذلك ألف حساب !

وقال بحماس :

— لدى أفكار قيمة سيكون لها شأنها في تطوير فن السينما في مصر ..  
ثم غلب المرح على الجلسة وضجت الحجرة بالقهقهات وبخاصة عندما انضم  
إلينا المرحوم الشيخ زكريا أحمد .  
وغادرت البيت مساء بعد أن دعاني إلى الاجتماع به صباح الجمعة بمسكنه  
الخاص بشامبليون .  
وفي صباح اليوم التالي قرأت في الأهرام نعيه .  
نعيه ؟!  
أجل نعيه .  
فقد غادر مسكنه في الثامنة مساء ، فزلت قدمه فوق قشرة موز ففقد توازنه  
وسقط فارتطم رأسه بحافة الطوار وسرعان ما فاضت روحه في ثوان معدودات  
أمام باب العمارة .

## حنان مصطفى

سمعت صوتا يناديني فتوقفت عن السير متلفتا إلى الوراء فرأيت سيدة في الحلقة السادسة تنظر نحوي بعينين زرقاوين باسميتين . تطلعت إليها لحظات ثم اقتحمني التذكر والعرفان كنفحة من عير الأزهار فهتفت :  
— حنان !

فقلت فيما يشبه الامتان :

— نعم .. حنان .. كيف حالك ؟

وتصافحنا بحرارة ونحن نميل إلى جانب من الطوار ، وراحت تقول :  
— تذكرتك بسهولة ، لم تتغير تغيرا يذكر ، وخفت ألا تتذكرني ولكن الظاهر أنني لم أتغير بصورة تدعو للنبأس ، ماذا جاء بك إلى جليم في مايو أم أنك مقيم هنا في الإسكندرية ؟

— بل جئت لاستئجار شقة للصيف ، وأنت ؟

— نفس السبب ، وحدك ؟

— نعم .

— وأنا كذلك .

وتبادلنا السؤال عن الأهل فعلمنا بمن ذهب ومن بقي ، وأخبرتها عن حالي الاجتماعية ، فقلت :

— لي أربع بنات متزوجات ، وأنا جدة من زمن ، أما زوجي فقد توفي منذ

عامين ..

ومشينا على مهل على الكورنيش حتى سألتني :

— متى رأيتني آخر مرة ؟

فتفكرت مليا ثم قلت :

— منذ أربعة وأربعين عاما ؟

فهتفت ضاحكة :

— باللفضيحة ، وبرغم ذلك عرفتك من أول نظرة !

— كما عرفتك !

— بل ترددت قليلا .

— من المفاجأة ..

فضحكت ثم تساءلت :

— أتذكر حب زمان ؟

وجعلت تتكلم بتدفق وتضحك بين ذلك بصوت عال حتى ذكرتني بما كان يقال عن جنون أمها . ولبثنا معا دقائق ثم ذهب كل إلى طريقه . ورجعت إلى عباسية الحقول والحدائق والهدوء الشامل . وعاود ذاكرتي بيت آل مصطفى ، الأب والأم والابن وحنان . بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاص . فعند الأصيل يجلس الأب في السلامك المطل على الطريق ، يجلس على كرسي هزاز وبين يديه منضدة عليها زجاجة ووعاء ثلج وكأس وطبق مزة . رجل بدين متوسط القامة أحمر الوجه أصلع يتحدى بكل استهانة تقاليد الزمان والمكان . في أول الجلسة يبدو صامتا رزينا بل متعاليا منظويا . ثم ينشرح صدره بالانتشاء فيجود بنظرات إنسانية على الطريق والعابرين ، وبعد ذلك لا يستكف من مخاطبة ياعى الملائنة والبطاطة والسحلب والدندرة تبعا للفصول ، وربما مازحهم واستعادهم الإنشاد المطرب الذى يعلنون به عن بضاعتهم على عادة ذلك الزمان . وكنا نقف غير بعيدين لنسمع ونشاهد ونشارك في السرور . ونتابع تعليقاتنا مرة مستنكرة في الغالب إلا ما يصدر عن جعفر خليل الذى كان يحبه ويعجب به ويعتبره فرجة لا تقل في بهجتها عن السينما والسيرك . وتظهر خلال تلك الجلسة اليومية ربة البيت ، طويلة نحيلة تتوكأ على عصا لعرج خفيف بها ، فتلقى على ما حولها نظرة



مستكبرة متأففة . والويل لنا إذا رأتنا نتفرج ونضحك فتنها علينا قدحا  
وتقريبا ، ولعنا لآلنا الذين لم يحسنوا تربيتنا ، ثم تختفى من السلامك وهى تسب  
الناس والبلد . كانت تعد — مثل زوجها — غير طبيعية ، وكثيرا ما كانت ترى  
وهى تتشاجر مع الباعة والخدم ، وقيل إنها كانت تكبر زوجها بعشرة أعوام ،  
وإنها غنية تملك أرضا ونقودا على حين لا يملك زوجها إلا حصة فى وقف ، وقد  
تزوجت منه رغم أنه بلا علم ولا عمل لعراقة أصله . وكان ضمن المترددى على  
الطريق غجرية ترعى الأغنام ، حافية فى جلباب أسود مشدود عند الوسط  
بحزام ، متلفة بخمار أسود ينسدل من تحتها على وجهها برقع أسود أيضا يخفى  
الوجه ما عدا العينين . وكان بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلما أقبلت وراء الأغنام  
نصيح بصوت واحد :

يا غجرية                      حلى حزامك                      من قدامك

فتقدفنا بما فى مجال يديها من طوب . ومضى مصطفى بك يهتم بها ويزجرنا  
مدافعا عنها . ويوما قال لنا سيد شيب : كان أسرنا إلى التطلعات الجنسية :  
— ألا ترون ما بين الخروف والماعزة ؟!

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمة تصدعت لها جدران البيت  
وعصفت بالشارع الهادىء حتى ازدحمت خصاص النوافذ بأشباح الحرىم .  
وغادر الرجل البيت فلم ير بعد ذلك ، ولكن شاع فى الحى أنه تزوج من الغجرية  
وأقام معها فى الدرب الأحمر . ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبت دورى  
الرجل والمرأة معا .

كانت غريبة الأطوار حقا ، ومن آى ذلك أنها سمحت لحنان باللعب مع أترابها  
على حين منعت أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت إلا بصحبتها ! . كان صبيا  
جميلا رشيقا ، كنا نراه وهو يلعب فى الحديقة منفردا أو مع خادمة ، وكان وديعا  
مهذبا أرق من أخته نفسها ، وكنا نبادلہ النظرات فنود لو يلعب معنا ويود لو  
نلعب معه ، ولكننا ظللنا غرباء حتى غادر مع أسرته الحى . وتعلق قلبى بحنان قبل

أن أناهز البلوغ . كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت ، وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنسين ، يجتمعون فى الشارع بلا اختلاط ، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها فى أيديهم ، وكنا نترنم بأناشيد رمضان وتبادل الحب وهو كامن فى براعمه المغلقة . وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات ، وإظهار الرشاقة فى الجرى والغناء ، أو المخاطبة بالابتسام فى خفاء . ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها منعت عن الطريق والمدرسة معا . لم يكن يتيها يؤمن بالتعلم أو العمل ويعتبرهما من ضروريات الفقراء فحتى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائية . وباختفاء حبيتى من الطريق اشتد ولعى بها وصارت شغلى الشاغل . وكانت ترينى نفسها خطفا من النافذة ، أو تبادل المشاعر بإشعال أعواد الثقاب فى الظلام فوق الأسطح . وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التى ترددت بيننا خفية حاملة التحيات والورود ، وسعدت بذلك سعادة لا توصف . فطمعت فى المزيد منها ، ولكنى لم أدر كيف ، وتسلل إلى روحى قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة والكآبة . وإذا بأمرها تزورنا ونادرا ما كانت تزور أو تزار . وبصراحة لا يمكن أن تصدر إلا عن امرأة مثلها اقترحت أن نتزوج ! .

وأحدث اقتراحها ذهولا ، وقالوا لها :

— إنه شرف كبير ولكنهما لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما .

فضربت بعصاها الأرض وقالت باستهانة :

— الزواج يعقد أحيانا بين أطفال فى الأقمطة ..

فقالوا :

— ولكنه لم يتم دراسته الابتدائية بعد وما زال أمامه مشوار طويل ..

فقلت بعجرفة :

— بنتى غنية ولن يجد حاجة إلى شهادة أو وظيفة .

— ولكن التعليم ضرورى والوظيفة ضرورية .

— كلام فارغ ...

— إنه لا يملك ولن يملك شيئاً ، ولن يقبل أن يكون مجرد زوج لزوجـة

غنية ...

فتساءلت بحدة :

— والعمل ؟

— لا سبيل إلا الانتظار حتى يتم تعليمه ثم له أن يتزوج بعد ذلك ...

— وما مدى هذا الانتظار ؟

— عشرة أعوام على الأقل ..

فصرخت المرأة :

— إنكم تركلون النعمة ..

ووقفت غاضبة ثم رددت بنبرة أقوى :

— إنكم تركلون النعمة !

وغادرت البيت عابسة متعجرفة. ودار تحقيق معنى لمعرفة الأسباب المجهولة التي تقف وراء تلك الزيارة الغريبة . ولم أكن أتخيل إمكان وقوع ذلك . ولم أشك في أن الأم المجنونة اطلعت على سر ابنتها فتنازلت لاقتراح الحل السعيد كما تتصوره وهي واثقة من قبوله ، وتأثرت لذلك غاية التأثير ، ورغبت رغبة صادقة في الاعتذار إلى حنان ولكن هالني أنها لم تعد تلوح في نافذتها ، كما كفت خادمتها عن المجيء إليّ . ورجعت عصر يوم من المدرسة لأعلم أن آل مصطفى قد غادروا البيت والحى إلى مكان مجهول . وعانيت لأول مرة في حياتي عذاب الحرمان والهجر . ولكن حدثه لم تقتلنى بل ولم تبطش بى . أطبقت على حينا ، ثم مضت تخف وتبت حتى استحالت ذكرى مجردة من أى انفعال .

ولم تقع على حنان عيناى مذ غادرت حينا حتى التقيت بها فى جلیم فى مايو ١٩٦٩ وهى تقرب من الستين من عمرها . أما شقيقها سليمان فقد ترامت إلى بعض أنبائه عن طريق المرحوم جعفر خليل عقب : انعطافه إلى الوسط السينمائى .



إذ صادفه ليلة في استديو مصر وهو يعمل راقصا ضمن فرقة جىء بها للتصوير في بعض مناظر فيلم استعراضى ، قال :  
— سلمت عليه وذكرته بنفسى فتذكرنى وأخبرنى بأنه هوى الرقص وكرس له حياته ...

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقعة فقال لى جعفر وهو يضجك ضحكته الكبيرة :

— يبدو لى أنه يمارس هوايته وحياته فى حرية مطلقة !  
وفى لقاء جليم أخبرتنى حنان أن أباهما توفى فى ختام عام انتقالها من العباسية إثر جراحة لاستئصال الزائدة الدودية ، وأن أمها توفيت منذ عامين فقط ، أما سليمان فقد انقطع عنها انقطاعا كليا فهى لا تعلم أخباره إلا من المجلات الفنية ...



## خليل زكى

كان اسمه يطلق على الشر والعدوان بين أصدقاء العباسية . فرضته الجيرة فرضا لا حيلة لنا فيه ولا اختيار . وأى اختلاف معه يعنى معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه . حتى اليوم فى جبينى أثر من ضربة قبقابه . اختلف رأيتنا فى حسين حجازى ومحمود مختار أيهما أمهر فى اللعب فقلت إنه حسين حجازى وقال إنه محمود مختار ثم كانت ضربة القبقاب فسال الدم على وجهى وجلببى . وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حول شارلى شابلن وماكس لندر . وتضارب مع عيد منصور لاقتراضه منه قرشا ومماطلته فى رده . ولم يكن له كفاء فى مجموعتنا سوى سيد شعير ، ولما نشب بينهما القتال شهدنا معركة عادلة لأول مرة ، فسال الدم من أنفيهما معا وتمزق جلبابهما ، وتخيّلنا ما ينتظره فى البيت بسبب تمزق جلبابه فتضاعف سرورنا . ولم تجد معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى الخصام ويقبل علينا هاتفا « صافية يا لبن » فإما نقبله وإما يتجدد القتال . على أنه من الحق أن أعترف بأنه لم يخل من فائدة لنا فقد كان قائدا فى المعارك التى تنشب بيننا وبين غلمان الأحياء القرية خاصة فى أعقاب مباريات الكرة . وكان أبوه عطارا فى بين الجنان ، وكان يعامله بفضاظة ضرب بها المثل ، وكثيرا ما كان ينهال عليه ضربا فى الطريق على مرأى من أصحابه ، كان يضربه بقسوة وحشية وبلا رحمة ، وكان خليل يمقته مقتا ويحلم ليل نهار بموته . وكان الأب مدمن أفيون ، وكان خليل من أفشى سره وشهره فى كل مكان ، وكان أسوأ مثال لرب الأسرة ، ولكنه خص خليل بلب كراهيته وشراسته . وكنا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع ، وفسرها سرور عبد الباقي تفسيرا دينيا فقال :

— إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح !

و لم يفلح خليل في دراسته الابتدائية ، ولما تكرر سقوطه شغله أبوه في دكانه .  
وتنفسنا الصعداء كما يقولون ، وخيل إلينا أننا تخلصنا من شره ، ولكنه لم يغب عنا  
أكثر من شهر واحد ، وأقبل علينا ضاحكا وهو يقول :  
— عادت ريمة لعادتها القديمة ..

فقلنا ونحن ندارى خيبتنا :

— خير إن شاء الله .

— طردني ابن المجنونة !

— من الدكان ؟

— ومن البيت !

وجاءنا سيد شعير بالأخبار — كان أبوه تاجرا ومن أصدقاء والد خليل —  
فأخبرنا بأن خليل اعتدى على زبون بالضرب ، وتكررت سرقاته لنقود الدكان  
حتى اضطر الرجل إلى طرده . وجئنا للأخبار وأدركنا أنه سيتفرغ لنا بثقله  
وعناده . وبالفعل تحملنا نفقاته في المقهى والرحلات ، وعدا ذلك فلم ندر شيئا  
عن أين يذهب بقية الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل . وفي تلك المرحلة من  
دراستنا الثانوية اتصل جعفر خليل بدنيا السينما فجره معه ليعمل ضمن  
الكومبارس فدرت عليه قليلا من النقود ، وهناك التقى بسليمان مصطفى  
الراقص فحام حوله بغريزته النفعية . وما لبثت أن نشأت بينهما صداقة غريبة  
فسار في ركابه وانتفع إلى أقصى حد بماله . وكان جعفر خليل يحكى لنا مغامراته  
السينمائية تلك وهو يضحك من أعماق قلبه ، حتى قال لنا يوما :

— صاحبنا تمادى كعادته حتى ضاق به سليمان فطرده !

فهتفنا ونحن نتوقع شرا :

— طرده ؟!

— وانقلب عليه يهدده ويتحرش به ...

— وقع المسكين في شر أعماله !

— ولكن سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدري صديقنا خليل إلا وهو يساق إلى نقطة الشرطة ، وهناك جلد حتى يبع صوته من الصراخ ، ثم أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهد بألا يتعرض للشاب ...  
وعاد خليل يتسكع هنا وهناك ، ثم اختفى زمنا فلم نعد نسمع عنه خيرا ، وكان عيد منصور أول من جاءنا عنه نبأ إذ تسلل ذات ليلة إلى بيت دعارة سرية بالسكاكيني ...

— فلمحته هناك يجلس مع المعلمة كأنه شريك !  
ولكن جعفر خليل هو الذى جاءنا بالخبر اليقين . كان أحب مجموعتنا إليه مذ فتح له بابا للرزق فأفضى إليه بسره . كان يذهب إلى أى بيت دعارة كأنه زبون ، ولما يقضى وطره ويطالب بالنقود يهدد بإبلاغ الشرطة ، فإذا استعانوا عليه بحامى البيت جندله ، وما يلبث أن يفرض نفسه « حاميا » للبيت ، ولم تمر فترة طويلة حتى شمل بحمايته جميع بيوت الدعارة فى منطقة السكاكيني . بذلك تحسنت أحواله واستقرت ميزانيته وعرف النعيم . وكانت حياة خطيرة مهددة ولكنها كانت تناسبه كما كان يناسبها . وتدرج فيها فى مدارج الرقى حتى وثب به نشاطه إلى بيوت الدعارة الفاخرة فى وسط المدينة . وابتسم له الحظ فقدم خدمة ( غرامية ) لطبيب كبير ، وابتسم له الحظ مرة أخرى عندما عين الطبيب عميدا لكلية الطب فكافأه بإلحاقه بوظيفة إدارية بمستشفى قصر العيني . هكذا وجد خليل زكى نفسه موظفا فى مستشفى كبير ، موظفا يخطر تحت رعاية العميد ، مرتبه بسيط حقا ولكن أرباحه خيالية . ورجع يزورنا فى المقهى وهو بادی النعمة فيطلب النارجيلة والشاي الأخضر وينظر إلينا من فوق كما يجدر بموظف يجالس تلاميذ .  
وقد سألت جعفر خليل مرة :

— وماذا عن المهنة الأخرى ؟

فقال ضاحكا :

— الظاهر أنه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى !؟

— إذن قطع علاقته بالبيوت ؟

— طبعا .. عدا المختار من البيوت الرفيعة ... الممتازة جدا ... ومن بعيد لبعيد ... وليؤدى خدمات نادرة للصفوة ...

وكان على علاقة بقصاب غنى من مدمنى المخدرات فخطب منه كريمة . وكانت الوحيدة التى بقيت من ذرية الرجل بعد أن قتل أخواها فى المظاهرات التى اجتاحت البلاد فى أول عهد إسماعيل صدقى . وتزوج خليل من فتاة موعودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات فى شارع فاروق غير النقود السائلة . وعقب الزواج بعام واحد ضبط القصاب الغنى متلبسا بتعاطى المخدر فقبض عليه وحكم عليه بالحبس عاما ولكن صحته لم تتحمل ذلك فمات فى مستشفى السجن ، وانتقلت إدارة الأملاك إلى يد خليل زكى . وعندما ترامت إلينا تلك الأخبار لم يشك أحد منا فى أن خليل هو الذى أوقع بحميه ليستولى على ثروته : وتسلطت علينا تلك الفكرة لحد الإيمان . قال عيد منصور فيما يشبه الحسد :

— صفقة تاريخية ..

وقال جعفر خليل ضاحكا :

— عليه العوض فى العمارات الأربع ..

وقال رضا حمادة :

— مسكينة ، سنراها متسولة فى الطريق عما قريب !

وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه إلا فى النادر . ومنذ اجتماعنا فى مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أره ولم يكن يخطر ببالى حتى عام ١٩٧٠ ، كنت جالسا بالترينون فى أوائل الخريف حين وقفت أمامى سيارة بويك سوداء ورأيت وجهها ينظر نحوى من نافذتها . وأقبل نحوى ضاحكا فسلمنا وجلس . رغم كبره بدا بجسمه القصير مدحج التكوين قوى البنيان ، كما بدا شرس السحنة همجى المنظر فلم ترفعه بذلته الشر كسكين إلا قليلا . وظل محتفظا بطربوشه ليخفى صلعة مشوهة بآثار خياطات جراح قديمة من مخلفات معاركه . تذاكرنا

أخبار الصحاب ثم قال :

— لعلك لا تعلم بأننى أصبحت من أهل الإسكندرية ؟

— حقا ؟

— آخرة العنقود طالبة بالآداب لم تجد في القاهرة متسعا فقررت الإقامة في

الإسكندرية وابتعت فيلا في لوران . سترها بنفسك !

فشكرته وسأله :

— ووظيفتك ؟

— أصبت منذ عامين بذبحة صدرية فاعتزلت الخدمة ...

— سلامتك ..

— صحتي عال ولكنى لا أحترم كثيرا الإرشادات الطبية ...

وضحك حتى كشف عن أسنانه الملونة ثم قال :

— لى غير البنت التى حدثتك عنها ثلاثة مهندسين وطبيب !

فأبدت الإعجاب والاستحسان فقال وهو يفرق في الضحك :

— عرفت كيف أكون أبا !

ثم بنبرة أسف :

— وددت لو جاءوا مثلى لا يهتمون إلا بأنفسهم ومستقبلهم ولكنهم دوخونى

بمناقشاتهم السياسية .

وجعلت أختلس إليه النظرات متسائلا ، ترى هل يشب إلى العدوان إذا تهيأت

أسبابه ؟ ، إلى أى مدى تغير حقا ؟ . وكيف ينظر اليوم إلى ماضيه ؟ ، وبأى

صورة يتصور أمام أبنائه ؟ ، وهل يطيق أن يعيد أحد سيرته ؟ ، وألا يعتبر ثلاثة

مهندسين وطبيب كفارة عن أى ماض أسود ؟ ، وأى الحلين كان أفضل ، أينجو

من القانون رغم جرائمه ليهدى للوطن أربعة من العلماء أم كان يقبض عليه لتستقر

العدالة فوق عرشها ؟ ! ، وتذكرت قول الأستاذ زهير كامل « بت اعتقد أن



الناس أو غاد لا خلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد .

## درية سالم

— اسمحي لي أن أحييك ...

فارتسم ظل ابتسامة على شفثيها فقلت متشجعا :

— غير معقول ألا نتبادل تحية بعد ما كان ..

فخرجت عن صمتها قائلة :

— بعد ما كان ؟

— بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا .

فضحكت ببراءة وقالت :

— أقبل التحية .

— هذه هي الخطوة الأولى .

— هل توجد خطوات أخرى ؟

كانت نجىء بأبناء ثلاثة إلى المنتزه ، فيستحم ثلاثهم في البحر على حين تجلس هي منفردة في الكازينو تراقبهم من النافذة . لفت نظري إليها وجه بشوش وجسم فوار .. بالنضج الأنثوي . وعشقت في عينيها نظرة ودودا كأنما خلقت للاستقبال والترحيب . وسرعان ما شعرت بأن ثمة دعوة رقيقة تطالعي كالزهرة الناعمة وأن تجاهلها فوق طاقة البشر . وتبادلنا كلمات عابرة فاتفقنا على موعد في حديقة البجعة ، وآمنت وأنا في الطريق إليها بأنها امرأة من نوع خاص فلعلها أرملة مطلقة . ولكنها قالت لي ببساطة :

— أنا متزوجة !

فقلت مأخوذا :

— ولكنني أراك دائما منفردة .

( المرايا )

— هو فى بعثة قصيرة تنتهى هذا العام ١٩٦٠ .

فوجمت فسألتنى ضاحكة :

— أتخاف من النساء المتزوجات ؟

— إنى أفكر ..

فقاطعتنى قائلة :

— فكر فى إعداد مكان آمن نلتقى فيه فى القاهرة !

فقلت بحماس ظاهرى :

— اتفقنا .

— ولا تسىء بى الظن !

— كيف ولم ؟

— لعلك تتساءل عما وراء امرأة لبت لك أول إشارة ؟

وكان ذلك ما يبدو ببالى ولكننى قلت :

— لم أكن دونك استجابة وكنت البادئ !

فقلت برقة :

— من حقنا أن ننعم ببركة الصراحة .

تأملت كل شىء بوعى شأن من لم يقع تحت سيطرة مجنونة . وقلت لنفسى

إنى أعجب بهذه المرأة وأرغب فيها ولكننى لن أحبها . وتهيا لنا المكان فى طريق

سقارة . وتخيلت خلوة حمراء مشتعلة . ولكن ما أن أغلقت الباب وراءنا حتى

وجدتنى بحضرة امرأة جديدة . جلست مسترخية على كنبه ، حتى التلفيفة

الحريرية لم تنزعها من حول عنقها . تبدت هادئة مستسلمة تطالعنى بعينين

ملوئهما الحنان ، ورحت أداعب أطرافها وألثم فاها فتبادلنى عواطفى بابتسامة محبة

قائعة . ولما قدمت لها كأسا اعتذرت فلما دعوتها إلى الفراش همست فى أذنى :

— ليتنا نمضى وقتنا فى سعادة بريئة هادئة ..

فقلت محتجا :

— لا أصدق ..

فنهضت وهي تقول :

— ولكن لا تعتبره غاية في ذاته ..

وبالرغم من أن التلاقى كان جذابا إلا أنى آمنت بأنه كان من الممكن لها حقا أن تمضى الوقت فى سعادة بريئة هادئة . ثمة تناقض كبير بين المرأة اليسيرة المستجيبة لدى أول إشارة وبين هذه المرأة الرقيقة الزاهدة . وقلت لها :

— أنت شخصية غريبة !

— حقا ... لم ؟

ولما تلكأت فى الإجابة سألتنى :

— هل تجد صحبتى عزيزة محبة ؟

— بكل جدارة .

— هذا ما يهمنى حقا .

وتتابعت اللقاءات أسبوعيا . بلا حب حقيقى من ناصيتى وبلا دافع يبرر

الخيانة من ناحيتها . ولما رفعت الكلفة بيننا قلت :

— أعترف لك بأننى — فى كازينو المتره — توهمت أنك امرأة لعوب !

فسألتنى باهتمام :

— ماذا تعنى ؟

— أعنى معنى بريئا !

— سامحك الله !

فتناولت يدها بين يدي وقلت :

— إنى أتساءل عما يدفعك إلى حضن رجل آخر ؟

— آخر ؟!

— أعنى غير زوجك ؟ ..

فقلت وهي تسبل جفניה فى استياء :

— لذلك يضيق الناس بالمحققين !

ولكن باطراد اللقاءات استأنستها العادة فاستسلمت بحرية إلى تيار الذكريات الحميمة . وفي مناسبة ما قالت بصدق :

— تزوجت بعد قصة حب ، حب عميق ..

وكانت تعمل ممرضة وكان هو طبيب امتياز .

— تبادلنا حبا جميلا كاملا ، وأصارحك بأننى استسلمت فى أول لقاء ...

— وتزوج منك ؟

— كان شهما ، كان محبا صادقا .

— ما أجمل ذلك .

— وعشنا طويلا كأُسعد ما نكون فأُنجبت له ثلاثة أولاد .

وسكنت فسألت :

— ثم ماذا ؟

فأجابت كمن تفيق من حلم :

— لا شيء .

— كيف حالكما اليوم ؟

— حال عادية !

— ماذا تعنين ؟

فقالت ضاحكة :

— كل ذلك الوقت الضائع على حساب حُبنا !

— ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته !

— لم لا ؟!

لم يعد يربطنى بها إلا الجمالة ثم العادة . وازدادت هى رقة ومودة وحنانا حتى

قالت لى يوما :

— لا أتصور حياتى بدونك .



فوجدت أن أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة ولكنها تساءلت في عناد :  
— وأنت ؟

— مثلك وأكثر .

— لم تقل لي صراحة إنك تحبني .

فقلت :

— لكنني أحبك بالفعل وهو الأهم .

ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته القصيرة . تحدثت عنه بموضوعية كأنه ظاهرة لا تربطها بها علاقة حميمة . ولكن باحترام لا مزيد عليه . وفي ذلك التاريخ كنت بدأت أتردد على صالون الأستاذ جاد أبو العلا ، وهناك التقيت بالدكتور صادق عبد الحميد ! . وقص علينا جاد أبو العلا كيف زار الدكتور في استشارة طبية وكيف توثقت العلاقة بينه وبين الدكتور . وبدأت بيننا صداقة روحية نادرة ، فقدمته بدوري إلى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون الدكتور ماهر عبد الكريم . وأدهشني أن أرى فيه رجلا يماثل درية في السن أو لعله يصغرها ببضع سنوات ، وسيما ذكيا ذا طموح روحي لا حد له . هكذا بدأت صداقتنا بعد توطد علاقتي بزوجته بأربعة أشهر ! . وضايقني ذلك وأزعجني لحد العذاب . ولم تتوقع درية ذلك فذهلت له . ولاحظت دون جهد ارتباكى وقلقى ، وجو الكآبة الذي خيم بثقله فوق لقاءاتنا فخنقها . وبدأ أن تيار الحياة يمضى إلى زاوية مسدودة ليشهر موته . قالت لي بتوسل :

— انس تماما أنه زوجي ، ألم يكن من المحتمل ألا أشير بكلمة إلى هويته أو

اسمه ؟

فقلت بارتباك :

— لا فائدة من افتراض احتمالات لا أضل لها ...

— يجب أن نحافظ على علاقاتنا فهي أهم من كل شيء ...

فقلت بحزن صادق :

— إني أتعذب .

فقلت بانفعال غير معهود :

— لعله لو علم بعلاقتنا ما اكرث لها !

ف نظرت إليها بذهول غير مصدق فقالت :

— إنه لا يحبني . لم يعد يحبني منذ ثلاثة أعوام أو أكثر . صدقني ..

— إني أصدقك وأنا آسف ..

— وهو يعاشر امرأة أخرى ، ولولا تفانيه في حب أولاده لهجرنا ليتزوج منها !

— إني آسف يا درية ..

— ماذا تعنى بقولك آسف ؟

— آسف لحالك ، ولحالي التي لا أحسد عليها ..

— لو كنت تحبني لما شعرت بأسف على الإطلاق !

— الواقع أني لا أطيق ذلك الموقف بحال ...

أشاحت بوجهها عني محمرة العينين وتمتمت :

— أنت لم تكذ تعرفه ، هل تنشأ الصداقة من العدم ؟

ثم بحزن شديد :

— والحب أقوى من الصداقة ولكن الحقيقة أنك لا تحبني !

لم أجد ما أقوله فصمت . وبالصمت أسدل الستار على علاقتنا الحزينة

المفتعلة . وعندما غادرنا عشنا تأملت شخصها الناضج الذي يعاني أخرج فترة

من العمر تحت وطأة الهجران والخيبة فتقلص قلبي ألما وحزنا . لفحننا في الخارج

هواء بارد كلسع السياط ، في ظلمة الليل ...

## رضا حمادة

يرتبط في الخيال بالعباسية ، عباسية الحقول والحدائق ، مثل جعفر خليل و خليل زكى وحنان مصطفى . ولكنه يرتبط أيضا بقيم ومبادئ لا يستهان بها ، ويعنف تيار الحياة في صعوده وهبوطه ، وبإرادة الإنسان حيث تتوثب للصراع والتحدى وتجاوز اليأس والأحزان . وهو عملاق كصديقنا سرور عبد الباقي ، امتاز بالعملقة حتى ونحن غلمان نلعب في غابة التين الشوكي ، ولعله من القلة التي واجهت عنف خليل زكى برباطة جأش . وعرف منذ عهد المدرسة الابتدائية بالاهتمام الشديد بالوطنية . كان يتكلم عن سعد زغلول أكثر مما يتكلم عن حسين حجازي أو شارلي شابلن أو المصارع عبد الحليم المصري . ولعله ورث ذلك عن أسرته التي اشتهرت في شارعنا بالوطنية والعلم فكان أبوه مدير عام مستشفى الحميات بالعباسية ، وكانت أمه مدرسة من السابقات إلى التعلم ومن طلائع النهضة النسائية ، ونبغت أخته في العلوم فأرسلت في بعثة إلى إنجلترا . كما تفوق أخوه في مدرسة الحقوق . ولكن أسرته اشتهرت أيضا بالكوارث التي حلت بها ، فماتت أمه وهو طفل ، وفصل أبوه من الخدمة لفرط نشاطه في خدمة الوفد المصري في إبان تكوينه ، وماتت أخته في إنجلترا ، واستشهد أخوه في ثورة ١٩١٩ . وكان يفاخر بأخيه واستشهاده وينوه بذكائه واجتهاده حتى ضاق

خليل زكى بذلك فقال لي مرة :

— لم قتل هذا المجنون نفسه ؟

فقلت ببراءة :

— في سبيل الاستقلال ...

فتساءل ساخرا :

— وهل كان الإنجليز يقيمون فوق صدره ؟!

ولما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع لهم في البيت . وكان يضيق بالبيت ويعتده سجنا بلا قضبان . ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب . اعتكف الوالد في البيت عقب فصله من الخدمة . لا يغادره إلا إذا استدعى لاستشارة خاصة في أحد البيوت ، والظاهر أنه كان يريد أن يخلق من رضا شخصا يعوضه عن جميع خسائره ، فاشتد في معاملته ، وحمله ما يطيق وما لا يطيق . وطالبه بالعلم والأخلاق والوطنية والتفوق ، وراقبه مراقبة بلا هوادة ولا تسامح . لذلك نشأ رضا متطهرا متقشفا مجتهدا مطلعا طموحا ولكنه افتقد دائما الحنان والعدوبة . وكثيرا ما كان يقول :

— حدثني عن أمك ، كيف تحبها وكيف تحبك !

ويتغنى بالنشيد المعروف :

أيها الطائر أهلا بمحياك وسهلا

ويتهدج صوته وهو ينشد :

أمكن أستودعتنى شوقها إذ ودعتنى

وخطابا حملتنى لفظه يشفى العليل

ومرة أهانه أبوه في الطريق لإهمال تورط فيه فتأثر تأثرا بالغا . وسرنا وهو صامت حتى وقفنا عند السبيل كعادتنا كل أصيل في العطلة . وغاب عنا بعض الوقت ثم رجع فلم يكذ يلحظ أحدنا شيئا . وبغته تكور وهو يقبض على بطنه يدين متشنجتين ويصرخ من الأعماق . وانطرح على الأرض تحت شجرة ، وراح يتمرغ في التراب ، ومن شدة الألم بعض أصول الشجرة الضاربة في الأرض ، واجتمعنا حوله فزعين واجتمع الناس . وما لبث أن جاءت الشرطة والإسعاف فحمل إلى قصر العيني حيث أسعف من حمض الفنيك الذي شربه بقصد الانتحار . شد ما هزنى الحدث والمنظر. وسأله فيما بعد :

— كيف هانت عليك نفسك ؟

فابتسم فى حزن وتمتم :

— ألم تر كيف أهاننى أمامكم ؟

وأعتقد أن تلك المحاولة المشئومة غيرت من سياسة أبيه نحوه كما أن تفوقه النادر وفر له المزيد من التقدير والاحترام . ولم يمنعه تفوقه الدراسى من الإسهام فى النشاط السياسى الذى خفت حدته وتغير لونه بعد انحسار موجة الثورة العارمة . فقد بلغنا أولى درجات الوعى بعد أن انقلبت الثورة الدامية أسطورة مقدسة من أساطير الغيب . وكان كل منا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مشير ولا شىء أكثر من ذلك . وقد اشتركنا معا فى المظاهرة التى قادها نادر برهان تأييدا لسعد زغلول — وهو رئيس وزارة — فى اختلافه الدستورى مع الملك فؤاد . وتوطدت علاقته فى الثانوية مع بدر الزىادى لتقارب مشاربهما . ولما تولى محمد محمود الحكم قال بدر :

— لم يكن لنا من عدو فى الماضى إلا الإنجليز .

فقال رضا حمادة :

— والملك .

— هما شىء واحد .

— موافق .

فقال بدر :

— وها هو عدو جديد ينضم إلى الميدان ...

ولما قتل بدر الزىادى فى فناء المدرسة حزن رضا حزنا شديدا ، وقال لى :

— مات بدر على حين يحيا خليل زكى !

فقلت له بحزن :

— ومحمد محمود يحيا أيضا !

وتقدم رضا فى نشاطه السياسى فجالس مصطفى النحاس فى بيت الأمة ضمن وفود الطلبة . وقبض عليه فى حكم محمد محمود ، وكاد يقتل فى عهد صدقى ،



وفي كلية الحقوق صار من زعماء الطلبة فاستمعت مرات إلى خطبه الحماسية في الحرم الجامعي . كان مثالا للوفدى الصادق في إيمانه بالا استقلال والدستور والحياة الديمقراطية . وكان ينظر بامتنعاض شديد إلى مجرى السياسة في مصر حتى آمن بفكرة نبتت في يقينه . قال :

— لقد فقد الوفد أو قل الشعب قوته الضاربة يوم قبض على زعماء جمعية الكف السوءاء ...

فقلت ببراعة :

— ولكن الوفد يدعو إلى الجهاد المشروع !

فضحك وقال :

— دعك مما يقولون ..

ثم قال بحنى :

— لا نجاة لنا إلا بإبادة السراى وأحزاب الأقلية ثم نواجه الإنجليز كتلة

واحدة !

وقد أحب ثريا رأفت وأراد أن يخطبها وهو طالب بكلية الحقوق . لم يصارحنى بذلك فى حينه كما لم أبع له بعلاقتى بها فى حينها ولكنى عرفت الحكاية عقب النكسة ! . كان رضا ضمن المجتمعين فى مكتب سالم جبر الذى تراءت فيه ثريا رأفت . وتقابلنا بعد ذلك فى بيته بمصر الجديدة فسألنى :

— أتذكر السيدة التى كانت فى مكتب سالم جبر ؟

فقلت باهتمام :

— ثريا رأفت ..

فضحك قائلاً :

— كانت من أهل السكاكينى وقد أحببتها وأنا طالب فى الحقوق حتى عزمت

على خطبتها لولا ...

— لولا ؟

— لولا أن رأيتها بصحبة صديقنا عيد منصور !

وعند ذاك قصصت عليه قصتي معها !

وتخرج رضا في الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة . ومات أبوه تاركاً له ثروة لا بأس بها . وبزغ نجمه ككاتب سياسى كما رسخت قدمه في المحاماة . وانتخب نائباً عن دائرتنا في انتخابات ١٩٤٢ ، وكانت موقعة ٤ فبراير قد هزنتى من الأعماق ورمت بوفديتى فى أزمة خانقة . وصارحته بذلك فقال لى :

— إنى أعتقد أن مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش !  
فقلت بأسى :

— تصور أن الدبابات البريطانية تجيء بزعم البلاد رئيساً للوزارة !  
فقال بإصرار :

— لقد كان الإنجليز أعداءنا ولكنهم اليوم يقاتلون فى الجانب الذى نرغب فى أن ينتصر ...

— ثمة خطأ يفرض روحى كالسم !  
فسألنى :

— أتود للفاشستية أن تنتصر كما يود الملتفون حول الملك ؟  
— كلا طبعاً ...

— فانتشر إلى ٤ فبراير إذن على ضوء ذلك الضوء .

وانتخب مرة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة . وكانت تعتريه نوبات حزن شديد كلما شعر بأن الوفد لم يعد على المستوى الرفيع الذى طالما تربع عليه بجدارة ، أو أنه تسلل إليه خور فى الإرادة والاستقامة وفتر حماس الشعب له . وكم اهتز طرباً يوم ألغى مصطفى النحاس المعاهدة ثم أعلن الجهاد ، يوم مرت فى الوادى نفحة من روح ١٩١٩ ، ثم تتابعت الحيات كالمطارق حتى قامت ثورة يولية ١٩٥٢ . وتحمس لها فقال لى :

— سيعود الوفد بلا منازع !

ولما سارت الثورة في طريقها المرسوم أمل أن تتخذ من جماهير الوفد قاعدة لها . حتى إذا صدر قرار حل الأحزاب تقوضت آماله وقال لي :  
— نحن مقبلون على حكم عسكري لن يعرف مداه إلا الله .  
فقلت له بإخلاص :

— اعتزل السياسة وتركز في مهنتك !

فقال ضاحكا :

— لا خيار !

ولكن وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به في موضع الشبهات فاعتقل أكثر من مرة . وكان قد تزوج عام ١٩٤٠ فأنجب ابنا وحيدا قبل أن تصاب زوجته بما منعها من الإنجاب . وطالما أعجبت بابنه لذكائه وحيويته . ولما اعتقل رضا تعرض لحملة تشهير كبقية زملائه فعانى ابنه — وكان طالبا في المدرسة الثانوية — تجربة مريرة بين أقرانه . وكان شديد الحساسية فامتحن بأزمة نفسية عنيفة أتلفت أعصابه . وسرعان ما كره المدرسة ، واعتكف في بيته . ومضت حياته من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر أبوه إلى إيداعه مستشفى الأمراض العقلية . ولم تحمل أمه الصدمة فشلت وماتت في نفس العام . هكذا وجد رضا نفسه كهلا وحيدا غارقا في الأحزان ، وهكذا أدركته لعنة أسرته . قلت لنفسى :

— انتهى رضا حمادة .

— ولكنه لم ينته في الواقع . غادر حيه القديم إلى مصر الجديدة ، وكرس حيويته لمهنته ولمكتبته . ولعل العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سنى حياته . إنه اليوم من أبرز المحامين . وهو عاكف على تأليف ما سماه بدائرة معارف العلوم الجنائية . وقد ضمن مقدمتها من الآراء الفلسفية والنظرات النفسية ما يشهد له بالموسوعية في المعرفة والمقدرة الفائقة في التفكير ، وليس هذا بالجديد على فقد سمعته يناقش الأساتذة ماهر عبد الكريم وسالم جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنه موسوعة في الفلسفة والسياسة والأدب ، أما عن القانون فهو حجة من حججه

المعاصرة بلا جدال . غير أن إعجابى الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شيء . وقليلون جدا من عرفتهم يماثلونه في ذلك مثل كامل رمزي وسرور عبد الباقي . ولا غرابة في أن تبهرنى الأخلاق البناءة كرجل عاصر فترة انهيار في الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى خيل لى فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير للدعارة لا فى مجتمع . ففى رضا حمادة عرفت رجلا نقى النوايا والسلوك ، نزيها مخلصا ، آمن طيلة حياته بمبادئ لا يحيد عنها كالحرية والديمقراطية والثقافة إلى عقيدة دينية مستنيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة .

أجل وقف موقف الرفض من أى رأى يسارى ، وعجز عن التطور مع الزمان ، فعصرته أول العهد بصداقته وهو مثال للشباب الثورى ثم عاصرته فى شيخوخته وهو محافظ عنيد وإن لم يعترف بذلك . فما برح يردد أن الليبرالية هى آخر كلمة مقدسة فى تاريخ الإنسان السياسى . ولعل شخصيته الأخلاقية هى التى سنده حىال الكوارث التى عصفت بحياته . وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عبدهم مثل الحرية والديمقراطية ومضطفى النحاس وزوجته وابنه ، توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم ، ولكن ثابر على العمل بقوة مضاعفة . وجابه الحياة بإرادة من فولاذ ، وظل على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس . وكلما أقبل على بقامته المديدة ورأسه الأبيض ، أو أمتعنى بأحاديثه المتنوعة . انبعث فى أعماق روحى نشاط متألق بالأفراح فأجدد إعجابى به وبالحياة المباركة التى خلقتها ...

## زهران حسونة

ثمة أصحاب من نوع خاص ، أصحاب يرتبطون بمكان ما لا يتجاوزونه ،  
حلا لي يوما أن أدعوهم أصحاب المقاهي . في المقهى نتصافح بحرارة ونتجالس  
ونتسامر ثم يذهب كل إلى سبيله . ومنهم من يختص بصفة تستحق التأمل فيترك  
أثرا قبل أن يذوب في النسيان . من أولئك زهران حسونة . عرفته في مقهى  
ركس في أيام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردد عليه من حين لآخر بصحبة  
جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوي الفحام وعيد منصور . كان يزور المقهى مع  
آخرين من صحبه في يوم الأحد ، وكان بدينا متوسط القامة كبير الرأس جدا  
كأن به عاهة . وعن طريق التردد تعرفنا بهم ثم صاحبناهم . قال يعرفنا بنفسه :  
— كنت موظفا بوزارة التجارة والصناعة ثم سويت معاشي لأشتغل في الأعمال  
التجارية ...

وكان إذا حضر وقت الصلاة قام وصحبه فاتحوا جانبا فيما وراء البار وأدوا  
الصلاة جماعة وهو يؤمهم . وهو يؤمهم لأنه الوحيد بينهم الذي أدى فريضة  
الحج . والحق أن الدين كان يشغل حيزا من أحاديثهم لا يستهان به ، وهي تفصح  
عادة عن إيمان بسيط صادق تختلط فيه العقيدة بالخرافة بالأساطير الشعبية ولكن  
لا شك في صدقه . وكانت صحبتهم ممتعة ، وكانوا كرماء ، وفيهم شهامة أولاد  
البلد . غير أن عيد منصور قال لنا يوما :

— جئت لكم بمعلومات طريفة عن الحاج زهران حسونة .

فسألناه عنها فقال :

— لم يستقل ولكنه اضطر إلى الاستقالة لسوء سمعته ...

— أي نوع من سوء السمعة ؟

— الرشوة !

وعيد منصور يسره دائما أن يثبت أن جميع الناس لا خلاق لهم مثله ! . قال وهو  
يضحك :

— إني أشك في جميع الناس ولكني أشك بصفة خاصة في المتدينين !  
فقال رضا حمادة :

— ولكن ليس كل متدين منافقا !

فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر :

— النفاق درجة لا يرتقى إليها عم زهران حسونة !  
فضحكنا فراح يفسر قوله :

— النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الإيمان ولكنه أغبى من أن يكون كافرا ، أنا  
لا أشك في إيمانه ..

— إذن لعله تورط في الرشوة تحت ظروف ضاغطة !  
— لعله ...

ولاحظنا أن زهران حسونة يعمل بهمة في السوق السوداء ، في تجارة الثقاب  
والويسكى ، ثم اشتغل في المواد التموينية ، ولم يكن يخفى ذلك بل كان يبدي  
استعداده لتقديم الخدمات لنا ، فلم أملك أن أسأله :

— ألا ترى يا حاج في العمل في السوق السوداء ما يناقض ورعك ؟  
فأجابني بثقة :

— للدنيا أسلوب في المعاملة وللآخرة أسلوب آخر !

— ولكن الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء .

فقال باطمئنان :

— إني أكفر بالصلاة والصوم والزكاة فماذا تريد ؟

فقلت لأصحابي بعد انصرافه :

— الرجل يرتكب الإثم عن علم لا عن جهل أو نفاق !



فقال عيد منصور :

— ويثرى ثم يلجأ إلى الدين ليكفر فتتحول سرقاته بقدرة قادر إلى ربح حلال ، الدين عند عم زهران هو المشجع الحقيقي على ارتكاب كافة الآثام ! ثم وهو يضحك عاليا :

— ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضى ووجهه ينور بالإيمان والطمأنينة !

وكنت أتابعهم وهم يصلون في المقهى بعين متأملة ساخرة ، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعا وامثالاً ، وأتذكر كم أنهم أوغاد لصوص لا يحق لهم أن يبقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض . ولم أجد جدوى في مناقشاته فدائماً أراه مطمئناً واثقاً من نفسه ، يؤمن بالشر كما يؤمن بالخير ، ويطيع الشيطان كما يطيع الله ، ويتردد بينهما تردد التاجر الماهر في السوق الحرة الذى يحرص فى النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه . وجعلنى ذلك أتلمس وجوه الأعذار لأوغاد مثل خليل زكى وسيد شعير بل وعيد منصور ممن لم يتعاملوا معاملة جادة مع دين فانطلقوا فى الحياة بوحى غرائزهم وعقولهم العملية الجافة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسى . ولذلك أيضاً ترديت كثيراً فريسة لكآبة روحية معتمة كدت أرفض تحت وطأتها التجربة الإنسانية كلها . وكانت تلك المشكلة مدار أحاديث لا تنتهى بيننا . قال رضا حمادة :

— الظاهر أنه لا يوجد تاجر شريف !

فقال عيد منصور :

— لا يوجد إنسان شريف ..

فتساءلت :

— ماذا عن دور الدين ؟

وتساءل عيد منصور :

— لم نتمسك بالأخلاق ما دامت تقود إلى الفشل ؟

وعاشت تلك المشكلة معى أعواما وأعواماً حتى ناقشتها فى صالون الدكتور  
ماهر عبد الكريم ، بدءاً من نقد الواقع المصرى وانتهاء إلى دراسة الخير والشر فى  
ذروتها الفلسفية . ويدعوننا ذلك إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وفلسفته فى المثل  
الأعلى وسلوكه المناقض لفلسفته ! . وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر :  
— مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التى قطعها الإنسان من الغابة  
إلى القمر !

أو قول رضا حمادة :

— توجد سجايا قيمة جدية باسترداد الثقة ، مثل تفانى الرجل فى خدمة  
أسرته ، مثل الذكاء الوقاد المولع بالحقيقة ، مثل بعض مواقف البطولة النادرة .  
وقوله أيضاً :

— لا تغال فى المثالية وإلا مت تقززا !

وأثرى زهران حسونة فى أثناء الحرب ثراء فاحشاً فارتفع إلى مرتبة أصحاب  
الملايين . وأسس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولكنى أغضيت عن التشهير به  
مذ قتل ابنه الطالب بكلية الهندسة فى معركة القنال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ .  
سار الرجل وراء النعش معتمداً على ذراعى صديقين محمر العينين شارداً للـب .  
واقصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات فى المناسبات ، ولكن عيد منصور  
وكدلى أنه ما زال يجمع النقود ويؤدى الصلاة ، وكان أوثقنا صلة به بحكم أعماله  
التجارية . واستمر ازدهاره المالى فى صعود ، وأقام فى قصر المعادى ، وتزوج فى  
الخمسين من فتاة فى العشرين بحجة زهد زوجته الأولى فى المسرات الزوجية عقب  
وفاة بكرها . ولكن ظل الحج نزهته الروحية كل عام ، وازداد نشاطه بعد  
الثورة . لم يكن من الملاك الزراعيين . ولكن شركته أمت فيما أم من شركات  
عام ١٩٦١ ، وهكذا تقوض ذلك البناء الشاغل الذى نحت أحجاره من الذكاء  
والغش والإرادة والانتهازية والإيمان والفجور . وكان رضا حمادة يعلق على  
الأحداث بامتعاض شديد ، مؤكداً موقفه الثابت من الثورة ، فقلت له :

( المايا )

— ولكنك عرفت الرجل تماما .

فقال :

— ولو ، إنها مسألة مبدأ ...

فقلت :

— ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنه نظام بارك ذلك كله ...

فقال بمرارة :

— انتظر حتى يتبين لك النظام الجديد ، لقد كان زهران حسونة في البدء

موظفا كهؤلاء الموظفين الذين انقضوا على شركته ليديروها !

ولما أفاق الحاج زهران من الصدمة باع قصره ففتح مقهى في مصر الجديدة ،

وضمن لنفسه مستوى من المعيشة لا بأس به . وهو يتظاهر دائما أمامنا بالشجاعة

وربابة الجأش ، ويعلق على الأحوال بعبارات ذات مغزى ديني مثل الحمد لله ،

والأمر لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، له في ذلك حكمة ، ويذهب به الحذر

أحيانا إلى الشناء على القرار الذي جرده من ثروته فيقول :

— عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس .

ولكن تفضحه أحيانا ومضات فرح للكوارث لا يحسن مداراتها ، مثل الأزمة

الاقتصادية وورطة اليمن ، وأخيرا ه يونية الذي دار رأسه فيه بنشوة النصر ! .

لقد لا طمتني في ذلك اليوم المشثوم تيارات متناقضة كاد يختل لها عقلي ، ولعله مما

زاد إكباري لرضا حمادة أن المأساة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا ، وأنه نسي

في ذلك اليوم كل شيء إلا حبه العتيد لوطنه ..

## زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيدا بقسم اللغة العربية تمهيدا لإرساله في بعثة إلى فرنسا . وسمعنا عنه ثناء طيبا من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة :

— إنه مثال للفلاح إذا نبغ .

وحدثني رضا حمادة عنه فقال :

— عرفته في بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمود ويعرف

مصطفى النحاس معرفة شخصية .

وسافر في البعثة عام ١٩٣٢ ثم رجع دكتورا عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فعين

مدرس ( ب ) بهيئة التدريس الجامعية . وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠

تركز نشاطه الفكري في الجامعة والتأليف ، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات

النقد العامة . ونقاد من الشرق والغرب ، ودراساته عن شكسبير وراسين

وبودلير وإليوت والشعراء الأندلسيين . وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر

عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة . وتزوج في أثناء الحرب من فتاة يونانية

كانت تعمل في محل فينوس فأنجب منها ولدين وبتنا . وكان أستاذا جامعيا بالمعنى

الدقيق ، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية ، ولا حديث له خارج مضامينها .

فلم أعرف له اهتماما عاما آخر . وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدي

القديم فلم أفلح ، ولكنه بخلاف الكثيرين كان يتمنى النصر للحلفاء ، ربما حبا في

الديمقراطية كما قال ، أو ميلا مع عواطف زوجته ، أو تعصبا لفرنسا التي عشقها

من أعماق قلبه . وفي عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقع أبدا . فرشح نفسه على

مبادئ الوفد في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة ، وأثار سلوكه

تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد :  
— إنه قرار يستحق الأسف .

وقال لي رضا حمادة :

— لعله يحلم بوزارة المعارف .

ولقد يطول الزمن حتى يتحقق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير  
ومكافأة النيابة التي لا تتجاوز الخمسين الجنيه ؟ . قال رضا حمادة :  
— ستخبرنا الأيام !

وأخبرتنا الأيام بأسرع مما تصورنا ، فظهرت مقالاته السياسية في الجرائد  
الوفدية ، بل برز ككاتب سياسي من الدرجة الأولى ، إلى مقالات في النقد في  
المجلات الأسبوعية . وحدث أن كان لزهران حسونة أعمال في الحكومة تحتاج  
في إنجازها إلى واسطة فطلب منا أن نقدمه إلى صديقنا النائب ففعلنا ، ومن يومها  
توطدت بين الاثنين علاقة متينة . ثم مضت تترامى إلينا همسات عن تصرفات  
الدكتور زهير كامل غربية بل مريبة . وقد سألت رضا حمادة يوما :

— ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل ؟

فأجابني بامتعاض شديد :

— يقال إنه أصبح سمسار وظائف ..

ثم وهو يهز رأسه في أسف .

— ويقال إنه يقدم خدمات لزهران حسونة وإنه ينال عن خدماته مكافآت

سخية ...

— وهل صحيح ما يقال ؟

— نعم للأسف الشديد ، وإني أتساءل أحيانا والحزن يمرر ريقى ، أى فارق

هناك بين الوفد وبين غيره من الأحزاب ؟

— ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية في الجامعة ليمارس النهب

والفساد ؟

— إني أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها في السياسة ..

وجلسنا يوما نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا العتيد . ولما أقيمت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنه لم يفلح . وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة . واجتمعنا يوما عند الأستاذ سالم جبر ، وكان منفعلًا ويقول :

— ما هذا الذى يحدث بالوطن ؟ ... الملك جن ، وكل شيء ينهار ...

فقال الدكتور زهير كامل .

— ما أشبه حالنا السياسى بالدكتور إبراهيم عقل الذى بدأ باحثًا نابهاً وانتهى بالدروشة !

وقال رضا حمادة :

— أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب يزحف عليه العجز والتدهور .. فقال سالم جبر :

— لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال فماذا عن الغد ؟

فقال زهير كامل :

— ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك إلى استدعائه عاجلاً اتقاء لانفجار ثورة شاملة !

فقال سالم جبر :

— الثورة أفضل من الوفد ...

فقال رضا حمادة :

— وفى الانتظار الإخوان والشيوعيون ...

فقال زهير كامل بحدة :

— لا أغلبية لهؤلاء أو أولئك .



فقال سالم جبر :

— الوطن غير مؤهل للشيوعية ولا عقيدة هناك جديرة باستيعاب الشباب المتفتت بين الثورة والاضلال !

وقامت ثورة يوليو متحدية كل تخمين . وسرعان ما وجد زهير كامل نفسه في مأزق لم يعمل له حسابا . أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتخير ماذا يفعل وماذا يكتب . ولما اتجهت السياسة العامة نحو تصفية الأحزاب وتركز الهجوم عليها بصفة عامة وعلى الوفد منها بصفة خاصة باعتباره القاعدة الشعبية القديمة ، إذ بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية في حياته ، فانقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا إلى فساد كل فساد نخر في عظام الوطن . وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم في صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقلل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعي الوقور فضلا عن اشتراكه في برلمان الوفد الأخير . وتعين صحفيا في إحدى الجرائد الكبرى ، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة ، كما عهد إليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر . وبسبب مسؤولياته الجديدة ، وربما خجلا من انقلابه المفاجيء تجنب إلى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم . وتساءل الدكتور ماهر :

— ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة ؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة :

— رأيك ماذا فعل الوغد بنفسه ؟

فقلت :

— لعل عذره أنه فعل ما فعل لحساب قوة وطنية لا شك في وطنيتها .

وعاد زهير كامل للظهور في مجالسه المفضلة كصالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومكتب سالم جبر فعادنا للتلاقى المنتظم كما كنا ، وعاودت الاطلاع على قواده . قال :

— لم تكن ثمة جدوى من المقاومة ، ولم أقاوم ؟

وقال أيضا :

— كنت على وشك الإفلاس ، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئن الضمير !

فقلت :

— إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو ؟

فقال وهو يتفحصنى بعينه الذكيتين :

— إنها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحت مخالبا في الأفق !

— يا لها من فكرة ! ..

— وأعترف لك بأننى لست ثوريا ، فكما لا أوافق على رجعية الإخوان فإنى لا أوافق أيضا على ثورية الشيوعيين ، وأؤمن بالإصلاح الرزين الذى نتأثر خطاه ، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر ..

ولكنى لاحظت بدقة المراقبة أن عواطفه لم تنسجم تماما مع أفكاره ، وأن حماسه الظاهر كان لتبرير انقلابه قبل كل شئ . وعلى مدى الأيام اضطر إلى أن يعترف لى قليلا :

— ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد !

فقلت :

— المهم أن يتم ما تم .

فقال بعد تأمل :

— ولكن الإنسان لا يستطيع التخلص من عقلية الخاصة ولذلك فقل على

الحرية السلام !

وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلا فى ذلك الوقت فجاء ذكره فقال زهير :

— ربنا معه .

فقلت بثقة :

— إني أعتقد ببراءته .

— لم ؟

— إني من أعلم الناس بنقاء أخلاقه ..

تري أضيافه قولي ؟ ... على أى حال قال :

— على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلاً

يحتذى ..

فدهشت لقوله وقلت :

— الدكتور إبراهيم عقل يعاني حال دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى فى

لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين !

— هذا ما أعنيه تماماً ، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى قضت على

ابنيه ...

— ماذا تعنى ؟

— أعنى إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة ، أى

نوع من الدروشة ، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك إلى المعتقل !

وزهير كامل الناقد عانى انقلاباً من نوع آخر فى نفس الوقت . فبكل استهانة

مضى يتاجر بالنقد . مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعاً لذلك .

وبازدهار الحركة المسرحية والإنتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد قيلولته

الأنيقة بالدقى واقتنى المارسيديس ، وبخلاف اعتداله القديم أفرط فى الطعام

والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذر معها التعرف عليه من أول نظرة .

لم يبق من مزاياه القديمة إلا ثقافته الواسعة وذوقه المدرب فى شتى ألوان الفن .

ورغم الثورية التى اتخذها مهنة كان إذا ذكر الوفد تجلى الحنين فى عينيه ، بل

علمت أنه حمل صديقاً رسالة خاصة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر

منه فى حقّه ، ويشرح له الظروف القاسية التى اكتنفت قراره . ولما أعلنت ثورة

يوليو عن سياستها الاشتراكية توثب بهمته المعروفة لدراسة الاشتراكية ليؤيدها

عن علم ويحتفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتابها الأول . وفي أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية ، ثم أصدر في النهاية مؤلفه المعروف « اشتراكية هذا الوطن » . وفي هذه الناحية بالذات يش من إقناعي بإخلاصه لسابق علمي بديمقراطيته الليبرالية . وقد سأله مرة ضاحكا :

— كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة الجنونية ؟

أجابني ضاحكا أيضا :

— الناس على دين أوطانهم .

— أعتقد أنهم يصدقونك ؟

— لم يعد أحد يصدق أحدا .

ثم قال والضحك يعاوده :

— المهم هو ما تقول وما تفعل !

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال :

— يتساءلون كثيرا عن سر ازدهار المسرح ، أتدرى ما هو سر ذلك ؟ ، السر

أنا صرنا جميعا ممثلين .. !

فقلت :

— وبالرغم من ذلك فقد حقق هذا العهد من الخير ما لم يحققه عهد سابق بلا

استثناء !

فقال وهو يتنهد :

— وأصبح لكل شيء قيمة إلا الإنسان !

فتساءلت بمرارة شديدة :

— متى كان للإنسان قيمة في بلادنا ؟ ! ، على الأقل فهو يحرر اليوم من

عبوديته الاقتصادية والطبقية والعنصرية وستجىء الخطوة الذاتية عندما يستحقها

بجدارة !

وقد بلغ قمة سقوطه الأدبي عندما ألف رسالة صغيرة عن أدب « جاد

أبو العلا ! . وكان جاد أبو العلا سعى إلى التعرف به حوالى عام ١٩٦٠ نفس العام الذى تعرف بى فيه . ورغم ذلك كانت الرسالة مفاجأة لى لم أتوقعها بحال . ومهما يكن الثمن الذى قبضه — قيل إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه — فقد دل على أن صاحبى تمرغ فى السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذى يصاحبه ، وصدق عبده البسيونى عندما قال لى يوما فى حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة :  
— هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس !

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده فى ظرفين لولا حسن حظه ، أولهما الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧ ، ففى كل مرة خيل إليه أن الثورة صفيت وانتهت فتوثب للعمل لمستقبله من جديد . ووضح لى فى المرتين مدى ما ينطوى عليه من انتهازية وزيف ، بالرغم من أنه يدين للثورة بجاهه وماله . وقارنت بينه وبين رضا حمادة ، فكلاهما يتمتع بثقافة إنسانية عميقة وشاملة ، وكلاهما من الجيل السياسى السابق الذى أجهضته الثورة ، وكلاهما ينتمى إلى عقيدة معادية للاشتراكية ، ولكن أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات ، والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن يقدس ويعبد . وفى العام التالى للنكسة دهمته أحداث فى صميم أسرته لم تخطر له ببال ، إذ صمم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا ! ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما ، أما أمهما فمالت إلى تشجيعهما ، ومالبت الشابان أن حققا رغبتهما بالفعل . وحزن زهير لذلك حزنا شديدا وراح يقول لى :

— أنا فلاح . ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به .

فسأله عما دعاها للهجرة فقال :

— الأمل فى مستقبل أفضل ...

وهز منكبيه فى أسف وقال :

— لم يعد للوطن قيمة ، تركاه فى محنة قاسية ، عن عدم اكتراث أو يأس ،

وجريا وراء الأمل الخلاب ..





واجتاحه غضب مفاجئ فقال :

— ععلى معهما ، ولكن قلبى يتوجع ..

وأما كريمته فقد أحبت شابا يونانيا وهى فى رحلة إلى اليونان بصحبة أمها .  
وبكل بساطة تزوجت منه هازئة بكافة التقاليد . وجعلت زوجته تتردد بين  
القاهرة وأثينا حتى استقرت بصفة نهائية فى موطنها الأصيل قبيل انقضاء العام .  
ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيدا فى الستين ، مريضا بالسكر والضغط ..  
وهو فى ذلك يشبه رضا حمادة غير أن هذا خلق نهايته بنفسه متجاوزا كافة  
أحزانه ، أما زهير فعانى مرارة الوحدة والسأم والهجر . ويوما سألنى عبده  
البيونى فى صالون جاد أبو العلا :

— هل تعرف نعمات عارف ؟

فأجبت بالنفى فقال :

— هى صحفية تحت التمرين ..

— وماذا يعينى من ذلك ؟

فقال ضاحكا :

— إنها عشيقة الدكتور زهير كامل !

— زهير كامل ! ... إنه شيخ فى الستين أو أكثر ...

— ستسمع عن زواجهما فى القريب ..

وسمعت . وعرفت العروس وهى جميلة فى العشرين . وركن الأستاذ معها إلى  
اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم إلا لكتابة يومياته الأسبوعية فى الموضوعات  
اليومية العامة مقلعا عن مراجعة الكتب والمراجع . ولكن مرضه استفحل حتى  
أقعده بصفة نهائية فى الفراش ، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة فى حياته المعتمة ،  
شعلة العقل . ومازلنا نزرره من حين لآخر ، فتدور المناقشات فى حجرة نومه ،  
ويشارك هو فيها بسمعه أو يضع عبارات موجزة فقدت إشاراتها الذكية  
وأفكارها الموحية ، لتذكرنا بأن لكل شىء نهاية ...

## سابا رمزى

زاملنا فى المدرسة الثانوية . زاملنا عامين ثم اختفى . وبالرغم من أن زمالته ترجع إلى عام ١٩٢٥ فما زلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادثتين وقامته القصيرة لحد الرثاء . وكان رياضيا متفوقا فى القسم المخصوص والكرة . كان الجناح الأيمن لبدر الزياىدى وكان تبادل الكرة بينهما يشكل خطرا على أى فريق نلاعبه . لذلك اكتسب فى المدرسة شهرة واحتراما رغم قصر قامته . وكنا فى أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطى معا ونستظهر ما نختاره من جملة الموسيقى . وحدثته مرة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهم وجهه وسألنى :  
— أصدقت ما جاء فى رواياته عن البابوات ؟

فقلت ببراءة :

— ولم لا أصدقها ؟

فقال بنبرة تحذير :

— إنه عدو للكاثوليكية ولذلك فهو يعتمد تشويه سمعة البابا ..  
عرفت لأول مرة أسماء جديدة كالكاثوليكية والبروتستنتية والأرثوذكسية .  
وتحيرت بينها حتى أخبرنى زميلنا ناجى مرقس أن المذهب المسيحى المصرى هو الأرثوذكسية وأن المبشرين أفسدوا بعض الأقباط فجروهم إلى اعتناق الكاثوليكية أو البروتستنتية . وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزى قائلا :  
— الآن عرفنا أنك قبطى فاسد !

وجعفر خليل هو الذى أفشى سره فقال لنا يوما :

— فيكم من يحفظ السر ؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول :

— الجناح الأيمن سابا رمزى يحب مدرسة بمدرسة العباسية للبنات !  
وراقبناه عقب انصراف المدرسة فرأيناه وهو يتبعها فى طريقها حتى مشارف  
باب الشعرية . وكنا يوما نقرأ بالتبادل فى مجدولين فلاحظت تهديج صوته حتى  
كف عن القراءة من شدة التأثير . وشعر بعينى فوق جفنيه المسدلين فتمتم :  
— رأيتمكم وأنتم تتبعونى !

ثم بمزيد من التأثير :

— أنا أحب مثل ستيفن وأكثر !

ووجد منى مشاركة وجدانية إذ كنت عاشقا مثله فقال :

— سأحبها مهما يكن الثمن !

فقلت له بعطف :

— ولكنها مدرسة وما زلت تلميذا صغيرا .

فقال بإصرار :

— الحب أقوى من كل شئ .

وقال :

— إنى أحاول محادثتها ولكنها تتجاهلنى ، يقال إن ذلك أسلوب من الدلال ،

ما رأيك ؟

— لا أدرى ...

— كيف أعرف إن كانت تحبنى أو لا تحبنى ؟

— لا أدرى ..

— هل نسأل جعفر خليل وبدر الزياى ؟

فقلت محذرا :

— كلا ... إنهما يجبان المزاح وسيجعلان منك نادرة !

واستمرت مطارדתه اليومية للمدرسة بلا نتيجة ، وأخذت ثقته بنفسه

تضعف ويغلبه الحزن . وشهدنا عصر يوم منظرا ليس من السهل أن يحى من

الذاكرة . رأيناه يعترض سبيل المدرسة بجرأة ويقول لها :

— من فضلك ..

فمالت عنه ناحية وسارت في طريقها فتبعها وهو يقول :

— لا بد من كلمة ...

فهمت به غاضبة :

— لا يمكن أن أحتملك إلى الأبد ...

فقال بتوسل :

— اسمعى كلمة بكل أدب ...

— دعنى وإلا ناديت الشرطى ...

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة . وقف ينظر إليها بذهول . وبحركة سريعة غير متوقعة دس يده في جيبه . فاستخرج مسدسا فسدده نحوها وأطلق النار ! . صرخت الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها إلى السماء في حركة متشنجة ثم تهاوت على ظهرها . وجعل سابا ينظر إليها ، ذراعه مدلاة ، ويده ما تزال قابضة على المسدس . وظل كذلك حتى قبض عليه . وفاضت روح الفتاة قبل مجيء الإسعاف . وعرفنا فيما بعد أن سابا سرق مسدس أخيه الضابط في الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس . ولم ندر عنه شيئا بعد ذلك ، ولم نره مرة أخرى . لقد طبع في خيالنا صورة لا تنسى ثم ذهب .

## سالم جبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦ .  
كان بدر الزياى أول من نوه به أمامى فوصف كتابته بالبلاغة والفائدة .  
ووجدته داعيا متحمسا للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة كما دعا إلى  
اتخاذ القبعة غطاء للرأس بدلا من الطربوش . وكان حقوقيا ولكنه لم يشتغل  
بالقانون ، وكان يقوم بجولة ثقافية فى إنجلترا وفرنسا كل عام تقريبا . ولما قامت  
ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق . وأصيب برصاصة فى كتفه  
يوم الهجوم على الأزهر ، ثم عمل فى الصحافة الوفدية ، وظل يعمل فى الصحافة  
حتى اليوم . وتغير موقفه السياسى بعض الشيء منذ تولى سعد زغلول الوزارة  
عام ١٩٢٤ . وقد قال لى يوما بعد أن جمعنا صداقة متينة ملقيا ضوئا على تلك  
الفترة من حياته :

— كان من رأى ألا يتولى سعد زغلول الوزارة ، وأن يظل الوفد وراءه فى  
الميدان الشعبى حتى تتحقق رسالة الوفد الوطنية ..  
فسأله :

— خرجت وقتذاك على الوفد ؟

— كلا ولكن تحول اهتمامى الحقيقى إلى ناحية أخرى ..

أجل ، تحول إلى اعتناق الشيوعية . وعرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتى  
اليوم . ولم ينس أنه صحفى فى جريدة الوفد ، فتجنب مناقشة الموضوعات  
الجديدة بإحراج الزعيم ، واختط لنفسه منهجا خاصا فى الكتابة ينفس به عن  
عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر ، ولا يتنافى فى مظهره مع سياسة الوفد ، فراح  
يدعو إلى حرية المرأة والعلم والصناعة . وتقدم خطوة أخرى فألف رسالة فى

المذاهب الاقتصادية مؤرخا ضمنا للاشتراكية ! . وحوالى عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن « كارل ماركس ورسالته » وصرعان ما صادرتها السلطة ، وتعرض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التى اتهمته بالإلحاد والفوضوية . تعرفت به وأنا طالب بالجامعة فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة ، وكنا نلتقى كثيرا بالصالون أو فى مكتبه بالجريدة .

وقدمت إليه من زملائي رضا حمادة وجعفر خليل . وكنا نتحدث فى السياسة والاشتراكية ، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات ودكتاتورية الطبقة العاملة ، وقلت له :

— اشتراكية تجيء عن طريق البرلمان ، هذا ما أحلم به !

فقال متحديا أفكارى :

— أنا عدو للوفد !

— أنت تقول ذلك ؟

— ونصير للملك وأحزاب الأقلية ..

فضحكت غير مصدق فقال :

— الوفد أفيون الشعب !

ثم وهو يضرب مكتبه بقبضة يده :

— الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن تتحقق أبدا ، وسيعجز

دائما عن تقديم أى خدمة حقيقية للشعب ، أما إذا سيطر الملك وأحزابه ،

واستشرى الفساد واستوطن ، يثس الشعب وتوثب لثورة حقيقية !

فسأله :

— وما جدوى ذلك والإنجليز يكتمون أنفاسنا ؟

— توقع المعجزات عند اليأس .

وأنس الدكتور إبراهيم عقل منى ميلا لترديد بعض آراء سالم جبر فقال لى :

— احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة !

( المرايا )



فأخذت بموقفه وقلت له :

— الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم !  
فقال ساخرا :

— لم يكن دفاعا ولكن كان إحراجا فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا أشهر  
إلحاده أو فوضويته ..

وكان ذلك بحضور الأستاذ عباس فوزى — بصالون المنير .

فقال عباس منضمنا للأقوى كعادته :

— إنه رجل فاجر ومن آى ذلك أنه لا يؤمن بالزواج !

فقلت بدهشة :

— ولكنه متزوج وقدمنى للمدام فى حديقة الأورمان !

فقال عباس فوزى ضاحكا :

— إنها عشيقته ، وهى أرملة فرنسية ، فكيف تجهل ذلك ؟

وتؤكد لى أنها عشيقته بعد ذلك ، وظل مخلصا لها حتى توفيت عام ١٩٦٠ .

وروى لى حكاية غرامهما الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم فقال إن المرأة كانت  
زوجة لمهندس فى شركة الكهرباء ، وإنها أحبت سالم جبر فى حياة زوجها . فلما  
توفى اتفقا على المعاشرة دون زواج . وكانت امرأة حرة وشيوعية مثله . أملاكها  
فى مصر ولكنها تحب السفر كثيرا إلى فرنسا . وتكره فكرة الإنجاب .

وألف سالم جبر كتابا عن الدين المقارن قبيل الحرب العظمى الثانية ، عرض  
فيه الأديان بأسلوب علمى موضوعى ، فأثار الكتاب ضجة . واتهم صاحبه  
بالافتراء على الدين الإسلامى . ومن أجل ذلك قدم الأستاذ إلى المحاكمة . ولكن  
المحكمة برأته وصادرت الكتاب . وفى أثناء الحرب شن حملات صادقة على النازية  
والفاشستية كان لها صدى حسن فى دار السفير البريطانى .

ودعى لإلقاء محاضرات أسبوعية فى الإذاعة ، وقلت له بمكتبه بجريدة

المصرى :

— يقولون إنك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانية .

فقال ساخرا :

— لا عداوة تدموم ولا صداقة ، أعترف بأننى فى هذه الحرب حليف

للإنجليز !

فقلت له :

— يبدو أن نجمهم آخذ فى الأفول !

فقال بحدة :

— لا خوف من انتصار النازية حتى إذا انتصرت فإن للتاريخ قوانينه وهى

أقوى من الحرب والنصر .

ولما جاءت حكومة الوفد عمل معها بإخلاص كشأنه قبل أن يتولى سعد

زغلول وزارته ، ولما زحفت جيوش رومل نحو الحدود المصرية هرب مع الهاربين

إلى السودان . ثم رجع عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفى . وأذكر

أنه جلس بينى وبين رضا حمادة فى مأتم المرحوم جعفر خليل تام ١٩٥٠ فحدثنا

عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولكنه قال :

— لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيته أن يواجه الموقف .

وتكلم عن الولايات المتحدة باعتبارها روح الشر فى العالم ، قال :

— لا نجاة للعالم إلا بالشيوعية العالمية .

ولما انصرف قال لى رضا حمادة :

— لا يوجد إنسان كهذا الرجل يجمع الكل على بغضه !

فقلت بصدق :

— ولكنه رجل ذو عقيدة ومنزه عن الأغراض .

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشف ذلك البناء المنطقى المنسجم مع ذاته عن

تناقضات كالحىال فى غرابتها . وهو فى الظاهر لعب الدور المنتظر منه . كان

حقيقة فكرية واضحة للصديق والعدو . عمل فى جريدة الثورة واضعا قلمه فى

خدمتها . ولكنه تكشف لخاصته المقرين عن حزمة من المتناقضات جعلت منه في النهاية شخصا مجهول الهوية . نحس لإلغاء النظام الملكي تحمسا لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات ، ولكنه همس في قنور :

— ذهب الملك وحل محله عدد غير محدود من الملوك !

وفرّح بالقضاء على الإقطاع وتحديد الملكية الزراعية ولكنه قال :

— المسألة هي ملكية أو لا ملكية ، أما توزيع الأرض على الفلاحين فمن شأنه

أن يقوى غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام !

ولما حلت الأحزاب التي طالما حمل عليها حزن على الوفد حزنا غير مفهوم

وقال :

— وكيف تمضي البلد بلا قاعدة شعبية ؟!

وقال أيضا :

— التضحية بالحرية فعل مؤقت معقول من أجل الشيوعية ولكننا نسير بلا

حرية ولا شيوعية !

ولما حاربت الحكومة الشيوعيين والإخوان المسلمين قال :

— ما هم يقضون على القوى الإيجابية في الأمة فلا شيوعية ولا إخوانية ولا

أحزاب فعلية من يعتمدون في تحقيق سياستهم ؟ ، ولم يبق إلا الموظفون

المأجورون وسيقيمون بنيانهم على قوائم من قش ..

حتى الشيوعيون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من غيرهم ، وما نالوا

عطفه إلا في فترات الاعتقال أو السجن ، وسرعان ما يرميهم بالتفسخ والانحلال

والسقوط ، واقتنعت أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضا ، حبا في

المعارضة قبل كل شيء ، فإذا كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعي . وإن تكن

يسارية فهو محافظ . أجل محافظ ! . فعندما ساند الاتحاد السوفيتي الثورة

وعاونها في الحرب والسلام ، سمعت منه ما لم يجز لي على بال . قال مرة والحق

يلتهم قلبه :

— الشيوعية نظام عظيم حقا ولكن ما هو الإنسان الشيوعي ؟ ... هو شيء ميكانيكى لا إنسان حى !

وبغير حياء سألتنى مرة :

— لم يود الناس أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة ؟

فأجبت بسخرية واضحة :

— لأنهم يجدون هناك الخبز والحرية !

فقال بامتناع :

— لا قيمة للحياة بلا حرية فلا تكن متعصبا .

فقلت وأنا أضحك :

— أنت الذى علمتنى ذلك !

فقال بمزيد من الامتناع :

— متنا .. متنا ... فمتى نبعث ؟

وقلت له بشيء من الصراحة :

— أحيانا يتعذر فهمك .

فقال بحدة :

— أنا واضح كالشمس ولكنكم اعتدتم الشروح المطولة والهوامش وهوامش

الهوامش !

وقد علمت بوفاة صديقه الفرنسية عرضا فى بار الأنجلو بعد مرور أيام على

وفاتها فبادرت إلى زيارة مسكنه بشارع قصر النيل ولكنى وجدته مغلقا لا يرد ،

ولم أجده بمكتبه بالجريدة كذلك ، ثم تبين أنه سافر عقب دفنها إلى أسوان فخلا

إلى نفسه شهرا كاملا . ولما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته بنشاطه المعهود

ولكن مسحة من الكتابة طبعت وجهه بطابعها فلم تفارقه دهر اطويلا . ولم يكن

يحب الخوض فى شئونه الخاصة ، فلم يحدثنى بكلمة واحدة عن حبه أو أسرته أو

طفولته ، وكأنه إنسان عام فحسب ، عام فى الظاهر والباطن ، فى الحضور

والغياب . وسأله مرة :

— ألم تأسف مرة على أنك لم تتزوج ولم تنجب ؟

فأجاب بسخرية :

— الندم عادة دينية سخيفة .

ولكنى شعرت — إن صدقا وإن وهما — بأنه يعاني مرارة الوحدة في الشيخوخة . وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادة التي بلغت في أحيان كثيرة حد المصارحة الجارحة في مخاطبة أصدقائه . قال مرة لرضا حمادة :

— عليك أن تعترف بأنك رجعى ترسب في مجرى الزمن .

وقال مرة أخرى للدكتور زهير كامل :

— أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم .

وسأله جاد أبو العلا عن رأيه في أدبه فأجابه على مسمع منا :

— من الخير لك أن توفر وقتك لتجارة التحف ! .

وكان من بين الذين سروا في أعماقهم بالكارثة التي حلت بالوطن في ٥ يونية ١٩٦٧ . وهو موقف غريب ولكن تبناه جميع أعداء الثورة ، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذ الذي خلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائما وأبدا . قال منفسا عن حقه :

— ما جدوى أن نتحرر من طبقة لنقع في قبضة الدولة الفولاذية ؟ . السلطة

الحاكمة أثقل من الطبقة ، أثقل من الشيطان نفسه !

ولكن الثورة لم تتلاش ، بل مضت تضمد جراحها وتجدد حيويتها وتتأهب لمعركة جديدة . ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات ، وإن حافظ في الظاهر على شخصيته التي عرف بها منذ عام ١٩٢٤ وإن ظل قلما آمينا من أقلام الثورة . ورغم بلوغه السبعين من عمره ، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ونشاط موفور . ولعله المصرى الوحيد من معارفى الذى لم أسمعه يمزح أو ينكت أبدا ، ولا عرف له هواية فنية ، حتى الغناء

لا يتذوقه . والأدب النادر الذى يطلع عليه يقرأه قراءة سياسية خاصة كأنه خلق شاذ مقطوع الصلة بالإمتاع والجمال . وركز فى الأيام الأخيرة على الإيمان بالعلم ، إيماناً نسخ إيمانه القديم بالأيدولوجية ، ويتساءل مرارا :

— متى يحكم العلم ؟ ... متى يحكم العلماء ؟! ...

هذه هى آخر هتافاته ، وهى خليقة بإشباع معارضته الأزلية لجميع أنواع الدول ، حتى قال رضا حمادة :

— إنه رجل مجنون ، هذه هى الحقيقة !

فقلت :

— وثمة حقيقة أخرى وهى أن أقواله التى تنكر لها خلقت فى أجيال أثرا لا

يمحى !



## سرور عبد الباقي

من أصدقاء العباسية . وكان أبوه محاميا ذا شهرة ومال . وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبتان . وكانت بخيلة فيما بدا . تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة ، ومن أجل مليم واحد تلغى صفقة . وتزن مشترياتها في ميزان خاص ابتاعته لذلك . وظهر أثر ذلك كله في سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد . وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص ، فهو لا يفارقنا ، وهو لا يندمج فينا ، ويتجنب مشاركتنا في مزاحنا الطليق ونكاتنا اللا أخلاقية . وتذاكرنا يوما مطربة جديدة هي أم كتلوم فقال سرور عبد الباقي :

— سمعتها في فرح وأعتقد أن صوتها أحلى من صوت منيرة المهدية !

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل :

— صوت منيرة يعلو ولا يعلو عليه .

وانتهره خليل زكى ، رغم عدم اهتمامه بالغناء ، قائلا بوقاحتة المعهودة :

— لا تردد آراء أملك بيننا !

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به :

— لا شأن لك بأمرى يا قليل الأدب .

وجاء الرد في صورة لطمة ، ثم اشتبكنا في معركة حتى فصلنا بينهما . وكان

تلميذا مجتهدا ، ولكن نجاحه كان دائما دون اجتهاده . والحق لم نكن نؤمن

بذكائه ! . وأوشك يوما أن يقسمنا فريقين ، إذ طالب بشدة بالتزام الأدب في

السلوك والكلام ، قال :

— يا جماعة ... يجب ألا تردد بيننا كلمة بذينة وأن نتعامل باحترام .

وفي الحال شخر خليل زكى وسيد شعير في وقت واحد تقريبا ، فعاد سرور يقول :

— وإلا سأضطر إلى مقاطعتكم !

فقلت بجزع لحبى له :

— اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر في المقاطعة ..

وقال رضا حمادة :

— كلامه يستحق التقدير !

فقال جعفر خليل :

— البداية في الكلام كالملاح في الطعام .

وقال عيد منصور :

— يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمه إلا إذا قرنته بالسب

المناسب .

وقال شعراوى الفحام محذرا :

— يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام !

وتداولنا في الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا

مع استثناء سرور عبد الباقي فيعامل معاملة مؤدبة خاصة .

وكان يتخذ من السياسة موقفا مماثلا فلا يتعامل معها على الإطلاق ولا يهتم

بها ، حتى المظاهرة السلمية التى زحفت على ميدان عابدين تأييدا لسعد زغلول

رئيس الوزراء لم يشترك فيها . ويوم الإضراب الذى قتل فيه بدر الزياى تخلف

سرور فى بيته . ورغم رشاقتة ووسامة وجهه الأسمر تجنب البنات ولم يلعب بعينييه

هنا أو هناك وكان يشعر دائما بأن عيني أمه تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب .

والأوقات التى كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها فى حديقة بيته ممارسا هوايته فى

رعاية الزهور أو رفع الأثقال . ومن فترة مبكرة وضع ميله للدراسة الطب ولكن

نجاحه فى البكالوريا لم يحقق له المجموع المطلوب ، ولذلك أقنع والديه بوجوب

الاتحاق بكلية الطب في لندن . وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب إذا نجح عامين في إنجلترا . وسافر إلى إنجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب ، وناقشنا تلك الواقعة يوما فقال رضا حمادة :

— ليس سرور غيا كما توهمنا وإلا ما نجح في إنجلترا !

فقال عيد منصور :

— وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليما كما يظن .

فقال جعفر خليل :

— وليست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء !

وتخرج سرور عبد الباقي في الكلية عام ١٩٣٦ ، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة ، وتقدم في عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين في مصر ، وربح من ذلك أموالا طائلة فشيّد عمارة كبيرة في وسط المدينة وبني لنفسه فيلا غاية في الجمال بالمعادي . ولم يتخل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته . وهو طبيب مثالي ، مهارة في العمل ، وغزارة في العلم ، ورحمة بالمرضى ، وبعدا عن الجشع والاستغلال . وهو محبوب جدا من طلابه . وكثيرا ما خاض معارك حادة في مجلس الكلية بسبب مثاليته التي لا تعرف المهادنة ، وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلا ساذجا بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأي نظرة شمولية للمجتمع الذي يتألق فيه كنجم من نجومه . ومرت به الأحداث الكبرى وهو منها بآمن لا تعنيه في شيء حتى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعي فشده من مأمته لأول مرة ، بدأ يهتم بهذه الثورة التي تتعرض للأرزاق وتغير الأوضاع ، وتسلب إليه قلق لم يعرفه من قبل . وطبق نظام الإصلاح الزراعي على زوجته فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بحجرة قلم . وذهل الرجل الذي تعود على تقديس المال والملكية ، ونبض قلب أسرته بالعداوة ، وعد هو ضمنا من الأعداء . ولذلك لم يتعين عميدا للكلية رغم استحقاقه العلمي لها فامتلات نفسه

بالمرة والحزن . قال لى :

— فكرت طويلا فى الاستقالة للتفرغ لعيادتى الخاصة .

ثم قال بإخلاص أنا أول من يقدره :

— ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمى !

وبدءا من ذلك التاريخ مضى بهتم بالحياة العامة ، والسياسة بصفة خاصة —

التي تجنبها طوال حياته — بعد أن غزته فى صميم داره . وكنا نقابله فى نادى

المعادى على فترات متباعدة كلما سمع وقته المشحون بالعمل . وكنت أنا ورضا

حمادة الصديقين اللذين استمرت علاقتهما به . وثمة آخر هو خليل زكى اتصل

به دون صداقة حقيقية بحكم عمله فى قصر العينى . ولكنه كان يذكر الجميع

بقدر من الحنان ، وقد حزن لمصرع شعراوى الفحام ووفاة جعفر خليل وضياح

سيد شعير ، فإذا ذكر عيد منصور ضحك قائلا :

— شيلوك ! ... عليه اللعنة !

وفى تلك الأثناء ساء حظ رضا حمادة فأصيب فى وحيدة وزوجته ، فوثق

بينهما سوء مصير واحد على تفاوته بينهما . وبعد صفقة السلاح المشهورة مع

تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور سرور عبد الباقي وقال :

— هذه هى الخطوة الأولى نحو الشيوعية !

فلما كان الاعتداء الثلاثى وما أعقبه من انسحاب القوات المعتدية ، جعل

يلتمس العزاء فى طوايا الموقف . قال :

— لولا الولايات المتحدة لقضى علينا ...

فقلت :

— بل الإنذار الروسى ...

ولكنه رفض ذلك بشدة وقال :

— يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم ..

ولما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة ثابتة .

قلت له :

— إنك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر .

فقال :

— لم يعد لشيء قيمة ..

ثم قال :

— زوجتي تنصحنى بالهجرة ..

فقال له رضا حمادة :

— لا داعي لذلك على الإطلاق .

فقال :

— الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين ... وقد استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم .

فسأله :

— وما رأيك في مشكلة الفقر في مصر ؟

فأجاب بسذاجة :

— كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هي حكمة الله سبحانه !  
فأدر كنت أنه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعي الثقافي المتضمن طبعا الوعي السياسي . وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانية حتى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهرًا فردًا مستقلًا ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة إلا بوجودها التعاوني في جسد البشرية الحي . لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوي ووجهه الوسيم ومهارته العلمية الخارقة ، بدا متدهورًا مترنحًا لا لشيء إلا لأن يدا أخذت من فائض الذين يملكون كل شيء لتضميد جراح الملايين الجائعة . وشد ما جزعت عندما أنست في نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة . وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزي فقال :

— لا تدهش ولا تجزع ، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية ، ثمة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف في أحدهما الروس والاشتراكيون العرب وطوائف الشعب التي وجدت في الاشتراكية جنتها الموعودة ويقف في الآخر الأمريكان وإسرائيل والذين رأوا في الاشتراكية ردعا لطموحهم وجشعهم ..  
فسأله :

— والوطن والوطنية ؟  
فأجاب :

— تغير مفهوم الوطن ومضمونه ، لم يعد أرضا ذات حدود معينة ولكنه بيئة روحية تحدها الآراء والمعتقدات !

## سعاد وهبى

تلك الزميلة الجامعية التى عاشت فى كليتنا عاما واحدا ولكنها بهرت خيالنا عهدا طويلا . كان الزميلات عام ١٩٣٠ قلة لا يتجاوزن العشر عدا . وكان يغلب عليهن طابع الحريم ، يحتشمن فى الثياب ويتجنبن الزينة ويجلسن فى الصف الأول من قاعة المحاضرات وحدهن كأنهن بحجرة الحريم بالترام . لا تتبادل تحية ولا كلمة وإذا دعت ضرورة إلى طرح سؤال أو استعارة كراسة تم ذلك فى حذر وحياء ، ولا يمر بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل والقال ويشن حملة من التعليقات . فى ذلك الجو المتزمت المكبوت تألفت سعاد وهبى كأنها نجم هبط علينا من الفضاء . كانت أجمل الفتيات وأطولهن وأحظاهن بنضج الجسد الأنثوى . ولم تقنع بذلك فلونت بخفة الوجنتين والشفيتين ، وضيق الفستان حتى نطق ، وتبخترت فى مشيتها إذا مشت ، وكانت تتعمد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقر فى مجالسنا ويتها الأستاذ لإلقاء محاضراته ، ثم تهوول كالمعتذرة فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة فى الصفوف وتند عنها همهمات كطين النحل . وعرف اسمها وجرى على كل لسان ، ونحت له الأوصاف والأسماء فهى « أبله سعاد » و « كلية سعاد » و « بانة سعاد » . وكانت بخلاف زميلاتها غاية فى الجرأة ، تواجهنا بثقة لا حد لها ، ولا تخفى إعجابها بنفسها ، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع ، وبالجملة تحدث الزمان والمكان . وقال محمود درويش :

— إنها غانية لا طالبة ...

وقال لى مرة جعفر خليل :

— ترى كيف كانت وهى تلميذة مراقة بالمدرسة الثانوية ؟ . فاتنا نصف



عمرنا ...

فقلت :

— لم تلتحق بالكلية إلا لاضطياد عريس !

— أو عشيق !

وجرت عنها الأخبار لا أدري إن كان مصدرها الواقع أم الخيال .

— إنها من حى اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت فى جو من الحرية الجنسية

المطلقة !

— وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات ...

— وهى امرأة لا عذراء مجربة للسهر والسكر والعريضة !

وتشجع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشئ معها علاقة ولكنه صد ولم

يفلح . وصد غيره ولم يفلح . ومع ذلك فلم تضمن بصداقتها على طالب إذا التزم

بحدود الأدب . وطبقت شهرتها الآفاق الجامعية فجاء طلبة من كلية الحقوق

للمشاهدة والمعاينة . وكانت فى الأدب الإنجليزى تتلو أحيانا ما تيسر من

مسرحية عطيل فتلقيه إلقاء مسرحيا ناعما يسحر الألباب . فحتى الأستاذ

الإنجليزى أعجب بها وعاملها معاملة ودية خاصة . وأخذ الطلبة الوقورون —

الريفيون خاصة — يناقشون الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة .

وسرت عدوى اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذى يفرض بقامته الجديدة

رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معا . وانتهاز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات

لارتجاج الثدين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى

ثابوا إلى الرشد والسكينة ، ثم قال :

— يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعةنا وبين صالة بديعة !

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه ...

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل :

— تذكروا أننا جميعا — نساء ورجالا — هدف لمحجر الناقدين وأن جمهرة

منهم لم تسلّم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين في الجامعة ، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليما  
عاليا ..

وفي نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبي لمقابلته في حجرته ، وحنّنا موضوع  
الحديث وتنبأنا بنتيجته المحتومة ، وكثيرون شعروا مقدما بالأسف لحرمانهم  
الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة . وغادرت سعاد وهبي حجرة الدكتور  
متجهة الوجه ، ولما رأت جموع المنتظرين في الخارج قالت بحدة وبصوت  
مسموع متحد :

— لن أسمح لأحد بمصادرة حريتي الشخصية ..

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلية ١ .  
وفرّح البعض وأسف البعض أسفا عابرا بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على  
مقاومة الحكم السياسي الرجعي الذي بطش بحرية الوطن . وجاء والد الفتاة  
لمقابلة العميد ، وما زال به حتى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهد له  
بتحقيق مطالبه . وأعجب ما سمعت عن رجوع سعاد حدثني به جعفر خليل ،  
إذ سألتني باسمها :

— أما سمعت بالسر وراء عودة سعاد ؟

فسألته بدوري :

— أي سر ؟

— يقال إن وزير المعارف أوصى العميد بها .

— ولكن وزير المعارف رجل رجعي كثير التشدد باحترام التقاليد ؟

— ويقال أيضا إنه على علاقة بالفتاة ...

على أي حال عادت سعاد . وعندما هلت علينا بعد انقطاع استقبالناها  
بالتصفيق : رأينا وجهها الطبيعي لأول مرة وكان وسيما أيضا ، ورأينا فستانها  
يحتشم طولا وعرضا لأول مرة أيضا ، أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير  
موضعها ولا فتنها فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعا .

ويوما قال أحد الطلاب :

— أمس رأيته مع الرجل الإنجليزى بالحديقة اليابانية بحلوان ...  
وانتشر الخبر فى الكلية ، وسألها صديق عنه فأجابت بأنها قابلته هناك مصادفة  
فسارا معا يتحدثان . تؤكد الخبر . وبلغ جميع المسئولين فى الكلية . ولكن  
نجمت عن ذلك مشكلة تحدث للجميع بقحة لا مثيل لها . لم يكن من المستطاع  
اتخاذ إجراء مع المدرس خشية إغضاب دار المندوب السامى ، ولا كان من  
المستطاع معاقبة الطالبة خشية إغضاب المدرس ! . وأدركنا الموقف بكافة أبعاده  
السياسية والنفسية . وقال جعفر خليل بروحه الساخرة :

— إنجلترا زادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظا جديدا خاصة بسعاد وهبى .  
وقال آخر :

— الأسطول البريطانى يهدد باحتلال الجمارك إذا تعرضت سعاد لأى  
ضغط .

وقيل فى الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب من الطلبة . وتبدلت  
السخریات على مسمع من العميد نفسه . ولكن فى بداية العام الدراسى الجديد  
وجدنا الموقف مختلفا . فالمدرس الإنجليزى لم يرغب فى تجديد عقده ، وسعاد لم  
ترجع إلى الكلية . أين ذهبت سعاد ؟ . قيل إنها سافرت مع المدرس الإنجليزى ،  
وقيل إنها تزوجت ، وقيل إنها أصبحت غانية فى شارع الألفى . ومع كثرة تقلبى  
فى أنحاء القاهرة فلم تقع عليها عيناى منذ ذلك التاريخ البعيد .

## سيد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العباسية . أجل كان خليل زكى يماثله في القوة أو يفوقه ولكن الزعامة لا تقوم على القوة وحدها لا بد لها من أساس مكين من الحب . وكان سيد شعير محبوبا كما كان كريما ، وفي أوقات اللعب كان مهرجا . وفي ليالى رمضان كان نجما لامعا . ولا مفر من عقد المقارنات بينه وبين خليل زكى دائما ، فكلاهما قوى سريع العدوان غير أن خليل ينطلق من شراسة إجرامية على حين ينطلق سيد من المجون والاستهتار ، وكلاهما لم يوفق في الدراسة الابتدائية ، وكلاهما وظفه أبوه في دكانه ، وكلاهما طرد من رعاية أبيه غير أن خليل طرد لشراسته على حين طرد سيد لسلوكه مع النساء من زبائن المحل . وبطرف عينه الماكرة اكتشف الهوى بينى وبين حنان ، وراح يداعبني ساخرا من ترددي ، حتى قال لي يوما :

— كلام فارغ ، غرامك كلام فارغ ..

ولم أحب أن يجعل من حبي سخرية من سخرياته ولكنه قال :

— اسمع نصيحتي وواعدها في غابة التين الشوكي .

وفي مساء الأربعاء من كل أسبوع — في العطلة السنوية — كان يدعونا إلى بيته في آخر شارعنا من ناحية بين الجنان حيث يقام ذكر في الفناء فنجلس على أريكتين متقاربتين نتابع الأناشيد الدينية ونشاهد حركات الذاكرين ونحتسى الشاي والقرفة ، وكلما ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ من النوادر المأجنة عن أهل الذكر ! . بقدر ما كانت أسرته متدينة بقدر ما كان مستهترا وبقدر ما حيرني في فهمه . ولما يش من مواصلة الدراسة في المدرسة الابتدائية عمل في دكان أبيه في الغورية . وفي العطلة السنوية كنا نذهب إليه في المغرب ، ولما يغلق الدكان يمضي

بنا في أنحاء الحى الحسينى ، من عطفة إلى عطفة ، ومن مقهى إلى مقهى ، فعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوى والمدق وخان الخليلي واستمعنا إلى أذان على محمود ومواويل العربى ، وعلمنا — ونحن في السنة الأولى من المدرسة الثانوية — تدخين الجوزة والبورى والنارجيلة ولعب النرد والدومينو . كانت تلك الأيام من أسعد أيام سيد شعير ، كان يعيش في بيت والده وينفق راتبه على مزاجه الخاص ويتشبه بالرجال وهو في الرابعة عشرة من عمره . ونشأ الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحل . ومرة غازل امرأة وكان زوجها في الخارج فنشبت بينهما معركة وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانهاى على ابنه ضربا أمام الناس ، ففقد سيد عقله وصب غضبه على البضائع من أواني زجاجية ومعدنية وقوارير العطر وغيرها . وطرده الرجل ، طرده من دكانه ومن بيته فانقطع ما بينهما إلى الأبد . اقترحنا أن نوسط آباءنا في الإصلاح بينهما ولكن سيد رفض ذلك بإباء وقال :

— سجن البيت لم يعد يناسبنى ودنيا الله واسعة .

وكنّا نظنّها نزوة غضب ولكن الأيام أثبتت لنا أنه بحق رجل الدنيا الواسعة وأنه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائلية ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات . وقد حرت في تعليل ذلك في وقتها ولكنى أدركت فيما بعد أنه كان مرافقا منبوذا وسط ثلاثة إخوة ناجحين ، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسطة وواصل الآخرا تعليمهما بتفوق ساحق . وقال لى بكبرياء :

— إن أى تاجر فى الحى يتمنى أن يستخدمنى !

فقلت له مخلصا :

— ولكن حكاية النسوان حكاية خطيرة ..

فقال ساخرا :

— المرأة تتسكع بين دكان وآخر التماسا لغمزة عين أو كلمة حلوة أما البيع

والشراء فلا يحدثان إلا في المواسم !

وعمل بالفعل في محال كثيرة حتى خنقت الأزمة الاقتصادية التجارة فاستغنى عنه فيمن استغنى عنهم ووجد نفسه وحيدا بلا مورد ولا أهل ولا أمل . ولم يكن بوسعنا أن نقدم له — ونحن تلاميذ — أى مساعدة ناجعة ، ولكنه كان صديقا لصاحب مقهى في مرجوش يعمل في الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزعا بالنسبة وسرعان ما قبل . وأخبرنا بذلك في مباهاة طفولية فذعرنا وقال له سرور عبد الباقي :

— أنت مجنون ..

وقال له رضا حمادة :

— لن يكون ذلك أبدا ..

ولكنه سخر من ذعرنا ورجانا في الوقت نفسه أن نخفى الأمر تماما عن خليل زكى الذى كان يمقته . واندفع في طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من الجوع والكرب . وفي الخطوة التالية عرف السبيل إلى أحياء البغايا لا كهاو ، ولكن كمحترف ، وعاشر امرأة وأقام معها في بيتها ، ودعانا إلى الطواف بمملكته الجديدة . تخلف عن الدعوة سرور عبد الباقي ، وذهبنا إليه مدفوعين بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة . وذكرت في الحال تجربتي القديمة مع قريبي أحمد قدرى ، وعثرت على البيت ، ودهشت للوجوه الجديدة التى طالعتنى . ومضى سيد شعير بنا في تلك الدروب كما فعل من قبل في الحى الحسينى ولقنا كافة تقاليدنا وأسرارها ، وسهرنا في مقاهى الأنس ومجالس المعلمات والفتوات والبلطجية والبرمجية ، حتى باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصات العارية ، باتت تعزف في رعوسنا كالسحر الأسود وتسكب في قلوبنا عصير الأفراح والمآسى . وانضم بقدره قادر إلى زمرة رجال الأعمال فافتتح مقهى في وجه البركة امتاز بالأناقة والخمر الرخيصة وعازف أرغول يشنف آذان السكارى ومدمنى المخدرات من الزبائن . وكان يديره بحزم

الفتوات وابتسامة التجار المحترفين ، مرتديا بدلة كالأفندية إشارة إلى أصله العريق المختلف عن أصول أصحاب المقاهي من أهل البلد البرمجية . ولما قامت الحرب العظمى الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أن رفيقته هجرته فيمن هاجر من حى البغايا من المومسات الجميلات اللاتي آثرن العمل فى المشارب الليلية استغلالا للجنود البريطانيين ، فلم يبق فى الحى إلا النسوة الميئوس منهن ممن تقدم بهن العمر أو ذبل جمالهن . وتدهور الحى القديم فلم يعد صالحا لارتياذ الأفندية ، ولم نعد نرى سيد شعير إلا كل حين ومين . وقد جمعنا مآثم شعراوى الفحام ، ومرة أخرى اجتمع فى ركن من السراى جعفر خليل و خليل زكى ورضا حمادة والدكتور سرور عبد الباقى وعيد منصور وسيد شعير وأنا .

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدا ، وهم فى ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر ، وقد عرف كل سبيله ، المدرس والموظف والمحامى والدكتور والتاجر والقواد والبرمجى وتاجر المخدرات . وجعلنا نرثى صديقنا الراحل فنقول :

— ترك فراغا لن يسد .

— ما أجمل ذكرياته ...

عاش ضاحكا ومات ضاحكا .

— راهن طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقق .

وعاتبنا سيد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا له بأن الحى القديم لم يعد بالمكان المناسب .

فقال بازدرأ :

— اخص على أصلكم ...

ثم بأسف :

— رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى ...

وبعد انتهاء الحرب بأعوام تقرر إلغاء البغاء الرسمى فاضطر سيد إلى الظهور



فوق سطح الأرض مرة أخرى . رجلا في الأربعين ، يملك بضعة آلاف من الجنيهات ، وذخيرة كبيرة من التجارب الفاسدة . واجتمعنا في مقهى الفيشاوى . فقال له رضا حمادة :

— أمامك فرصة طيبة فابدأ حياة صحية جديدة !

فضحك سيد قائلا :

— ما أقبح الوعظ والإرشاد .

وقرر أن يستجم فترة من الزمن . أقام في فندق بالموسكى يدار بطريقة مريبة . وأسرف في تعاطي المخدرات والخمور ، واصطياذ بنات الهوى ممن هن في حكم المومسات ، أما نهاره فيمضيه في لعب الكومى وتدخين النارجيلة . وظل خارج الزمن تماما فيما يتعلق بجميع الأحداث كحرب فلسطين وحريق القاهرة وثورة يوليو . وتزوج وهو في الخمسين من تاجرة مخدرات مات زوجها في السجن وكانت في الأربعين من عمرها . وبالرغم من شدة العقوبات التى فرضتها الثورة على تجارة المخدرات فقد تاجر فيها بكل استهانة وبغير تقدير للعواقب . وقد شيد لنفسه بيتا كبيرا في طرف الدراسة على حافة الخلاء المفضى إلى جبل المقطم ، وسط حديقة مساحتها فدان زرعها بالنخيل والأعناب والجوافة والليمون والحناء والياسمين ، وأثثه بالأثاث الشرقى ، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج والأوز والأرانب .

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرة أخرى في مأتم زوجة رضا حمادة ، وغادرنا المأتم معا — أنا وسيد — حوالى منتصف الليل فسرنا معا نتحدث . وسأله برجاء :

— ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدرات ؟

فأجاب باستهانة :

— إني أربح كثيرا وأنفق أكثر ...

— ولكنك لا تقدر العواقب .

فقال لى وهو يربت على كفى :

— طظ في العواقب !

ثم قال بحسرة :

— هل تذكر رفيقتى القديمة التى هجرتنى أيام الحرب ؟ .. سمعت أنها أنجبت .  
منى ولدا ولكنى لم أعثر لهما على أثر !  
فسألته :

— أتحب أن يكون لك ولد ؟

فضحك متجاهلا سؤالى ، ثم قال :

— أنا سعيد بزواجى ولا أفكر فى الزواج من أخرى !

ثم ضحك عاليا وقال :

— والزواج من أخرى يعنى بالنسبة لى الخراب أو التأييدة !  
وتنهى وهو يقول :

— كل شىء يهون بالقياس إلى ما وقع لصديقنا الشهم رضا حمادة !  
فقلت مستعيدا حزنى كله :

— إنه أعظمنا شخصية وأسوأنا حظا :

فقال بحنى :

— قارن بين حظه وحظ ابن القديمة خليل زكى !

— أى نعم ، يا لها من مقارنة ساخرة ..

— ذلك هو الحقير الشرير أما أنا ! ... ما عيب تجارة المخدرات ؟!

— المسألة إنى أخاف عليك العواقب .

— فلنذكر عاقبة رضا حمادة الذى لم يتاجر فى المخدرات قط !

وأصر على اصطحابى إلى بيته العامر بالدراسة . ولكن ندر اللقاء بيتنا . وربما

مرت أعوام دون لقاء على الإطلاق . أو يقع لقاء مصادفة فى مقهى الفيشاوى .

ولا أنسى يوم أقبل على فى الأسبوع التالى للنكسة . كنت جالسا وحدى أجتز

الهم الثقيل الذى لم أعرف له نظيرا من قبل . سلم وجلس ثم بادرنى متسائلا :

— هل يقضى احتلال سيناء على التهريب حقا ؟

أحنقنى سؤاله . اعتبرته غاية ما بعدها غاية فى الاستلقاء خارج الزمن .  
وأدرك بذكائه استيائى فسكت . ومضى يدخن النارجيلة صامتا .. ثم تتمم :  
— كعادتك دائما لا شئ يهيك مثل السياسة ووجع  
الدماغ .

فسألته بضيق :

— الظاهر أنك لم تسمع بما وقع ؟

فقال وهو يشكم رغبته فى السخرية :

— سمعنا وشفنا العجب !

ولقيته بعد ذلك بعامين فى مكتب عيد منصور . رأيت فى صورة جديدة ،  
منتفخ الوجه والبطن ، يشى منظره بحال مرضية لا شك فيها ولا فكرة لى عنها ،  
فسألته :

— كيف حالك ؟

فأجاب ببساطة مذهلة :

— بخير كما ترى !

— ولكنك لست كعادتك !

— سبحان الذى لا يتغير !

فضحك عيد منصور قائلا :

— أخيرا عرف ربنا .

فسألته :

— ألم تستشر طبيبا ؟

فتساءل بدوره :

— أتؤمن حقا بالأطباء ؟

— ١٣٧ —

— لم أذهب ولا مرة واحدة إلى طبيب ولم يدخل معدي  
دواء !

ولما غادر المكتب ضحك عيد منصور وقال :  
— يبدو أن جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد !

## شرارة النحال

عرفت شرارة النحال أول عهدي بالوظيفة الحكومية . كان عامل التليفون ،  
في العشرين من عمره ، ومن حملة الابتدائية حديثا . وكان يلفت النظر بجمال  
وجهه ورشاقة قدمه ورقة شمائله . رأيت عم صقر الساعى يمازحه مرة فيقول له :  
— اخلع بدلتك وارقد فستانا وأنا أضمن لك عريسا في ظرف أربع وعشرين  
ساعة !

وخلت درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة كبة الدرجة الثامنة تطلعا  
إليها . ولم يكن ثمة قانون ينظم الترقيات ، كما كانت الشهادة العليا لعنة على حاملها  
لما تثيره من حنق في صدور الرؤساء من حملة شهادة الابتدائية القديمة ، وفزع كل  
موظف من الفئة الثامنة إلى من يعرف من الكبراء والشيوخ والنواب فانهالت  
بطاقات التوصية على وكيل الوزارة ، ووجدت أنا شفيعا — في ذلك السباق —  
في شخص زميلي القديم عبده البسيوني عضو مجلس النواب ، وقابلني الأستاذ  
طنطاوى إسماعيل في الممشى خارج السكرتارية فاستوقفنى متجهما وسألنى :  
— أما علمت بالذى رقى إلى الدرجة السابعة ؟

فقلت وقلبي يخفق :

— كلا .

— أسرع بتهئة شرارة النحال !

فهمت :

— شرارة النحال ؟!

— نعم .

— عامل التليفون ؟!

— نعم .

— ولكنه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة !

فرفع الرجل رأسه إلى فوق وقال :

— اللهم فاشهد ، ما زال بمصر أناس يحتكمون إلى المنطق !

ثم مضى إلى حجرته . وذهبت إلى إدارة السكرتارية فوجدت أن الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع .

— هل سمعتم عن عامل تليفون في الدرجة السابعة ؟

— من قال إنه عامل تليفون ؟ ... لقد انتدب للعمل بمكتب وكيل الوزارة .

— وكيل الوزارة على سن ورمح ؟

— وكيل الوزارة على سن ورمح !

وتساءلت :

— كيف .. ولماذا ؟

فقال لي الأستاذ عباس فوزى همسا :

— يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا ...

وقال لي عم صقر الساعى وهو يقدم لى القهوة :

— لا تدهش يا بك ، حضرتك موظف جديد نسيباً هذا هو كل ما هنالك ،

والمسألة أنه كان تقرر ترقية موظف آخر ، ولكن شرارة طلب مقابلة سعادة

وكيل الوزارة ، ولما طرد من سكرتاريته انتظر فى الممشى حتى إذا خرج الوكيل

فى وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدى

إنه مسئول عن أسرة كبيرة وإنه لا واسطة له بعد الله إلا سعادته ، ونظر إليه

الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق وامتنعاض . غير أن شيئاً فى وجه شرارة جعله

يعيد إليه النظر باهتمام ، ولبث ينظر إليه كأنما لا يريد أن يسترده بصره .

وسكت الساعى وهو يتسم بخبث فساورنى الشك . غير أنى سألته :

— أى شىء تقصد ؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبي وهو يهمس باسمي :  
— في العشق ياما كنت أنوح !

ونقل شرارة النحال إلى مكتب الوكيل بصفة نهائية للعمل في أرشيفه . وتغير منظره الخارجي ليناسب وظيفته الجديدة فارتدى بدلة جديدة أنيقة بدلا من القديمة الرثة ، ولبس حذاء أسود بدلا من النعل المطاط ، وتزين عنقه بكرافطة حريرية عليها طابع الهبة وأطل من طرف جاكته الأعلى منديل مزر كش . وصرنا إذا تقابلنا تبادلنا التحية تبادل الأنداد لا تبادلها القديم بين موظف وآخر في حكم الساعة . ولعله كان على وعى بما يدور عنه ولكنه لم يكثر ث له ، إما لأنه كان مكشوف الوجه . أو لأنه آمن بأن مركز القوة خليف بمحق المعاييب وإخراص الألسنة . وفي ظرف عامين عين شرارة سكرتيرا خاصا للوكيل مع ترقية إلى الدرجة السادسة . وتهامس الموظفون بشتى التعليقات كالعادة ، وقال لي الأستاذ عباس فوزى :

— ستراه عما قريب ضمن الهيئة الحاكمة !

وسرعان ما عرف في الوزارة كأهم شخصية في مكتب الوكيل ، أهم من مدير المكتب نفسه ، فصار كعبة لطلاب الحاجات من الموظفين والأهالي . وانهالت عليه الهدايا أشكالا وألوانا . وأصبحت ابتسامته أو تحيته هدية يفاخر بها المتلقى وهو يحمد الله المنان . وحدث أن تولى وزارتنا وزير من « أهل ذلك » فانفجرت أزمة لم تجر لأحد في خاطر ، بالرغم من أن الوزير والوكيل كانا ينتميان إلى حزب واحد . ودبر المؤامرة موظف كبير من محاسيب الوزير كان يتحين الفرص للانتقام من الوكيل لإساءة سبقت منه إليه ، فحدث الوزير حديثا مغريا عن سكرتير الوكيل « الجميل » . ورتب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطلاع عليها . وقيل إن الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى ، وأن السكرتير رحب بتقدير الوزير ترحيب شاب ليس لطموحه حد . وأبلغ الوكيل برغبة الوزير في نقل سكرتيه إلى مكتبه فثار غضبه وصارح



مبلغه بأنه لا يستغنى عنه . وغضب الوزير بدوره فأصدر أمرا بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلا أن اعتكف في قصره . وقيل إن رئيس الحزب وبخ الرجلين ، وإنه حذرهما من تسرب خلافهما إلى الصحف الوفدية ، فرجع الوكيل إلى عمله كاظما غيظه . وتتابع صعود شرارة النحال فرقى إلى الخامسة مع قيده على الرابعة — وترامى المستقبل أمامه فسيحا باهرا . غير أنه لم يشق طريقه معتمدا على جماله وحده ، أو أن جماله لم يكن ميزته الوحيدة . فكان إلى ذلك ذكيا على الهمة مزودا بأكثر من سبب من أسباب النجاح . ففي أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذا مجتهدا ، وحصل من « منازلهم » على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيرا ليسانس الحقوق . وعلق عباس فوزى على اجتهاده متهمًا وجادا في آن فقال :

— ليس كغيره من أمثاله ، فهم اعتمدوا على جمالهم وحده وهو خاصية تفقد قيمتها سريعا بالتقدم في العمر . لذلك تجدهم الآن كهولا منسين في الدرجة الرابعة أو الثالثة على الأكثر ، أما صاحبنا فيعد نفسه للمناصب الرفيعة !  
وكموظف يعتبر من أكفأ الموظفين الذين عرفتهم في حياتي ، همة في العمل وجلدا عليه وحسن تصرف فيه ، فهو مرجع من المراجع الهامة في الإدارة ، ومن ناحية أخرى اشتهر بالطموح والأنانية ، والقسوة في معاملة مرعوسيه من زملائه القدامى ، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلة لسان . وكان قلرا كبيرا من سعادته لا يتحقق إلا بإذلالهم والتخيل بهم . واستقالت الوزارة وهو في الدرجة الثالثة مديرا لمكتب الوزير . وتولى الوفد الحكم . وأحيل الوكيل إلى المعاش قبل أن يتمكن من الانتقام من محبوبه القديم . وهرع الحاسدون إلى الوزير الجديد فاتهموا مدير المكتب بالحزبية المضادة والشذوذ الأخلاقي . ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال إنه « موظف » وموظف فحسب ، ولاؤه أولا وأخيرا للعمل ، وإخلاصه لمن يعمل في خدمته . وتقرر نقله مديرا للمحفوظات ، وهي وظيفة خلفية لا مجال فيها للطموح ، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشيف وأعاد

تنظيمه على أسس جديدة مما بث فيه حياة لم يحظ بها من قبل . ودعا الوزير لتفقدته فأعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه . وإذا به ينشر مقالة في جريدة المقطم بعنوان « وزير وفدى يثنى على خصم من خصوم الوفد » ، نوه فيها بعدالة الوزير وإخلاصه وإثاره للمصلحة العامة وكيف أنه شجعه بدل أن يبطش به ، وختمها بقوله : إن الإنسان ليجتاح إلى قوة خارقة تمنعه من الارتقاء في أحضان الوفد . وحدثني الأستاذ عباس فوزى بأنه كان في حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النحال لشكره وأنه قال له :

— من أين لك بهذا الأسلوب البليغ ؟

فما كان من شرارة إلا أن قال على الفور :

— إنه فضيلة يا صاحب المعالي اكتسبتها من حفظ خطب خالد الذكر سعد زغلول باشا !

ونقل شرارة النحال مديرا للمستخدمين ثم رقى إلى الدرجة الثانية قبيل إقالة حكومة الوفد . وفرح الحاسدون وقالوا « الدب وقع » ، فها هو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضا ، فما عسى أن يصنع شرارة النحال ؟ . وتوقعنا أن نشهد خاتمة الرجل ، ولكننا فوجئنا جميعا بترقيته إلى الدرجة الأولى مديرا عاما للإدارة !

— ما معنى هذا ؟

— ماذا جرى في الدنيا ؟!

ومضت الأخبار تتسرب كنقط الماء ، عرفنا ما خفى علينا . فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سرا ، وكان ينفذ له رغائبه دون أن يدرى أحد . وأكثر من ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال إلى المعاش ؟ . فلما رجعا قال بكل ثقة :

— رجع عهدنا العتيد !

وقيل أيضا إنه راح يعطى دروسا خصوصية لابن الوزير الوفدى الطالب

بكلية الحقوق . غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان القوة الحقيقي مضى يتركز في السراى ، وأن السراى خير وأبقى لمن أوتى بعد نظر حقيقى . وعليه ألف كتابه الوحيد « صانعو مصر الحديثة » أرخ فيه لمحمد على وإسماعيل وفؤاد ، وأهداه إلى السدة الملكية . وجاءه من الديوان الملكى جواب شكر نشر فى جميع الصحف . وقال لزميله وغريمه عدلى المؤذن :

— الآن أصبحت من رجال السراى ولن يفكر حزب فى التنكيل بى .  
وفى أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة ، فأنجب بنتا وولدا ، كانا — مثله — آيتين فى الجمال . وقد تزوجت الفتاة من سكرتيره ، أما الشاب فعمل ضابطا فى الجيش . وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل إجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعانى فى مكتبه ، وتعطف فسمح لى بالجلوس أمام مكتبه وقال لى .

— انتخابات الشيوخ غاية فى الأهمية ، ولو فاز الوفديون لحق لهم تغيير العهد كله ...

فنظرت إليه متسائلا فواصل قائلا :

— إنى أفكر فى إرسال اسمك ضمن المرشحين لرئاسة اللجان الانتخابية ... فابتسمت ولم أنبس فقال :

— ستجد فى الدائرة رجلا من رجال حزبنا ..

فسألت بنخبث :

— أى حزب ؟

فضحك عاليا حتى احتقن وجهه الوردى بالدم ثم قال :

— لا أهمية للحزب ، المهم الولاء لصاحب العرش !

فقلت بقلق :

— لا خبرة لى بذلك العمل ..

— أغمض عينيك ودع المأمور يعمل ، لن يطلب منك أكثر من ذلك .

فوجعت وهو ينظر لى ثم قال متأسفا :

— الحق أنى رشحتك لما أعهدده فيك من خلق طيب ولكنى لن أثقل عليك .  
ونفض مادا يده فصافحته وغادرت الحجرة . وأسفرت نتيجة الانتخابات  
عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديين فى أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع  
صنوف الضغط والإرهاب والتزوير كالعادة ، فحمدت الله على أننى لم أشترك  
فى تلك الجريمة التاريخية المديرة .

وقد اختلفت الأقوال فى نزاهته فمن قائل إنه كان نزيها بالرغم من عيوبه  
الكثيرة ، ومن قائل بأنه لص أريب شديد الحذر . ومعروف أنه امتلك قليلا  
جميلة فى حلوان وعمارة فى الدقى ، ولكنه كان يردد دائما بأنهما اشتريا بأموال  
زوجته . ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم إلى لجنة التطهير بناء على ما قدم فيه  
من عرائض ولكن الظاهر أنه لم يثبت عليه ما يدينه ، فاستمر فى عمله . وقيل إنه  
استمر بفضل شفاعاة ابنه الضابط والله أعلم . ورقى بعد ذلك وكيلا للوزارة ، ثم  
عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكية . وتسلسل إليه الحزن مرتين ،  
مرة عندما أصيب ابنه برصاصة غير قاتلة فى حرب اليمن ، ومرة عندما أصيب  
زوج كريمته إصابة عشواء — وهو جالس فى مقهى — فى مظاهرات الطلبة التى  
تفجرت عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ . ولم أره منذ غادر الوزارة ، وانقطعت  
عنى أخباره إلا فيما تسوقه المصادفة بين الحين والحين . وآخر ما سمعت عنه من  
صديق رآه فى مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤدى فريضة الحج .

## شعراوى الفحام

لعله كان أطيب أصدقاء العباسية . طيبة تخالطها لا مبالاة وبساطة بالغة في الذكاء والتفكير . وأتذكره كلما تذكرته ضاحكا لسبب ولعير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمة أو ملاحظة عابرة ليغرق في الضحك ، وكلما اشتد نقاشنا في السياسة ضحك ، تجادلنا في الكرة أو السينما ضحك . وإذا شهدنا جنازة قريب لصديق تجنبنا النظر نحوه خشية إثارة فضيحة بين المغرین . حضرنا يوما جنازة قريب شاب لجعفر خليل . وخرجت أم الشاب تودع النعش أمام البيت في حال جنونية ، حافية القدمين محلولة الشعر تلطم خديها بشبشب ، ثم من شدة الحزن راحت ترقص كالمجنونة ، منظر أثار حزننا جميعا وأجرى دموعنا ، ولاحظت منى التفاتة نحو شعراوى الفحام فرأيت أنه يعرض النواجذ على ضحكة تريد أن تفلت على حين راح جسمه النحيل يرتعش تحت ضغط الضحك المكتوم ، ولم يكن قاسيا ولا بليدا ولا أبله ولكنه كان غريبا ، كان نوعا قائما بذاته . وكان يقيم مع أمه في البيت المجاور لبيت سيد شعير ، بلا أب ولا إخوة ، مات أبوه وهو في المهد ، تاركاً له ولأمه البيت ومعاشا مقداره عشرة جنيهات . وكرست أمه حياتها لتربيته معتمدة على معاش زوجها الحال وستظل كذلك حتى يدخل شعراوى طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغير الحال . ولم يوفق شعراوى في دراسته الابتدائية ، لا بسبب الإهمال والشقاوة مثل خليل زكى وسيد شعير ولكن بسبب الإهمال والشقاوة والغباء . وفصل من المدرسة لكثرة سقوطه ، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق . ونفر بطيعة المذهب من مضاجبة خليل زكى ولكنه وجد ملاذه عند سيد شعير ، فلازمه في سهرات الحى الحسينى ثم فى أحياء البغايا

بعد ذلك . وعن طريقه تعلم شرب الخمر ثم لم يفارقه إدمانها حتى الموت . ويوما قال لى وكان ما زال تلميذا بالابتدائية :

— أنا عارف ؟

فسأله عما يعنيه فقال :

— أنت تحب حنان مصطفى .

فسكت ضيقاً وحياء فقال :

— وأنا أحب حنان مصطفى !

فدهشت وتوقعت صرأعاً من نوع ما غير أنه ضحك وقال :

— يد الله مع الجماعة !

— ماذا تعنى ؟

— نستدرجها معا إلى غابة التين الشوكى !

فصحت به :

— عليك اللعنة !

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيام فسرعان ما تلاشى سوء التفاهم . على أنى لم أعرف له بعد ذلك قصة حب أو زواج واقتصر نشاطه فى ذلك المجال على مصادقة المؤامسات . ولما يئست أمه من تعليمه أرادت أن تجد له عملاً ، وكانت تردد دائماً أن أى عمل خير من البطالة . وقصدت قريباً لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظفه فى وزارة الأوقاف ، ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل ، وكان يمضى يومه فى الفيشاوى منتظراً سيد شعر حتى يفرغ من عمله فى دكان أبيه ، وسرعان ما فصل من الوزارة ، ولم يتخلف يوماً عن سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين ، وتمكن منه إدمان الخمر فكان يشرب كل ليلة ، يشرب أرخص الخمر وأرذأها التى تتناسب مع دخله . ويمكن تخيل ما أحدثه ذلك فى أمه من قلق وأسى . وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر فى مقهى سيد شعر بوجه البركة :

— أمى لا تريخ ولا تستريخ ، تريد أن تخلق لى عملا ولكن أى عمل ؟ ، وتريد أن تزوجنى ولكن أى زوجة ؟

فقال له عيد منصور :

— دخلك الثابت عشرة جنيهاً وهو دخل طيب لوقعت بسكرة واحدة فى الأسبوع وما عليك إلا أن تبحث عن زوجة ذات إيراد ..

فضحك كالعادة وقال :

— إنى أنتظر الفرج وهو آت عما قريب !

وكان يقصد قريه أحمد باشا ندا الذى تولى رئاسة الديوان الملكى فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون المالية :

— ألك فكرة عن ثروته ؟

فأجاب شعراوى وهو يملأ كأسه بالكونياك الجهنمى :

— عشرون ألفا من الأفدنة أما أمواله السائلة فلا يعلمها إلا الله ..

— ولا ورثة له غيركم ؟

— أمى هى قريته الوحيدة الباقية ..

وكان رضا حمادة يؤكد لنا تلك المعلومات نقلا عن أبيه . ومن الطريف أننا لم نعلم بقراءة شعراوى لأحمد باشا ندا إلا فى وقت متأخر نسبيا ، إذ أنه أخفاها على عهد المدرسة الابتدائية لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدو من أعداء سعد زغلول . واسترسل شعراوى يقول :

— أمى هى الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها والباشا الآن فى الخامسة والسبعين من عمره ، وكل آت قريب !

وسأله جعفر خليل :

— حدثنا عما ستفعل بالتركة إذا آلت إليك ؟

فضحك طويلا وقال :

— آه لو تتحقق الأحلام ، سأبنى قصرا فى القاهرة وآخر فى الإسكندرية



كالباشا نفسه ، وسأملأ الخزائن بجميع صنوف الخمر المعتقدة ، وأما النسوان ..  
فقاطعه سيد شعير :

— وماذا ستقدم لنا نحن الأصدقاء ؟  
فأجاب :

— ستكون سهرتكم في حديقة القصر وسيقدم لكم أجود ألوان الطعام  
والخمور والنساء ، عهد الله بينى وبينكم ..  
وهمس رضا حمادة في أذنى :

— سوف يكون يوما تاريخيا يوم يرث صديقنا تركته الخيالية ...  
وظل يسكر ويحلم بالتركة ، يسكر ويحلم ، ومع الأيام رق عوده وجف  
جلده وبرغم شبابه جرى المشيب في شعره . وإذا بالبasha العجوز يفاجئ البلد  
بمغامرة لا تخطر بالبال ، فعاد من رحلة بالتمسا بصحبة عادة شقراء فتنة في العشرين  
من عمرها ، قيل إنه ينوى الزواج منها على سنة الله ورسوله . وثار الرأى العام ،  
واضطربت جماعتنا ، أما صديقنا فكاد يجن . وما ندرى إلا وشعراوى يقيم على  
البasha دعوى للحجر عليه باعتباره سفيا . وأدهشنا ذلك وبحثنا عما خفى علينا  
منه فوضح لنا أن خليل زكى هو الذى أشار عليه بذلك ! . غير أن قوى مجهولة  
تدخلت لتعيد إلى الأمر توازنه . فسافرت الفتاة التماسوية فجأة وقيل إنها لم توافق  
على السفر حتى استولت على عشرين ألفا من الجنيهات . وبتدخل السراى كفت  
الجرائد عن الخوض فى الموضوع ، وبتدخلها أيضا رفضت دعوى الحجر .  
واعتكف البasha فى قصره لا يزور ولا يزار ثم أعلن وقفته المشهورة التى أوقف  
أرضه بها للخيرات والمساجد . تذكرنا صديقنا فأحزننا مآله وخيبة آماله ، وأقبل  
علينا فى مقهى الفيشاوى سكران كالعادة محمر العينين ذاهل الطرف ، نظر فى  
وجوهنا مليا ، ثم أغرق فى الضحك ! . وخلع حذاءه فوثب إلى أريكة فى صدر  
المقصورة فتربع عليها وراح يغنى :

البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

وأغرق في الضحك مرة أخرى حتى أعدانا فضحكنا كالمجانين . ولم يطرأ عليه من جديد بعد ذلك سوى الإفراط في الشراب . فكان يشرب في النهار كما يشرب في الليل . ولم يتيسر له من أنواع الخمر إلا الأنبذة الرخيصة الشيطانية ، أنبذة السلسلة ودرب المبلات وخمارات شارع محمد علي ، وخبث شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء ، وبدأ أنه يعيش في منفى من صنعه ، يتخاطب بلغته القائمة على الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق في كآبة حيال أشباحه ، وأنه يسير بقوة نحو الذوبان . وحاول جعفر خليل أن يجره إلى دنيا السينما كما فعل مع خليل زكي ولكنه رفض الفكرة وضحك طويلا . وعرض عليه سيد شعير أن يعمل في المقهى بشرط أن يمتنع عن السكر فضحك أيضا . لم تكن لديه همة ولا رغبة ولا دافع . وقامت الحرب العظمى الثانية ، وفي نفس العام توفيت والدته ، فأجر البيت وأقام في حجرة مستقلة بمرافقها فوق السطح . وفي عام ١٩٤١ أغارت الطائرات الإيطالية على القاهرة في النصف الثاني من الليل . وكان جالسا فوق السطح في غيبوبة تامة من السكر . والظاهر أنه لم يغادر كرسيه إذ وجد مطروحا عليه قتيلا بشظية مستقرة في رأسه . وكان مصرعه أول تجربة من نوعها في حياتنا المشتركة ، فهو أول من فقدنا من أصدقاء العمر . وكان جعفر خليل أشدنا حزنا إذ عرف دائما بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين كسيد شعير و خليل زكي . وجمعنا المأتم حتى الذين باعدت بيننا وبينهم الظروف الطارئة : وجعل سيد شعير يقول بأسف حقيقي :

— رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتي .

## صادق عبد الحميد

قال الأستاذ جاد أبو العلا يقدمه لى فى صالونه بالدقى .

— الدكتور صادق عبد الحميد .

سرت فى روحى رعدة وأنا أضافحه . تذكرت الاسم بقوة مخيفة . تذكرت درية زوجته وهى تحدثنى عنه . ترى أىكون آخر له نفس الاسم ؟ . ولكن هذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلاً :

— كان فى بعثة قصيرة أخيراً فى إنجلترا ، ولكنه حصل على الدكتوراه من إنجلترا على عهد طلب العلم ، وهو باطنى ممتاز ولكنه أديب وفنان وفيلسوف وسياسى أيضاً ..

إذن فهو زوج عشيقتى دون غيره ! . ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين بالكاد والذى يفيض حيوية ويتألق ذكاء . وأعجبني حديثه الذكى وجولاته المضيفة فى الفن والفكر والسياسة . ووجدته يجذبني بطلاوة الحديث وعمقه وتنوعه ، ووجدت فى روحه سرا ينفث صداقة راسخة ، وازدادت مع الأيام رسوخا . وصفا جوها بقطع العلاقة بينى وبين درية زوجته وإن لم أخل من ضيق كلما تذكرتها . وبتحريض حار من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر . كما قدمته إلى الأستاذ زهير كامل . وخيل إلى كثير أنه يضم تجربة نفسه فى الكتابة ولكنه قنع — ولو إلى حين — بالاستماع والمناقشة ، وكان يحظى منهما بسعادة لا توصف . وكان من المتحمسين لثورة يوليو عن إيمان وعقيدة . وكان يحلم بالاشتراكية منذ عهد طلب العلم ، ولم تكن له جذور حزبية أو إقطاعية تمنعه من الارتقاء فى أحضان الثورة . سأله رضا حمادة يوماً : — أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرفاتها ؟

فأجاب بحماس ، وهو دائما يتكلم بحماس :  
— كلا ، الحق أنى أيدت موقفها من الأحزاب ، ومن الإخوان ، وحتى من  
الشيوعيين ...

— وما لزوم « حتى » هذه ؟  
— لست شيوعيا ، ولكنى أرحب بالتعاون بين الثورة وبينهم ، فالثورة  
والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان في النهاية إلى أغراض  
متقاربة ...

وبعد صمت قصير استطرد :  
— وأيدت موقفها من الوحدة مع سوريا ، ومن حملة اليمن !  
فقال رضا حمادة :

— إذن فليس في الإمكان خير مما كان ..  
فقال ضاحكا :

— لست غافلا عن السلبيات ولكنها شر لا بد منه في فترات الانتقال  
والتطور ، فأنت بضربة موفقة واحدة تستطيع أن تغير نظام الحكم ، أما الطبائع  
فيلزمها وقت أطول بكثير !  
وعمد إلى تفصيل رأيه فقال :

— قولوا في الجمعيات التعاونية ما شئتم ، وقولكم حق ، ولكنها كنظام فهو  
نظام مثالي ، وسوف يختفى الفساد يوما وتبقى الجمعية لتؤدي رسالتها ، ويمكن  
أن يقال ذلك بالحرف عن القطاع العام ، ألا تذكرون بنك التسليف  
الزراعي ؟ ... لقد استغله إسماعيل صدقي للتنكيل بخصومه وتفتيت وحدة الأمة  
ولكن إسماعيل صدقي ذهب وبقي بنك التسليف !

ولما وقعت الواقعة يوم ٥ يونية ١٩٦٧ ، ذهل واختل توازنه ، ومضى يتخبط  
بين الصالونات والمقاهي وكأن القيامة قامت ، ودار بينى وبينه حديث طويل في  
التليفون ختمه متسائلا :

— أكانت حياتنا وهما من الأوهام !؟

وقابلته بعد ذلك بأيام في بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعضا غاية الامتعاض ، وجعل يردد بتألم شديد :

— ما أكثر الشامتين ، ما أكثر الهازئين ، ما أكثر المازحين ، لم يجن أحد ، لم ينتحر أحد ، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد ، يجب أن أجن أو أن أنتحر .

ولكنه أخذ يسترد الثقة يوما بعد يوم ، وينظر إلى الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيد « تشخيص » أنفسنا ، وكلما سمع عن رغبة الأعداء في تصفية الثورة ، ازداد إيمانا بها وحماسا لها ، حتى اعتقد مخلصا أن استمرارها أهم من استرداد الأجزاء المحتلة من الوطن العربى ، إذ ما فائدة أن نسترد أرضا ونخسر أنفسنا ؟ ، ثم إن استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض طال الزمان أو قصر ، كما أنه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربى .

— إننا مطاردون ، يطاردنا التخلف ، وهو عدونا الحقيقى لإسرائيل ، وليست إسرائيل عدوا لنا إلا لأنها تهددنا بتجميد التخلف ..

وانصرفنا ذات ليلة معا من صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فجلست إلى جانبه فى سيارته نصر التى مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المطفى بالأزرق . ووجدتنى أقول له :

— عبده البسيوى حدثنى بحديث عجيب ..

فتساءل عن الحديث فقلت :

— قال إن الدكتور زهير كامل عشق أخيرا صحفية تحت التمرين تدعى نعمات

عارف ..

— وما وجه العجب فى ذلك ؟

— هو فى الستين كما تعلم وهى فى العشرين ...

فضحك وقال :

— العشق هو العشق بصرف النظر !

فقلت :

— وقال أيضا إنه سيتزوج منها ..

— يا عزيزى إن حربا تنشب فجأة فتقتل آلافا أو ملايين ، وإن زلزالا يقع فيدمر آلافا ، أما زواج زهير كامل فربما مر بسلام وربما تخلف عنه ضحية أو ضحيتان !

وسكتا مليا ، ثم قال لى .

— أعترف لك بأنى عاشق !

فتذكرت ما قالته لى درية فى آخر لقاء ولكنى تساءلت متظاهرا بالاهتمام :  
— حقا ؟

— راقصة إيطالية بالأوبرج ..

— لعلها نزوة !

— حب عاش أكثر من عشرة أعوام ..

— يا له من حب عظيم !

— أشعر أحيانا بأنه عاش أكثر مما ينبغى !

فترددت ، وصمت ، بعد أن كدت أطرح سؤالا عن الزوجة ولكنه قال  
وكأنه قرأ أفكارى .

— كما أحببت يوما زوجتى ..

وحدثنى بفتور عن حبهما ، حب طبيب الامتياز للممرضة ، كما سبق أن سمعته :

— كانت فقيرة ، وبالرغم من أننا لم نكن أغنياء إلا أن أحدا من أهلى لم يوافق

على فكرة زواجى بها ، أبدا أبدا أبدا ..

— ولكنك تزوجتها ...

— وغرقنا فى الحب كالمجانين ..

وتمرد اللسان على تحفظى فقلت :

- ثم جفت ينابيع الحب !  
فارتفع صوته — كأنما ليستمد من ارتفاع النبرة دفاعا — وهو يقول :  
— الحق أن نظرتها إلى الحب تغيرت تماما بمجرد أن صارت أما ..  
— كيف تغيرت نظرتها ؟  
— لا أدري !  
— أنت تدري بلا شك .  
— لعلها أصبحت تكن حبا أعظم من الحب العادى ولكنى افتقدت الحب  
الأول .. وإذا بى ...  
— وإذا بك ؟  
— إذا بى أزهد فيها نهائيا وبلا رجعة ..  
— يا لها من سيدة تستحق الرثاء !  
— إني أوفر لها جميع أسباب الرعاية والراحة !  
ثم بصراحة :  
— أحيانا أتمنى لو توفق إلى حب رجل آخر فتذهب معه بسلام !  
وخيل إلي أن قصة درية قد اكتملت ولكن ساورتنى — وما تزال — شكوك  
كثيرة. وشاءت الظروف أن نتعرف — أنا وصادق — إلى حرم الدكتور زهير  
كامل معا ، ودعاهما الدكتور صادق عبد الحميد إلى رحلة فى أوبرج الفيوم ولم  
يصطحب زوجته معه بحجة انشغالها بالأولاد . وبعد مرور عام قال لى الأستاذ  
جاد أبو العلا فى صالونه :  
— إني رأيتهما معا !  
فسألته عمن يعنى فقال :  
— نعمات عارف والدكتور صادق عبد الحميد فى كنج مربوط ..  
فقلت وأنا أدارى انزعاجى :  
— لعلها ..



فقاطعنى ساخرا :

وقالوا تراها يا جميل تبدلت      وغيرها الواشى فقلت لعلها  
وقلت لنفسى إن الدكتور الممتاز يحتاج إلى مزيد من الدراسة عن جانبه  
العاطفى . وظل يتحدث فى السياسة والفن ولكنه لم يشر بكلمة إلى حبه  
الجديد ، وواصل زيارته للدكتور زهير كامل ، وقام بتمثيل دور الصديق  
والمعجب كما كان يفعل من قبل ، وهو ما ساءنى منه وأثار اشمئزازى . وضاعف  
من إثارتى أنى رأيت فى نفس العام درية فى سيارة جاد أبو العلا وهو ينطلق بها فى  
طريق الهرم ، وللحال تذكرت قيلتته بالهرم التى حدثنى عنها عجلان ثابت عندما  
أخبرنى بعلاقته — جاد أبو العلا — بأمانى زوجة عبده البسيونى . ها هى درية  
تجرب حظها مرة أخرى مع رجل عابث لا يوفر الأمان لأحد . وضقت بهمومى  
الأخلاقية وتذكرت الكثيرين ممن يصفونها بازدراء بقولهم « برجوازية » ،  
وقلت لنفسى إنه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة  
الفاتنة .

## صبرى جاد

تعين بإدارة السكرتارية فى أواخر عام النكسة . كان فى الثانية والعشرين من عمره ، ومن حملة ليسانس الفلسفة ، ومن أول يوم جعلت أرمقه بحب استطلاع ، وأنتظر على لهف اليوم الذى يكاشفنى فيه بطويته فيصلنى بهذا العالم الجديد الغريب . وكان من أصل ريفى ولكنه نشأ وتربى وتعلم فى القاهرة ، فى أسرة متوسطة ، ابنا وحيدا بين ثلاث بنات توظفن وتزوجن ، ويوماسألنى :  
— حضرتك تعرف الأستاذ عباس فوزى ؟

فأجبت بترحيب :

— طبعا ، كان رئيسنا حتى أحيل إلى المعاش منذ أعوام ..

— أين يقيم الآن ؟

— فى عابدين ، أتريد أن تقابله ؟

— نعم ، أريد منه حديثا لمجلة العلم ...

— أنت صحفى بها ؟

— تحت التمرين ...

— ما رأيك أن نزوره معا ؟ ... فأنى لم أره من مدة غير قصيرة .

وذهبنا معا إلى قريلا عباس فوزى ، وهى مقامة فوق سطح عمارة يملكها فى

عابدين . ورحب بنا بلطفه المعهود ، وأجرى صبرى جاد معه حديثه الذى دار

حول مؤلفاته عن التراث . ولما انتهى استأذن فى الانصراف ولكن الأستاذ عباس

فوزى قال له :

— لن أسمع لك بالذهاب حتى تجيب عن أسئلتى ..

فتساءل الشاب عما يريد فقال :

— ثمة أسئلة تلح على بخصوص جيلكم فهل أنت على استعداد للإجابة بصراحة؟! —

فأجاب الشاب باسمًا :

— طبعًا .

— بصراحة من فضلك ، نحن غير رسميين ونحن في خلوة ، فلا تظن على بالحقيقة ...

— تحت أمرك ...

وقلت أنا :

— الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككل لا عن شخصك ..

فقال عباس فوزى :

— هذا ما أقصده تمامًا .

فقال صبرى جاد :

— تحت أمرك ...

اعتدل الأستاذ عباس فوق الكنبه التركية ثم سأله :

— ما موقفكم من الدين ؟

فأجاب صبرى جاد ببساطة :

— لا أحد يهتم به !

— لا أحد؟! —

— الأغلبية لا تهتم به !

— لم ؟

— لم يكن موضع بحث ، ربما لأنه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما

ندرسه من العلم ...

— ولكنى أعلم أن الدولة تهتم بتدريسه وتشرط النجاح فيه ؟

— ونحن نحفظه وننجح فيه .

— أتعنى أن تعليمه غير مشمر من ناحية العقيدة ؟  
— أجل .

— والبيت ؟ ... ألم تلقنه في البيت ؟ ... هل والداك مؤمنان ؟

— نعم ولكنهما لا يصليان ولا يصومان ولا يتحدثان في الدين !

— ألا يوجد بين الطلبة إخوان مسلمون ؟

— كلا .. أو عدد لا وزن له ..

— ألا يوجد تلاميذ مؤمنون ؟

— في رأيي أنهم قلة ...

ثم مستدركا :

— بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين ، البعض يقولون إن هزيمتنا ترجع

إلى إهمالنا لديننا ...

— إذن يوجد ميل للإيمان ؟ .

— نعم يوجد ..

فقال الأستاذ عباس باسم :

— إنى أطمع في مزيد من الدقة .

— أجبت بما أعرف . مستعيدا ذكريات الثانوية والجامعة .

— دعنى أساعدك ، لعلك تقصد أن تقول إن الإيمان بصفة عامة لا يلعب دورا هاما

بينكم ، ولكن الوضع قد يتغير بعد النكسة ؟

— نعم ...

— ما مدى هذا التغير المحتمل في نظرك ؟

— لا أدري ..

وتفكر الأستاذ عباس مليا وأنا أتابعه — أتابعهما — بحواس مرهفة واهتمام لا

مزيد عليه . وعاد الأستاذ يسأل :

— ما هي القيم التي تقدسونها ؟

فنظر إليه صبرى جاد فى حيرة وتمتم :

— القيم ؟

وقلت من فورى مخاطباً الأستاذ :

— أرجو أن تتجنب التجريدات ما أمكن ..

فعاد الأستاذ يسأل :

— لم تتلقون العلم فى المدارس ؟

— لعله خير من أن نتصعلك فى الشوارع !

— فقط ؟!

— ولكى نحصل على وظيفة توفر لنا الحياة السعيدة .

— وما الحياة السعيدة ؟

— هى المسكن الصحى والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذلك من مسرات

الحياة ...

فتدخلت فى الحديث بلا تدبير متسائلاً :

— ألا تحبون العلم ؟ .. ألا تسعون للتفوق فيه ؟

— كلنا نطمح إلى دراسة العلم إلا من يقعه المجموع عن ذلك .

— لماذا ؟

— الشهادات العلمية هى التى توفر الوظائف الممتازة ..

— والتفوق فى العلم والحلم بخلق إضافات فيه ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

— أعتقد أن المتفوقين يحلمون بذلك ...

فسأله الأستاذ عباس :

— ألا تقرأون الكتب فى أوقات الفراغ ؟

— نفضل السينما والإذاعة والتلفزيون وقليلون يقرأون ..

— وهل يقرأون التراث ؟

— لا أظن !

— ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب ؟

— لغته معقدة ومحصوله ضحل ، وهو مقطوع الصلة بزماننا !  
فتسللت نبرة حادة بعض الشيء إلى صوت الأستاذ وهو يسأل :  
— والوطن أما زلتم تحبونه ؟

— طبعا .

— وإسرائيل هل تودون محاربتها ؟

— نحن الذين سنحرر الوطن بدمائنا ، الوطن الذي تسببتم في هزيمته ...  
— نحن ؟

— نعم .

— ليس جيلنا الذى يحكم ..

وأشرت إلى الأستاذ عباس إشارة خفية ليتجنب الحدة فثاب إلى الهدوء وجعل  
يتسسم فى مودة ، ثم سأله :

— وماذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية ؟

فرفع صبرى منكبيه وأجاب :

— لا تهمنا الأسماء !

— الأسماء !؟

— أجل ، مللنا ذلك .. يهمننا أن نتحقق لكل فرد حريته ونجاحه  
وسعادته ...

فقلت متدخلا فى الحديث مرة أخرى :

— هذا يعنى أنك تفضل 'الاشتراكية' !

— لا أدرى !

— أنفضل النظام الرأسمالى !؟

— لا أعتقد .

- ألدك نظام جديد ؟
- كلا ... ولكننا مللنا ذلك ...
- ورجع الأستاذ عباس فوزى يسأل :
- وما موقفكم من الحب ؟ ... ألا زال للحب عندكم قيمة أم أصبح الجنس كل شيء ؟
- الجنس مسيطر ، وقليلون يحبون بل ويرغبون أن يمتد بهم الحب حتى الزواج !
- وماذا عن الأكثرية ؟
- يمارسون المغامرات الجنسية ..
- مع من ؟
- التلميذات ... الطالبات ... الفتيات !
- هل يقبلون الزواج من المغامرات ؟
- كثيرون يقبلون ... والبعض يتبع تقاليد الجيل الماضي ..
- أعتقد أن الفتيات لا يتخلين عن حلم الزواج .
- هذا هو عيبهن الأول .
- وغير مستحيل أن تتزوج أنت نفسك يوما ما .
- غير مستحيل ، وإن يكن مرتبى مضحكا ومستقبلى عدما .
- ولكن ثمة ما يشدك إلى الحياة ولا شك ؟
- غريزة حب البقاء .
- ربما لم تخل حياتك من سرور ؟
- لقمة سائغة ، فيلم جيد ، علاقة جنسية بريئة .
- بريئة ؟!
- أى ليست استهذاجا لزواج .
- أعتقد أنك خير من أيك ؟

— كان أبى وفديا يقدس سعد زغلول ومصطفى النحاس وأنا أعتبر ذلك مضحكا .

— لم ؟

— ثبت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل .

— لا أجد عندك عقيدة بديلة ؟

— كان عندى ، وتزلزل كل شىء عقب ٥ يونية ...

— ماذا تقترح لتحسين الأحوال ؟

— العالم كله عدم وهباء .

— ماذا تقترح لتحسين أحواله ؟

— القضاء على جميع المسئولين فيه !

— وماذا يحدث بعد ذلك ؟

— لا يهم ، ستحسن الأحوال وحدها ..

— لقد جئتني يا عزيزى لإجراء حديث عن التراث على حين أنك لا تؤمن

به ؟

— إني صحفى تحت التمرين !

— ولكن سلوكك لا يخلو من انتهازية ؟

— وما العيب ؟ . أى وسيلة تنفع للوصول فى هذا العالم المكتظ فهى

مشروعة !

— أشكرك جدا .

— العفو ..

وغادرتنا عمارة الأستاذ وصدرى يجيش بانفعال عاصف ..



## صفاء الكاتب

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت في العباسية القديمة . وكان يقع في الحى الشرقى بمبناه الشاىخ وحديقته المترامية ما بين محطتى ترام . وكثيرا ما سرنا بحذاء سورته ونحن فى طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه إلا رعوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة . وذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقى نحو الشارع العمومى ، فى صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك ، وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب . وبمجرد أن وقعت عيناي على وجه الفتاة عانقت سرا من أسرار الحياة المتفجرة ، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت على فيضا من بركات الحب . وقال شعراوى الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى :

— هى صفاء ابنة صاحب القصر .

وقال خليل زكى وكان يسطو على حدائق الحى الشرقى كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو :

— وهى فى العشرين من عمرها .

وعند ذلك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لحظ تغيرى :

— أما أنت ففى الخامسة عشرة !

ومن عجب أن صورتها — رغم العاطفة التى ابتعثتها — اختفت تماما وراء سحب الماضى . بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها . لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أورسمنهما ولا طول قامتها أو درجة امتلائها . ذاب ذلك فى سائل سحرى . وكنت إذا تذكرته — أو خيل إلى ذلك — فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفوى كشذا الورد الذى يبلغتك من وراء

سور وأنت ماض غارقاً في أفكارك . وكأن قلبي لم يكن يحركه شيء إلا إذا انتهى إليها بسبب خفي . ولذلك همت في أزمنة متأخرة نسبياً بقسمات وملاحم وسمات ولفترات لنجوم توهمت أنها تذكرني بما غاب عني منها . بل ما أحييت صفة في وجه إنساني إلا وكانت هي وراءه حقيقة أم وهما . وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتي العاطفية من أزومات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود . والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر . رأيته في الخطور ثوان ليس إلا ففقدت إرادتي وألقيت في طور جديد من أطوار الخلق . وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى فأدركت نخطئي وآمنت بأنني أحب لأول مرة . وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم ، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم . وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء ؛ وجعلت أحوم حول سراي الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به إنسى سوى البواب والبستاني وبعض الخدم . وسمعت مرة صوتاً ناعماً ينادي البواب فاهتز قلبي وافترضت في الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك . ورأيته للمرة الثانية في مناسبة حزينة جداً ، في نافذة بيت أثرى بشرى محمد علي احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول ، ولم أنتبه إليها إلا عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعي وجهها المشرق وهي تجفف عينيها مادة عنقها وراء النعش المبارك . خفق قلبي خفقة مباغته ولكنني لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في قلب كسير محزون ، واجتاحني عواطف متناقضة كما اجتاحني تيار الخلق المتلاطم الباكي . لم أرها بعد ذلك إلا ساعة هبطت أدراج السلامك في ثوب العرس لتستقل سيارة إلى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة . وكانت مدة ذلك التاريخ الذي مر بلا أحداث عاماً إلا قليلاً ، ولكنه كان أعجب عام في حياتي .

وانكشف أمرى لأصدقائي جميعاً ، أما المهرجون فسخروا مني وأطلقوا عليّ « مجنون صفاء » ، وأما الآخرون فحذروني من التماذي في عاطفة لا جدوى منها

ألبته . وكنا صغاراً وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى ، فقال لى سرور عبد الباقي :  
— لا تستسلم وإلا جنت كمجنون ليلى ...  
وقال لى رضا حمادة :

— إن حبك هذا يقطع بأنك أحيتها فى تاريخ سحيق مضى ، ربما فى عصر الفراعنة كما يقول ريدر هجارد .

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد ، قذف لى فى جحيم الألم ، وصهر لى ، وخلق منى معدنا جديدا توافا إلى الوجود ، ينجذب إلى كل شىء جميل وحقيقى فيه . وبقي الحب — بعد اختفاء خالقه — ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتتلا كمجنون لا علاج له . ثم استكن على مدى العمر فى أعماق كقوة خامدة — ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد . وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب ، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها ، وهل كان أصابنى مس من الجنون ، وأسفت غاية الأسف أنه لم يقدر لى أن يخوض تجربته الواقعية ، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض ، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسرارهِ على ضوء الواقع بكل خشونته وقسوته . وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة :

— صفاء ألقيت فى حياتك كمثير .. لم تكن إلا « شفرة » تشير إلى شىء ، تعين عليك أن تحل رموزها للوصول إليه .  
فقلت له :

— لقد تحللت حياتنا إلى سخریات ولكنى أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف ...

— استخفاف ١٩ . كيف يستخف إنسان بأروع سنى العمر ١٩ ؟  
ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينيات فوجدته قد هدم ورفعت أنقاضه ،

مخلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لإقامة أربع عمارات سكنية . ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء . وعبرني إحساس بالآسى . فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ هبوطها فى ثوب العرس ، التى لم أدر عنها شيئا ، حية كانت أم ميتة ، سعيدة أم شقية . وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ الستين ؟ . وأيا كان خبرها ، ورأى الآخرين فيها . ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت فى محراب كإله ، وأنها فجرت فى قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكرها ؟

## صقر المنوفى

كان طبيعياً أن يوصف عم صقر المنوفى بأنه الساعى بإدارة السكرتارية ولكن جاء وقت كاد يطلق على إدارتنا العتيدة بأنها إدارة عم صقر . وكان أقرب إلى القصر والبدانة ولكنه كان جم النشاط ، بل فاق نشاطه عادة المهام المطلوبة منه . وكان جاسوساً بالسليقة ، ولحساب نفسه ، وفى أوقات تقديم قهوة الصباح كان يتطوع بالهمس مفشياً الأسرار ، أسرار الوزارة والموظفين . ولعله كان أول من بصرنى بالأسباب الحقيقية لترقية شرارة النحال من عامل تليفون إلى سكرتير لسعادة وكيل الوزارة ، ثم انهمرت أنباؤه تباعاً عن عباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان والأنسة عبدة سليمان والرجل الطيب التعيس طنطاوى إسماعيل وغيرهم . قال لى يوما الأستاذ عباس فوزى ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس الموظفين ذوى المرتبات الثابتة فى أيام الحرب :

— لا أحد يأكل ما يشتهى إلا عم صقر !

فأبدت الدهشة فقال :

— إنه مغرم بالطعام الجيد .

فقلت له :

— الغرام شىء والقدرة شىء آخر .

فقال بسخريته المعهودة :

— كأنه قلم مباحث ، فما من فرح يقام أو مأتم إلا وعنده علم به ، وسرعان

ما تجده بين العاملين فى الفرحة أو المأتم ، يتطوع للخدمة ليشهد فى النهاية وليمة

العشاء ، كذلك تجده فى ليالى الموالد بالجوامع الكبرى ، فما من ليلة تمر إلا وهو

فى وليمة ، فأى باشا يدانيه فى هذا الحظ الغذائى منعدم النظير ؟!

من ذلك جاء تألقه الدائم بالصحة والعافية ، وغزله الرقيق باللحوم والفطائر والحلوى . أما بقية مظاهر حياته فجرت في مستواها الطبيعي البائس كساع مسكين ، يقيم في حجرة أرضية بعطفة دعبس بالحسينية هو وزوجته وأبناؤه . ولكن متى رسم خطة للإثراء ؟ . إذ من المحقق أنه رسم تلك الخطة وعمل على تنفيذها بصبر ودأب ، ربما منذ عهد التحاق بالخدمة في أواخر عام ١٩٢٤ . انطلق في ذلك السبيل بادئا من بيع قطع الحلى والنحاس ورثها عن أمه فتجمع لديه مبلغ من المال راح يستثمره في إقراض الموظفين بربح فاحش . وهو نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد الفقراء ولكنه أقدم عليه وتمادى فيه حتى النهاية . وعرف بذلك في أوساط الموظفين الفقراء وما أكثرهم فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزا لحركة مصرفية سرية وثمت نقوده وتراكت . وفى بحر ربع قرن من الزمان استطاع أن يشتري البيت الذى يسكن حجراته الأرضية بألف جنيه ، ثم هدمه فأقام موضعه عمارة صغيرة مكونة من دورين ودكانين . وكان له ابنان وبنت ، أهملهم إهمال الفقراء فعمل البكرى فراشا فى وحدة صحية بالريف وانقطع كلية عن أسرته ، واشتغل الأوسط صبي قصاب ، أما البنت فقد اختفت وهى فى سن المراهقة ، قيل إنها خطفت أو تاهت أو هربت . وما لبث ابنه الأوسط أن قتل فى مشاجرة بالمذبح . وحزن عم صقر حزنا عميقا ، واعتقد أن ما أصابه فى بنته وابنه إنما هو عقاب من الله على إثرائه بالربا فكف عن الإقراض ، وأدى فريضة الحج تائبا . والعجيب أن تحسن حاله المالية لم يغير مظهره ولا سلوكه العام فى الحياة . بقى فى وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيدا لهم من الناحية الاقتصادية . ولبث يسعى إلى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجانية ؛ وظل يتشمم الأخبار ليفشى الأسرار عند تقديم القهوة ، فإذا خلا إلى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنه القليل . وأذكر أننى كنت فى مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلى المؤذن للتعزية ، وجالسته بعض الوقت فقال لى :

— صقر المنوفى قبض عليه !

فدهشت وسألت عن السبب فقال :

— الرجل جن ولا شك ..

ثم قال :

— كان فى مسكنه وحده فجاءت بنت الكواء ببدلته فاعتدى عليها وهى

قاصر !

وغاب عن ذاكرتى زمنا طويلا حتى رأيته مقبلا على مجلسى بمقهى الفيشاوى

حوالى عام ١٩٦٠ بعد خروجه من السجن بأشهر . وكلما سألته عن حاله

أجاب باقتضاب :

— الحمد لله .

وعلمت أن زوجته توفيت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا .

— سافرت لزيارة ابنى ولكنى لم أرتح فرجعت بعد أسبوع واحد !

وجعلت أواسيه وأشجعه حتى قال :

— إنى راض بما حدث فهو جزاء حق ولكن لم لا يعامل الله سبحانه بالمثل

أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن !؟

## صبرية الحشمة

كانت تدير بدرب طياب — حوالى ١٩٣٠ — بيتا وأربع فتيات حسان . وتأصلت بينها وبين سيد شعر صداقة متينة منذ ذلك العهد البعيد . قدمنا إليها فصرنا من المقرين إلى المعلمة وتمتعنا بامتيازات غالية ، وكنا نشهد السهرات الخاصة — التى تبدأ بعد وقت التشطيب فى الدرب — داخل البيت فنسمع الغناء ونشاهد الرقص ونتمادى فى السهر حتى مطلع الفجر . وكانت فى الأربعين.. لحيمة مهيبة ، جذابة الملامح ، ذات شخصية مهيمنة تليق بالمعلمات . وكان مجرد حضورها كأنه قانون طبيعى ، يخضع له كل فى دائرته الخاصة ، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قواد أو زبون أو خادم . وأعجب بها جعفر خليل ، وعشقها شعراوى الفحم حتى اضطر سيد شعر إلى أن يقول له :

— المعلمة تدير ولا تعمل ...

فسأله :

— أتعنى أن حياتها خالية من الرجال ؟

— كلا ، المعلمة تعشق ولكنها لا تعمل بالأجرة ، ولها رفيق رومى يباع

نيذ !

ولما قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل المعلمات اللاتي استجبن للتطورات الطارئة فاستأجرت شقة كبيرة فى شارع شامبليون وخصصتها للدعارة السرية ، ووسعت دائرة نشاطها ففتحت مشربا للخمور بشارع الملكة نازلى ، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه عن جنود الإمبراطورية البريطانية . وكشفت تلك الفترة المتوترة عن مواهبها فى الإدارة حتى قال لى سيد شعر :

— خفت عليها من التوسع أن يفلت الزمام من يدها ولكنها أمهر من الجن





الأحمر !

وكان يواظب على زيارتها ويحكي لنا عن مغامراتها أول فأول ، فعرفنا كيف تاجرت في السوق السوداء فربحت أموالا طائلة من الخمر والخردة . قال سيد شعير :

— إنها أقدر من وزير بالرغم من أنها أمية ، لا يفوتها مليم من حسابات البيت والمشرّب والتجارة ، وتعرف العملاء بالاسم ، ويا ويل من يحاول خداعها ، وهي كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزعين والقوادين والفتيات ، وكل شخص يحبها ويحترمها ويعمل لها ألف حساب .

فقلت لرضا حمادة :

— ليت حكومتنا تتبع مثالها في معاملة موظفيها !

فضحك رضا حمادة وقال :

— هي عندي خير من صاحبنا المتدين زهران حسونة !

فقلت :

— بل هي عندي خير من كثيرين من الوزراء والزملاء الذين يقومون بنفس الدور مع الإنجليز ولكن على حساب الوطن ! .  
فقال جعفر خليل بأسى :

— رحم الله صديقنا خليل شعراوي الفحام فلعلها المرأة الوحيدة التي عشقها

في حياته القصيرة ..

وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة ، وأثبتت أنها أعقل من كثيرين ، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها ، فصفت أعمالها ، وأودعت في البنك ألوفها المؤلفة . وشيدت لنفسها فيلا في المعادي . ولكن صاحبها الرومي قد توفي ولم يكن لها وريث ولا أهل ، فعاشت عيشة هنية هادئة ، ثم قررت تغيير حياتها جذريا ، فأدت فريضة الحج ، وأغدقت الخير على أصدقائها القدامى ، وتبرعت كثير للجمعيات الخيرية . وسمعت — عام ١٩٥٠

وهى فى الستين — أنها تزوجت من شاب فى الثلاثين ، موظف بمصلحة المساحة فأدركت أن فترة الهدوء قد انطوت وأن فترة من القلاقل قد بدأت . ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم لم يبلغنى عنها جديد ، إذ أن زواجها أغلق بابها فى وجه سيد شعير وبالتالى انقطعت أخبارها عني ..

## طنطاوى إسماعيل

لعله الموظف الذى لم أجد فيه شيئا من « مضمون » الموظف المتعارف عليه .  
كان وقت دخولى الخدمة رئيسا للسكرتارية العامة ، درجة خامسة ، فى  
الخمسين من عمره ، وظل يشغلها حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٤٤ . ولما اطلع  
على ملف خدمتى الجديد سألتنى :

— أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل ؟

فأجبت باعتزاز :

— نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضا .

فقال بصوت ذى رنة نحاسية :

— ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذبول

المبشرين !

فقلت وأنا لا أجد حافزا للدفاع عن الرجل :

— يخيل إلى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذه إلا شبح ..

فقال بحدة :

— لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة !

وحضرته — طنطاوى إسماعيل — مرات فى مكتب المدير العام فراعنى منه

أنه لا يحنى ظهرا ولا يردد ملقا وأنه يحافظ على كرامته تماما ، ثم يغادر المكان مخلفا

وراءه أسوأ الأثر ! . ولفت نظرى أنه كان يصحح الخطابات التى تعرض عليه

للتوقيع من أخطائها اللغوية والنحوية لا المصلحية فقط . وكان يفتش على

حجرات الإدارة متفقدا النظام والعمل . فلا يتسامح مع متلكى أو مهمل أو متهم

بسوء معاملة الجمهور . وبالرغم من ذلك كله لم أعثر على موظف واحد يعترف

له بفضائله . كانت تصرفاته توصف عادة بالحماسة أو بجنون العظمة . وأذكر أنه قال لي قبيل حلول عيد الهجرة :

— أنا أول من طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسمية !  
ووعدني بالاطلاع على المقالة التي دعا بها إلى ذلك وقد فعل . وأذكر أيضا أنه رقى ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذا لقرار مجلس الوزراء الخاص بالمنسيين فهنأته بذلك ولكنه قال بصوته الجمهوري :

— لو أنصفوا لولوا المنسيين مقاليد الحكم فهم في الواقع أشرف الموظفين !  
وكان عم صقر الساعى موجودا ، وكان موضع عطف الرجل :  
فقال له :

— لعل ذلك يدعو سعادتك إلى تغيير رأيك في الوفد ؟  
فقال بصراحته .

— ليس هذا بالإنصاف المنشود ولكنه مداراة قلقه لشر مستحكم ، نوع من أنصاف الحلول ، وذلكم هو شعار الوفد الحقيقي الخفى ، الحق حق والباطل باطل ، والخير الحقيقي أن تولى من يصلح وأن تطرح في السجون الفاسدين .  
رحم الله زعماء الحزب الوطني ، عرفوا الحياة تضحية وجهادا لا سياسة ومهادنة !

واطلع يوما على أسماء كبار الموظفين الذين نالوا رتبا وأوسمة لمناسبة من المناسبات فقال :

— لولا إيماني بالله ، لولا إيماني بأن حكمته فوق العقول ، لجنت !  
وهمس عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة في أذني :

— ما زال يتصور أنه عاقل !

أجل . بالجنون كان يرمى دائما . ولذلك غض عن الكثير من تصرفاته . وقد عرفت ماضيه من عباس فوزى وعم صقر وغيرهما . عين في الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو في العشرين من عمره . وفي ظرف خمس سنوات عمل مفتشا

بالحسابات . وكان ذا خلق نقي طاهر ، يحمل الأمانة بإخلاص ، ولا يحيد عن الحق ، فأثار موجة من الرعب في قلوب الكتبة والمراجعين . كانوا يعملون من خلال نظام محكم تعاوني يقوم أساسه على الرشوة والهدية فانفجر الرجل في أوساطهم كالقنبلة فاتكا بمصادر رزقهم الحقيقية . ولو كانوا يملكون الشجاعة الكافية لاغتالوه ، ولكنهم فكروا في وسيلة تخلصهم منه . ولعبوا بإمضائه لعبة ماكرة فوجد نفسه وهو لا يدري موضع اتهام وتعذر عليه تبرئة نفسه منه . وقدم إلى مجلس تأديب فقضى بفصله من عمله .

— تصور شخصا أميناً لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولاً بتهمة خيانة الأمانة ! غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته « أنا أمين .. أنا شريف ... أنا مظلوم ... حسبى الله ونعم الوكيل » وعانى الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتى انهارت أعصابه تماماً ، وحتى اضطر عمه إلى نقله إلى مستشفى أمراض عصبية بحلول ، فقضى فيه عاماً ثم غادره بعد أن تماثل للشفاء ، ولكنه كان خسر شيئاً صميمياً لا يعوض . ومرض وكيل الحسابات فشر بدنو الأجل ، فاستدعى مدير إدارة التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التسيحيكت للإيقاع بطنطاوى إسماعيل . وأعيد التحقيق بصفة سرية ثم تقرر إعادة الرجل إلى الخدمة ، مع إلحاقه بإدارة « غير مالية » تجنباً لأى أذى قد يلحق به أو بالآخرين ! . وقد عملت معه عشر سنوات فعرفته عن كثب ، عرفت إيمانه بالله الذى لا حد له ، عرفت نقاء خلقه الناصع . كما لمست فيه وطنية تبلغ درجة التعصب الأعمى . وكان كثير الاطلاع على المراجع الدينية ، ميالاً للمحافظة لدرجة أن يعاف أى حديث من فكر أو سلوك فيعده انحرافاً وسقوطاً . جمعنى وإياه ركن بجامع الحسين فى الليلة السنوية التى كان يحياها الشيخ على محمود ، وكان يسأل من حوله :

— ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضة قديمة ؟

وراح يحبل على الجبن والتملق وفساد الذم والانحلال فيقول :

— نحن في حاجة إلى طوفان جديد لتمضى السفينة بقلعة الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد !

طلما تشوقت إلى معرفة المزيد عنه ، حياته الخاصة . نشأته الأولى ، علاقاته بزوجه وأبنائه ، تصرفه حيال سائر مغريات الحياة ، ثم قنعت بما تيسر لي معرفته ، فهو إنسان يتحلى بالنقاء لكنه يعيش في مستنقع مكتظ بالجراثيم . غير أن عنفه في الحق يدفعه أحيانا إلى حافة اللاإنسانية وهو لا يدري ، فصراحته كثيرا ما تتسم بالإيذاء في غير ما ضرورة . مما جر عليه شعورا عاما بالنفور بل والكراهية ، وكان عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة يشير إليه بقوله « ابن المجنونة » ، كما كان الأستاذ عباس فوزى يقول عنه متهكما :

— سيدنا طنطاوى بن الخطاب رضى الله عنه !

ورغم ذلك كله فلم يستطع أن يصد موجة « العصر » عن أن تغزو عرينه ، فذات يوم — وأنا موظف جديد — رأيت فتاة مليحة جذابة تجلس إلى جانب مكتبه قدمنى إليها ثم قدمها إلى قائلا :

— ثريا رأفت كريمة شقيقى ..

ثم قال باحتجاج باسم :

— طالبة بالمعهد العالى للتربية !

ثم وهو يهز رأسه :

— العلم نور ، ولكنى لا أوافق على المرأة العاملة ، ومن ذلك فلا سلطان لى

على بيت أخى الأكبر إلا النصيحة ...

ولعل آخر موقف انطبع فى نفسى من طنطاوى إسماعيل كان غداة يوم ٤ فبراير

١٩٤٢ ، قال لى قبل أن يجلس إلى مكتبه :

— ما رأيك ؟ ... ها هو زعيمك يرجع إلى الوزارة فوق الدبابات

البريطانية ...

— ١٧٨ —

و كنت أ تجنب مناقشته وبخاصة وهو ثائر ، وجعل يتساءل وعيناه تبرقان :  
— أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل ؟!  
ثم اجتاحتها موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس :  
— الطوفان ... الطوفان ... الطوفان ..



## طه عنان

ظهر في حياتنا ونحن في السنة الرابعة الثانوية ، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأسسوط ثم نقل إلى القاهرة مأموراً لقسم الوايل متخذاً من العباسية مقاما لأسرته . وتعرف طه عنان بأصدقائى جعفر خليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقي من زملاء المدرسة الثانوية ، ولكن علاقته توثقت بى ورضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا فى العقيدة الوفدية والميول الثقافية . وقد اشترك فى الإضراب الذى استشهد فيه زميلنا بدر الزياى ، ومما يذكر أن أباه كان ضمن القوة التى حاصرت المدرسة ثم اقتحمتها بعد ذلك بالقوة والعنف . وناقشنا موقف والده ، وكان خجلاً منه ومتألماً وجعل يدافع عنه فيقول :

— أبى وطنى ، مثلنا تماماً ، ويؤمن بمصطفى النحاس كما آمن بسعد زغلول ، ولكنه يؤدى واجبه !

فقال رضا حمادة :

— سمعنا عن ضباط مثله انضموا إلى الثوار فى سنة ١٩١٩ .

فقال طه عنان مدافعاً عن أبيه ما وسعه الدفاع :

— كانت أيام ثورة ولا ثورة الآن ...

وكان يغلب على طبعه الجد فتفر من مزاح جعفر خليل . وكنا نقرأ معا بعض كتب التراث وكثيراً من مؤلفات كتاب العصر من قادة الفكر الجديد ، كما كنا نناقش كل شىء بحرية وحماس . ونتطلع إلى مستقبل فكرى واحد . وكان يؤمن بالكتب ويرجع إليها فى كل ما يهيمه من شئون الحياة . ولما اطلع على قصة حبى لصفاء الكاتب دهش وقال :

— ولكن حالك غير طبيعية ..

فقلت باستياء :

— ولكنها واقع ..

— أنا أحب أيضا ابنة عمى ونفكر فى إعلان خطوبتنا !  
واتباعا لأسلوبه فى الرجوع إلى الكتب مضى بى إلى دار الكتب ورحنا نقرأ  
معا عن كلمة « حب » فى دائرة المعارف البريطانية ، ثم قال :  
— هذا هو الحب من جميع نواحيه الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية ، ومنه  
ترى أن ما بك ليس حبا ولكنه جنون ..

فتمتمت بخنق :

— جنون ...

فابتسم قائلا :

— لا تغضب ، ربما احتجنا لقراءات أخرى !  
ولكننا لم نواصل القراءة عن الحب ، وقرأنا كثيراً — وخاصة فى العطلة  
الصيفية — عن حقائق جديدة ومتنوعة ، وكل شيء كان جديدا . وتعرضنا  
لأزمات نفسية وعقلية وحشية . وتزلزل قلبانا زلزالا .  
واقترح على اقتراحا عجيبا ونحن جالسان فى مقهى الفيشاوى قال :  
— علينا أن نبدأ من العدم !  
— من العدم ؟

فقال بثقة لا تتفق مع انهارنا :

— لا سبيل إلى مواجهة هذا العذاب إلا بأن نبدأ من الصفر ..  
ورمقته بنظره متسائلة بالرغم من أننى أدركت ما يعنيه فقال :  
— من الصفر، ثم نستعيد قصة الحضارة من جديد معتمدين على نور العقل وحده .  
فسأله :

— وإن صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم ؟

فقال بحماس :

— لنبدأ بالعقل باعتباره الإنسان ولننظر أين يذهب بنا .

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأولين من حياتنا الجامعية . واعترضتنا أحداث لم تخطر لنا على بال ، فقد ألغى إسماعيل صدقي دستور ١٩٢٣ وهب الوفد لمحاربته بكل قواه الشعبية .

وكان ثمة يوم رهيب بلغ التوتر فيه مداه . احتلت مفارق الطرق بقوات الشرطة والجيش . ولم يتمكن الشعب من التجمع الذى يصلح أساسا لمظاهرة ضخمة ، فعمد الناس من جميع الطبقات إلى التجمد فى الحواري والأزقة والشوارع الجانبية ، ومنها يندفعون بقوة هاتفين ملقين بالطوب فى جميع الجهات ثم يتفرقون بسرعة ليعيدوا الكرة والرصاص يطاردهم . اشتركنا فى مظاهرات ذلك اليوم أنا وطه عنان ورضا حمادة . اشتركنا من أول اليوم فى التجمعات المتفرقة والانقضاضات المباغتة والتفرقات السريعة على أنغام الرصاص المتطاير . وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود وهم ينقضون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير إنسانى ويلقون بهم فى اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم الأرض بالرمل والأتربة . وقبيل المغرب خفت حدة القتال . وندر ظهور التجمعات ، ولكن لم يخل الجو من هتافات متقطعة متباعدة ومن طلقات نارية قليلة ولكن مستمرة . وقررنا العودة إلى بيوتنا فسرنا معا مخترقين شارع حسن الأكبر . سرنا متشابكى الأذرع من شدة الإعياء ونحن نتصبب عرقا ، وقال طه عنان وهو يتوسطنا :

— منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب ولا مبالاة ..

فقال رضا حمادة :

— إنه سفاح متعطش للدماء !

فقال طه :

— على أى حال فإيجابية الشعب خير من المناقشات الباردة التى نسمعها فى

صالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم ...

وثقل بين أيدينا حتى سألته :

— هل غلبك التعب ؟

ولكنه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا فاه ينفث دما غزيرا . صاح

حمادة :

— أصيب برصاصة ..

لم تكن الطلقات قد سكنت . ورأينا لافئة طيب أسنان فحملناه إليها ونحن نرتعش من الاضطراب . وكانت العيادة خالية ولكن التمرجى أنامه على كنية وهرع إلى التليفون لطلب الإسعاف .

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل رجال الإسعاف .

## عباس فوزى

جمعت بيننا مودة صميمة منذ أول يوم دخلت فيه الخدمة . وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بإدارة السكرتارية العامة ، أنا وعباس فوزى وكيل السكرتارية وعبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة . ولما قدمه رئيسنا طنطاوى إسماعيل قائلا :

— الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية .

نظرت إليه باهتمام وسألته :

— حضرتك الكاتب المعروف ؟

فأجاب بالإيجاب فشددت على يده بحماس ، والموظفون يرمقونا بفتور وقرف . وقلت له :

— طالما انتفعنا بكتبك عن التراث .

فقال :

— ولكن الجامعة لا تعترف إلا بالشهادات ..

— ولكن ثمة درجة من العلم تتخطى أى شهادة !

فقال بحنق :

— أستاذك إبراهيم عقل لا يؤمن بذلك ..

على أى حال اعتبرته جوهرة فى عالمى الجديد ، زاملته فى العمل ، والتقيت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم وسالم جبر ثم فى صالون جاد أبو العلا فى زمان متأخر . وعجبت كيف أنه فى الدرجة السادسة فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر ، ثم تبين لى أن زملاءه يعتبرونه مغتصبا للدرجة باسم الخزعبلات التى يؤلفها . والموظف القح لا يحترم عادة إلا الموظف

« الحقيقى » الخبير بالإدارة واللوائح ، أما تأليف الكتب فيعد عندهم نوعا من العريضة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال . ويحكون حكاية وثبته إلى الدرجة السادسة فيقولون إنه كان كاتباً بالأرشفة كما ينبغي له . فحتى الابتدائية لم يحصل عليها ، ولكنه دأب — كلما تولى الوزارة وزير جديد — أن يحمل إليه مجموعة من مؤلفاته مصحوبة بإهداء شعرى ، وكان الوزراء يتقبلون الهدية شاكرين ومن ثم يرجع إلى الأرشفة ويسدل الستار على الدراما المتكررة ، حتى تولى الوزارة رجل يحب الأدب فأعجب به ورقاه إلى الدرجة السابعة ، ثم — بعد عامين إلى السادسة مع نقله وكيلا للسكرتارية ، هكذا فرض الرجل عليهم . وكان الأستاذ عباس فوزى على علم بما يقال ، وكان ييادلهم احتقارا باحتقار ، وكثيرا ما قامت بينه وبينهم معارك كلامية حتى يفصل بينهم أهل الخير .

وكان يعتبر الموظف حشرة من الحشرات السامة ، وكان يعرف الإنسان فيقول « الإنسان موظف ناطق ! » .

غير أن رجلا فاضلا مثل طنطاوى إسماعيل قال لى مرة :

— احذر ذلك الرجل ، إنه ذو علم ولكنه بلا خلق .

المسألة أنه كان مثقلا بالعيال والفقر وكان يكافح بكل سبيل لإسعاد نفسه وأسرته . ولم أعرف رجلا مثله ينضح بالمرارة ، وكان يترجم مرارته إلى سخريات لاذعة لا ترحم كبيرا ولا صغيرا ، موظفا أو مفكرا أو أدبيا . سخر من أخلاق الموظفين رغم تشبعه بها حتى قمة رأسه ، ويهون من شأن الناجحين والمفكرين رغم قصوره عن بلوغ ما حققوه حتى فى ميدانه ، ويحتفظ دائما بمدخر لا ينفد من المعلومات التى تشكك فى مواهبهم أو تترى بسلوكهم الشخصى . أما قيمته الحقيقية فكانت مركزة فى تراث اللغة ، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يحفظه كله شعرا ونثرا عن ظهر قلب . قال لى يوما :

— شد ما يبهركم الأدب الغربى حتى تظنون أنه كل شيء ، أما أدبكم العربى فلا

تعرفون منه شيئا ، إني أتحداك ، اذكر لى ما شئت من مختار أشعارك الغربية

وسأعطيك ما يقابلها من تراثنا .

وجعلت أردد له ما حضرني من معاني الشعر والنثر فكان يعطيني المقابل العربي بما يقارب الإعجاز . وكان يلاحقنا — إذا تكلمنا — بتصحيح نطق الكلمات ، وكان يقول .

— لا يجوز أن تطبع كلماتنا بدون تشكيل ...

وأذكر أنه مرض يوما بالكلية فذهبت مصطحبا الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لنعوده ، فوجدناه راقدا ملفوفا ببطانية لا يبدو منها إلا رأسه . فجلسنا قرب فراشه وسألته :

— كيف حال الكلبي يا أستاذ .

ونطقها مكسورة الكاف كالمألوف فما كان منه إلا أن صحح النطق قائلا بصوت لا يكاد يسمع من الضعف :

— الكلبي .

زافعا الكاف . وعدنا والمترجم يقول لي :

— إذا مات هذا الرجل فسوف يصحح النطق للملاك الذي سيحاسبه !

وتركز اهتمامه في تراث العربية فلم نعرف له هواية أخرى ، فهو لا يتذوق أى فن آخر حتى الغناء ، ولا يكاد يعرف شيئا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عام ، ولا يهتم بالسياسة ، ولا يفرق بين حزب وآخر ، ولا يحترم إلا الوزير القائم بالوزارة ، ولا يؤمن بقيمة من القيم ولا دين من الأديان ، ولم يحب بإخلاص إلا نفسه وأسرته واللغة العربية . وكان مكتبه بالوزارة ملتقى لكثيرين من الشعراء والكتاب والصحفيين والزجالين من مختلف الأجيال ، ولعل كثيرين منهم كانوا يستعينون به في مراجعة نصوصهم من الناحية اللغوية والنحوية نظير مبالغ بسيطة . وكان دائما يحسن الترحيب بهم فيغدق عليهم ألحان المديح حتى إذا ذهبوا انهار عليهم بالحجارة !

— رأيتم ذلك الرجل ؟ ... إنه لا يتملق وهو في المدينة !

— مسكين ذلك الزجال ... طلق زوجته لوقوعه في غرام ابن لها من زوج آخر !

— أما هذا فلعله الشاعر المعاصر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان !

— هذا الكاتب ذو قلب كبير حقا ... لقد أحب جميع الأحزاب ، ولا يحلو له حب حزب إلا وهو فى الحكم !

وزاره مرة إنجليزى عجوز ، لبث فى مصر بعد إحالته على المعاش ، وكان يتقن العربية إتقانه للإنجليزية ، ولما ذهب الرجل قال :

— إني معجب بالأخلاق الإنجليزية ، فتمة فرق هائل بين لوطى إنجليزى ولوطى مصرى ، اللوطى الإنجليزى يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض فلا يمنعه ذلك من خدمة الإمبراطورية حتى الموت ، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة ! .

وكما لم يرحم أحدا فلم يرحمه أحد . كان يزعم أن والده كان مهندسا فقالوا إنه كان ترايبا ، وأن أمه كانت غسالة ، ورموه كذلك بالشنود الجنسى . لم يرحم أحدا إلا الوزير الذى عطف عليه أو الذى — على حد تعبيره — اكتشفه ، فكان يقول عنه :

— كان رجلا أديبا وشهما ومنصفا رغم أنه كان وزيرا !  
ولكنه كان يكبح جماح عدوانه إزاء أصحاب النفوذ ، من هم فى الوزارة ومن هم خارجها ، فلا يتدخل فى مناقشة حزبية ، أو يتعرض بكلمة لرجل من رجال السراى ولو كان طاهيا ، وفى أثناء الحرب تظاهر بأنه من أنصار الحلفاء . فلما كانت موقعة دنكرك وظن كثيرون أن الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان سمعته يترنم بقول بشار :

بعثنا لهم موت الفجاءة إننا  
بنو الموت خفاق علينا سبائبه



فراحوا فريق في الإِسار ومثله

قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ولما دارت الدائرة على الألمان في موقعة العلمين استشهدت بدورى بشعر  
بشار فأدرك مكري ومن فوره قال :

— لا رحم الله بشارا ، كان نازيا لوطيا !

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتهموا الوفد  
بالخيانة ، أما الوفدون فقد فرحوا وطربوا وراح عم صقر الساعى يرقص في  
الإدارة ، فخاف عباس فوزى أن يفسر صمته بأنه موقف غير ودى من الوفد ،  
فانتهر فرصة غضب طنطاوى إسماعيل وهتافه « الطوفان ... الطوفان ...  
الطوفان ... » وقال برزانة :

— قولوا فيما حدث ليلة أمس ما شئتم ولكن من الإنصاف أن نعترف

لمصطفى النحاس بأنه أنقذ الوطن في هذه المرحلة الحرجة من حياة الوطن !  
ومن حسن حظه أن كان الوزير الوفدى مغرما بالأدب فرقاه إلى الدرجة  
الخامسة وعينه رئيسا للسكرتارية عقب إحالة طنطاوى إسماعيل إلى المعاش . على  
أن كتبه لم تلق من الرواج ما كان يطمح إليه لمناقشة الأساتذة الجامعيين له في ميدانه  
وتفوقهم عليه بمنهجهم العلمى الحديث . وزاد من شجاءه أن أحد تلاميذه استغل  
معرفته بالتراث في تأليف كتب دينية عن النبى والقرآن فربح من ذلك أموالا  
خيالية فكاد الرجل أن يجن . وراح يقول :

— على أيامنا كان الإلحاد هو الموضة فولينا وجهة أخرى !

ثم هز رأسه فى أسى وتساءل :

— كيف فاتنى ذلك الباب الذهبى ؟!

ثم سألتى حانقا :

— أتعلم ما هى الثروة الحقيقية فى بلاد العرب ؟

ثم أجاب :

— ليست البترول ولكنها السيرة النبوية والقرآن .

فقال له الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم :

— ما رأيك في أن نترجم معا بعض الكتب الغربية التي أنصفت الرسول ؟  
فرحب بالفكرة ، ونفذاها ، بالرغم من إلحادهما الكامل . فدرت عليهما ربما  
يعتبر أول ربح ذى وزن ربحه في حياته . وانطلق بعد ذلك يكتب سير الأنبياء ،  
فتحسنت أحواله ، وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذى أعقب الحرب ، حتى قال  
لى يوما :

— ليت الله أرسل أضعاف أضعاف من أرسل من الأنبياء والرسل .

ومضى أبناءه يتخرجون فى الجامعة ويتوظفون . فقرر فى عام ١٩٥٠ القيام  
بأول إجازة صيفية فى حياته . أجل ، لم يكن يطلب إجازة أبدا ، ولبث يعمل  
عاما بعد عام بصفة متواصلة حتى سأله :

— لم لا تقوم فى إجازة لتنعم بقدر من الراحة ؟

فضحك وقال :

— يالك من طيب القلب ، أنت لا تدري شيئا عن يطمعون فى وظيفتى ،  
إنهم يلقوننى بالأحضان على حين يوارون خناجرهم وراء ظهورهم ، فإذا غبت  
شهرًا سعوا سعيهم ودرسوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة ، إننا نعيش فى غابة  
من الوحوش ولكنهم أحط من الوحوش وأقدر ...

ولم أفهم منطقته وعجبت له . على أى حال وثق عام ١٩٥٠ بنفسه واطمأن  
إلى دخله من كتبه فقرر أن يير نفسه بإجازة ، بل سافر بحرمه وكريمته إلى  
الإسكندرية . كان يرى الإسكندرية لأول مرة فى حياته ، ولكنه وجد نفسه  
كالتائه الشريد إذ لم يتعود أبدا معاملة الفراغ . كان يومه مستغرقا دائما بالعمل  
فى الوزارة ، فى البيت ، فى صالونات الأدب ، ولكنه لم يعرف مقهى أو سینما أو  
مسرحا فضلا عن الإسكندرية . لذلك ضاق بالمصيف ، وفزعت حرمه من  
الزحام ، فقررا العودة بعد أسبوع واحد ، بالرغم من توسلات ابنتهما الحارة .

ولما قامت ثورة يوليو لم تكد تؤثر فيه شيئاً . فلا حزن على العالم المولى ولا سر  
للعالم الصاعد ، وضاعف نشاطه في التأليف الدينى حتى حاز ثروة كبيرة بكل  
معنى الكلمة . وأحيل إلى المعاش عام ١٩٥٩ ففرغ لعمله أكثر ، وشيد عمارة  
في عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيلا ، ولكنه ما زال حتى اليوم متمردا  
ساخرا ، وكلما زرته أتخفنى بالجديد من سخرياته وشكائياته . قال :

— تصور أننى لم أنتخب حتى الآن فى المجمع اللغوى ! .. كأن أعضاء  
الخواجهات أفقه فى اللغة منى ! ، والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عباس فوزى  
ضمن أعضائه ! .. هل حتم ألا يدخله إلا العوام ؟!

ولما لاحظ همى وغمى فى الأيام التى أعقبت هزيمة يونية قال باسم :

— شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد !

ثم تساءل بسخرية :

— هل ثمة فارق حقا بين أن يحكمك الإنجليز أو اليهود أو المصريون ؟!

## عدلى المؤذن

عندما التحقت بالجامعة كان موظفا بها . وكنت ألتقى به كثيراً فى مكتبة الجامعة . كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوريه فى الفلسفة تحصيلاً لبعض فوائد رآها ضرورية فى تحضير رسالة الماجستير . وكنا ندعوه « الكاتب المصرى » للشبه العجيب الذى بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب ، غير أنه كان طويلاً عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرك فيه حركة متحدية براءة عينا صقر يشعان ذكاء ودهاء ، التقينا مرة فى حديقة الأورمان ونحن سائران إلى الكلية فتصافحنا وأخذنا فى الحديث . قال :

— سأقدم رسالة الماجستير فى أكتوبر القادم ولكنى أفكر منذ الآن فى الخطوة التالية ...  
فسأله :

— الدكتوراه ؟

— كلا ، هل لك فكرة عما يمكن أن يروج من الكتب الفلسفية ؟

— لا أعتقد أن الكتب الفلسفية توضع للرواج ..

— ولكن إذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا الفكر الحر فى الفلسفة

والتصوف ألا نسهم بذلك فى الدفاع عن الحرية المغتالة فى هذا العهد ؟

فقلت بحماس :

— فكرة بديعة ..

— وناجحة ، أليس كذلك ؟

— بكل تأكيد ...

ولكنه حصل على الماجستير ولم ينفذ فكرته ، ولم ينشر من الكتب إلا

تحقيقا لتهافت الفلاسفة وتحقيقا آخر لتهافت التهافت . وكان زميلي في الكلية عجلان ثابت هو الذى أطلعنى على جانب من ماضيه المجهول ، قال :  
— إنه يسكن معنا فى حى السيدة ، وكان أبوه سائق ترام ، وهو يعيش اليوم مع أمه وشقيقته ..  
فقلت :

— إن مظهره المهيّب الرزين يقطع بأنه من سلالة حكام !  
فضحك عجلان ثابت وقال :

— توظف بالابتدائية ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغه من العلم ...  
ثم همس :

— ويبدو أن شقيقته بنت لعوب عفرية ولذلك فاتها سن الزواج ولم تتزوج !  
ولم يكن يخلو من جانب مزاح ففى أحد احتفالات آخر السنة بالكلية تطوع لتقليد بعض الأساتذة ، ونجح فى تقليد الدكتور إبراهيم عقل نجاحا مشيرا ، فما كاد يتكلم عن المثل العليا حتى دوت القاعة بالتصفيق الشديد . ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة ، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى إدارته على عدلى المؤذن ، وهو الذى قدمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحا لطموحه مجالا جديدا أحفل بالفرص من إدارة الجامعة . هكذا وفد إلى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير ، وزارته مهتئا ومستبشرا بقدومه خيرا ، ولكنى وجدت فيه شخصا جديدا ، شخصا إداريا خطيرا مقطوع الصلة تقريبا بالرجل الذى كان يتلمس طريقه بمشقة بين مسالك الفلسفة ... وتجلت مواهبه الكامنة فى خدمة الوزير والوزارة ، وكان — والحق يقال — حاد الذكاء ذا مقدرة إدارية فذة ، وكان بارد الأعصاب للدرجة لا تصدق ولم تعهد عادة بين المصريين ، ومنذ أول يوم شعر شرارة النحال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب . وخيل إلى الأستاذ عباس فوزى أنه طرأ على الوزارة موظف خطير مثقف لأول مرة ، وأنه يحسن به

أن يهدى إليه مؤلفاته ، وفعل ، وقال له وهو يهديها إليه وبحضوري إذ كنت أنا الذى قمت بالتعارف بينهما :

— ليس من عادتي أن أهدي كتبى إلى أحد ، ولكن الكتب لا تؤلف إلا لتهدى إلى أمثالك !

فقال عدلى المؤذن بروده النادر :

— أعترف لك بأنى اطلعت عليها ...

فشاع الفرح فى وجه عباس فواصل الآخر قائلا :

— وأعترف لك بأنى وجدتها سطحية لم تكد تضيف إلى الأصل إلا قليلا ...

فاصفر وجه عباس فوزى غير أنه قال متظاهرا بالمرح :

— لا تحكم بعقلك يا أستاذ ، نحن نكتب للبسطاء لنعلمهم ، أما الفلاسفة فلا

سبيل لنا إليهم ..

وعدنا إلى الإدارة والرجل يقول لى فى الممشى :

— لا تخبر بما سمعت أحدا من الرعاع ...

فقلت له برثاء خفى :

— طبعاً ..

فقال مستردا طبعه الساخر :

— بدأت الفلسفة بآبن رشد وانتهت بآبن كلب !

وفى مدة وجيزة أحاط عدلى المؤذن بشئون الوزارة والموظفين . وكان يشغل

وظيفة رئيس المكتب الاستشارى . فاتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة .

وأثبت فى العمل طاقة خارقة . واستحق بعمله الثقة كل الثقة دون انزلاق إلى

سراديب الحزبية ، مع الاحتفاظ لشخصيته بالاحترام ، ومع عدم الحيد إلى ما

يمس الكرامة إلا عند الضرورة القصوى فرفع الوصولية إلى أرفع مراتبها . وكان

فى أعماقه ميالا للوفد وقيمة الشعبية والديموقراطية والاستقلالية ، ولكنه كتبها فى

الأعماق ، وتغلب عليها بقوة أعصابه الباردة . ولم يعرف عنه أنه صنع خيرا فى حياته ،

ولم يتورع عن إيذاء شخص طالما وسعه ذلك ، وكان بلا شك يجد سعادة خاصة في الشر والتحدى والإيقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء ، ولم يكن يهمه أن يكون محبوبا ، وخيل إلى كثيرا أنه يعمل بشغف على أن يكون موضع النعمة والبغض والحسد . وهو يختلف في ذلك عن شرارة النحال الذي أثر بعض الأذئاب بالعطف ، والذي حرص دائما على معسول الكلام حتى وإن دس فيه السم ، والذي سعى إلى نيل الثقة ولو بالكذب والنفاق . لذلك كره الموظفون عدلى كإبليس ، وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته ، ومنهم من فسر عزوبيته بشذوذ جنسى يخفيه بصرامته وعنجهيته ، ولذلك فإن الموظف الوحيد الذي ساعده كان شابا جميلا منحلا . وطالما ساءلت نفسي حائرا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تتابع الوزراء والأحزاب عليه ؟ . وبالبحث والتحري ، ولمعرفتي الوثيقة به ، علمت أنه كان يسطر حمايته — وقت إقبال الدنيا عليه — على عدد محدود من موظفي الأحزاب المختلفة ، حتى إذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم رد الجميل فزكاه عند وزيره ، بذلك احتفظ بمكانته في جميع العهود معللا فوزه بكفاءته الشخصية وحدها ، وظل يترقى من درجة إلى درجة حتى عين مديرا عاما قبل ثورة يوليو . ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلمية لم يتورع عن التضحية بي في أول فرصة سنحت . كان ذلك عندما رشحتني لجنة شؤون الموظفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بيني وبين منافسي الذي كان كاتبًا بالسجلات . ورفعت اللجنة قرارها فوقه الوزير وغادرت الوزارة مترقيا متلقيا التهاني . ولما رجعت إلى الوزارة صباحا فوجئت بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلا مني . كدت أفقد عقلي ، وبالبحث علمت أن موظفا كبيرا بديوان جلالة الملك اتصل مساء أمس بالأستاذ عدلى المؤذن موصيا بمنافسي فما كان منه إلا أن سارع إلى مقابلة الوزير — والعهد كان ملكيا — وأخبره بالتوصية ، وفي الحال تمزق قرار ترقيتي وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة . وذهبت إلى عدلى المؤذن منفعلا وناقشته فيما سمعت من أنباء ولكنه ظل طيلة الوقت صامتا باردا ( المريا )

حتى تعبت وبخت ، ثم قال لى بهدوء :

— أعدوا بيان الميزانية الجديدة للنشر فى الصحف !

وعرفت أمورا أكثر من وكيل المستخدمين الذى كان لى صديقا كما كان له  
عدوا ، قال لى :

— ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون ، فالقرار الوزارى لا يجوز تغييره إلا  
بقرار وزارى مثله ، وقد اطلعت بنفسى على قرار ترقيةك فمتى صدر قرار آخر  
بالغاء الترقية ؟  
فسأله :

— ألا تستطيع أن تثير المسألة رسميا ؟  
فقال ضاحكا :

— هيات أن يستطيع ذلك إلا السفير البريطانى نفسه !  
فسأله بدهشة :

— ولكن ما علاقة الموظف الآخر وهو على قد حاله مثلى تماما برجل السراى  
الخطير ؟  
فقال ضاحكا :

— صل وسلم على سيدنا لوط !

ومنذ ذلك الموقف فترت علاقتى به حتى كادت تقتصر على العمل الرسمى .  
قبل ذلك كنا نلتقى صباحا فى ميدان سليمان باشا ، نسير كزملاء رغم فارق  
الدرجة ، فتناول فطورنا فى الأميركين ، ثم نمضى فى طريق الوزارة معلقين على  
الأحداث والمارة والأشياء . ويبدو فى تلك الفترة لطيفا ودودا ضاحكا محبا  
للمزاح حتى ليقص على آخر ما سمع من النكات السياسية عن الملك وحاشيته  
وأسرته ، أو يدعونى إلى زيارته فى مسكنه الجديد بالمعادى الذى انتقل إليه بعد  
صعوده السريع ، ثم قد يستدعيني إلى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة فيطالعنى بوجه  
جديد ، وجه صارم بارد مجرد ، يأمر ويكلف وينذر بلا رحمة ولا ذوق ! .



وأغادره وأنا أضرب كفا على كف ، ومرة فضفضت نفسي فبحث بما يكرهني  
للأستاذ عباس فوزى فقال لى :

— عنده انقسام شخصية ابن القديمة ، نحن موعودون فى هذه الوزارة بكافة  
أنواع الشذوذ .

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيأت له فرصة للتخلص من شرارة النحال أكبر  
منافس له على وكالة الوزارة . وأشهد أنه كان وراء بعض العرائض التى قدم بها  
شرارة إلى لجنة التطهير ، ولكن الرجل نجح بأعجوبة ورقى وكيلا للوزارة فتلقى  
عدلى المؤذن أكبر ضربة وجهت إليه فى حياته . وسرعان ما وجد نفسه غريبا بين  
موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا . اختفى أغلب معاونيه فى التطهير  
واستقبل حياة جديدة بكل معنى الكلمة . ورجع بخطب ودى كما كان يفعل فى  
حديقة الأورمان ، ورجعنا تتلاقى فى ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخرا :  
— لقد سقطت الوزارة فى أيدي جماعة من الغلمان !

أو يقول :

— ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الإدارية ؟ . ممكن أن تفعل الآن أى  
شئ كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة !

وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة من العدالة تجتاح العفونة المتصلة بلا  
هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد ولا اعوجاج وفى نقاء وطهر إلى الأبد .  
وحاول الرجل التسلل إلى القيادات الجديدة ولكنه لم يفلح . وما لبث أن أصيب  
بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ . ولا أنسى  
ساعة انتشار خبر وفاته فى الوزارة ، فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية ،  
وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامته :

— الله يجحمه !

— فى ألف داهية !

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها ، شيعها عشرة أنفار ، قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة . وحضرها رجل ذو شأن هو الدكتور إبراهيم عقل في عهد دروشته التي أدركته بعد وفاة ابنه وقيل وفاته . وعقب وفاة عدلى المؤذن يوم واحد انتحرت شقيقته العانس .

## عبد الرحمن شعبان

شخصية لا تنسى . عندما جلست إلى مكتبى لأول مرة فى إدارة السكرتارية لفت نظرى بشدة كهربية . عملاق فى طول العقاد وضخامة زيور باشا ، أنيق الملبس فخم المنظر ، تخاله وزيراً رجعياً أو مدير بنك .

— حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة .

ليس هذا فحسب ولكنى عرفت أيضاً مع الأيام أن مرتبه عشرون جنيهاً لا غير ! . بدا إلى أول يوم منظورياً متجهماً كحصن فقدت المتاعب فى زمائه التى فرضتها الأقدار على ، ولكنه كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة ، وسرعان ما تنفجر قهقهاته كالقنابل ويحتقن وجهه المستدير الريان بالدم ويتجلى فى براءة الأطفال . وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالمنطق العزير ، فهو يحب الموضوعات التى تطرق مدخراته من المعارف بقدر ما يضيق بالموضوعات التى يجهلها فتضطره إلى التزام السمع وهو أبغض الأشياء إلى نفسه . يحب الكلام لحد العبادة ، ولديه معلومات لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها للسيارات والأثاث والزيوت والأمراض والساسة والأفلام والبلاد والنكت والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف والدعارة . طفل كبير فى الخامسة والثلاثين ، خفيف الروح ، دعاباته أزهار منورة ، ونوادره وشى منمنم ، أما غضبه فآه لو انفجر غضبه ، وما أسهل أن يثور غضبه . لشيء ولغير ما شيء ينفجر غضبه ، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتنطلق الأعاصير ، فإذا لم يقابل بتحد هداً وسكن وتراخى وتراجع فاعتذر وقدم السيجارة أو أمر بالقهوة . تناقش مرة مع أحد الموظفين فعانده الرجل حتى أثاره ، وأراد أن يفحمه فاستشهد بنادرة من التاريخ الإسلامى — وعبد الرحمن يجهل التراث جهلاً تاماً — فقال :

— دخل بدوى على عبد الملك بن مروان فقال ..  
ولكن عبد الرحمن شعبان انتر قائما كعمود السوارى وصاح وهو ينتفض  
غضبا :

— عبد الملك بن مروان ! ، من هو عبد الملك بن مروان ؟! .. تستشهد لى  
بحيوان يا حيوان ، ملعون أبوك أنت وعبد الملك ابن مروان ...  
وهجم عليه كالوحش ففر الرجل من الإدارة كالنحلة . ولكنه لم يقدم فيه  
شكوى ، حتى طنطاوى إسماعيل رئيس السكرتارية كان يتجاهل ذلك التمرد  
الصارخ على أصول الوظيفة ، وكان يقول :

— إنه أحمق ولكنه أنظف معدن فى هذه الوزارة .  
وأدركت أن معاندته غير مأمونة ، وأن الخوض معه فى موضوع تعرفه ويجهله  
مغامرة جنونية . ولعل عباس فوزى كان أول من عرف كيف يداريه بمكره  
ولباقة ، ومع أن عبد الرحمن كان يحتقره فى باطنه إلا أنه عاملة باحترام ومودة .  
وكان أبوه وزيرا للحربية ، أرسله إلى فرنسا — باليكالوريا — ليدرس الطب  
فمضى يتنقل ما بين فرنسا وإنجلترا عشرة أعوام دون جدوى ، مكث عاما أو  
عامين فى كلية الطب . وعامين آخرين فى كلية العلوم ، كذلك الحقوق  
والآداب . ولكنه لم يثابر ولم يحصل على شهادة . ولما توفى والده رجع إلى مصر  
فى الثلاثين ، يحمل فى رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقة  
بالإنجليزية والفرنسية والنساء والقمار والحانات والمسارح والسينما ويسوت  
الدعارة ، كما رجع بزوجة لبنانية تقاربه فى العمر أو تماثله . ولم يترك أبوه له مالا ،  
وكانت أخته الكبرى متزوجة من سفير خارج القطر ، فعمل مترجما فى السفارة  
الفرنسية .

— لم أعمر فى الوظيفة أكثر من عام ثم اضطرت إلى تركها بسبب لكمة  
وجهتها إلى الملحق الصحفى !

واشتغل بالإذاعة — قبل تمصيرها — ثم اضطر إلى الاستقالة بعد مشاجرة  
عنيفة ، وعمل فى جريدة المقطم حتى وجه إلى صاحبها كلمة نائية كاد يقدم من



أجلها للمحاكمة فتركها ، وأخيراً التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه في امتحان أعلن عنه في الصحف . وكان اعتاد الحياة الدسمة المضیئة على الطريقة الأوربية فلم يف مرتبه بتحقيق مأربه ، فاستغل قدراته في اللغتين في الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب ، مكرسا جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدها عبادة . وأقام في شقة في شارع فؤاد الأول ، وأحاط جوه العائلي بصداقات أوروبية لأسر فرنسية وإيطالية وأحيانا إنجليزية ، ليكفل لنفسه البيئة التي يعشقها بكل مشتياتها من أثاث جميل ومأككل طيب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طلية رفيعة . وكان يقول بوجد :

— أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات ..

ومرة قال لي :

— أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما أنظر حولي فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين ، الله يرحمك يا أبى ، لم بددت مالك فى القمار ؟!

ولم يكن يوجد ما يدل على إسلامه إلا شهادة الميلاد . ولا يعرف من دينه إلا اسم « محمد » ، ولم ألمس فيه اهتماما بقيمة من القيم وإن كان شجاعا كريما محافظا على كرامته ، وكان مدخنا مجنوننا وسكيرا عريدا ومقامرا متهورا وأكولا متوحشا . وكنا نسير معا عادة عقب انصرافنا من الوزارة حتى محطة الترام الواقعة تحت مسكنه ، فلا يكف عن الكلام دقيقة واحدة وأتابعه أنا بالسمع والبصر ، وكان ينتقد كل ما تقع عليه عيناه ويقارنه بنظيره فى فرنسا أو إنجلترا :

— أتعجبك هذه المحال والدكاكين ؟ . إنها زنانات سوقية .

— انظر إلى قذارة الشوارع فى قلب المدينة ! ، سيأتى يوم يطالب فيه الذباب

بحقوق المواطن !

— ما رأيك فى هؤلاء الغلمان الحفاة فى شارع سليمان باشا ؟!

— انظر إلى هذا المنظر الفريد ، الكارو والجمل والسيارة في قافلة واحدة  
وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام ؟!

— أيعجبك حقا ذلك المقرئ المدعو على محمود ؟ . رجل ضرير منفر المنظر  
يزعق كالأبله ، قارن ذلك بقداس كاثوليكي تسبح في جوه الموسيقى الخالدة !  
— صدقني إن رجال السياسة الذين تعجب بهم لا يصلحون موظفين مبتدئين  
في سفارة أجنبية ...

— وملايين الفلاحين القذرين بأي منطق يستحقون الحياة ؟ ... لماذا لا  
تستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة ؟!  
— إن خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش ومع ذلك فما أقبحه  
بالمقارنة بالويسكي !

— هل حقا تعجب بهؤلاء الكتاب والأدباء ؟ ... صدقني إنهم أميون على  
المستوى العالمي ...

— اسمح لي أبول على جميع من تحبهم من زعماء وأدباء ومطربين ..  
— أتعرف ما هي أكبر نعمة أغدقت علينا ؟ ... هي الاستعمار الأوروبي ،  
وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبي ..  
— لا يغيظني شيء كما يغيظني ضربكم الأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية  
وعسكرية خالد ، عمر شحاذ ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من  
يؤدبه ...

— المرأة المصرية هي المخلوق الوحيد الذي يستحق التقدير ، فهي لبوة ،  
ويمكنها إذا منحت مزيدا من الحرية إسعاد هذا الشعب الذي يستحق الإبادة .  
— أليس الأفضل للإنسانية أن ينتشر الأوروبيون في الأرض وأن ييبدوا من  
عداها من بني آدم ؟!

لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، ولكن  
عن انفعال ، ووسط ضحكات بريئة ، ولو صادف بعد ذلك شخصا يتعصب

لأوروبا لا تقلب بنفس الحماس مدافعا عن الشرق ، فهو معارض بطبعه ، إن قلت حلوا قال مرا وإن قلت مرا قال حلوا ، مفتننا الفرص على الحالين للكلام . ولم أجد عنده أصالة في عواطفه إلا ما تعلق بكريمته ، فهو يعبدها عبادة ، يروى أحداثها التافهة كأنها ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنه جوامع الحكم ، وينقل إلينا آراءها التي ينسبها إليها كذبا وادعاء — فيما مر بالوطن من أحداث وحروب ، منوها بذكائها المبكر الذي يكبر سنها بعشرات السنين . وكنت دائما أخاف أن يصطدم يوما بشخص قوى ومؤذ مثل عدلى المؤذن أو شرارة النحال ولكن ضخامته أسبغت عليه مهابة فرضت على كبار الموظفين احترامه ، وهو من ناحية أخرى — بعد تجاربه المؤسفة في السفارة الفرنسية والإذاعة والمقطم — تجنب أصحاب النفوذ ما وسعه ذلك . وكان يقول لى :

— لعن الله الأيام التي علمتنا احترام الأوغاد ، الله يسامحك يا بنتى !  
وقد دعوته إلى الفيشاوى وعرفته ببعض الأصدقاء مثل جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام فأعجبه المكان وأحب الأشخاص ، وفي جنازتي شعراوى وجعفر بكى كطفل . وبالرغم من مودتنا الحميمة فإننى لم أسلم من غضبه ، فيوما كنت أقرأ الجريدة فاطلعت على صفحة مخصصة لذكرى سلامة حجازى ، ونقلا عن كاتبها قلت للأستاذ عباس فوزى بسرور :  
— هل تصدق أن فردى قال عن سلامة حجازى إنه لو كان ولد فى إيطاليا لما كان له — فردى — شأن ؟!

وإذا بالأستاذ عبد الرحمن يرمى بكتاب كان يقرأه وصاح بى كبر كان :  
— ما هذا الكلام الفارغ .. أتصدق أى كلام يتقوله هؤلاء الأوباش فى الصحف ؟ .. من هو سلامة حجازى ؟ .. إن أى منادى سيارات فرنسى أعذب منه صوتا ، ولكن هكذا أنتم أيها المصريون ، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا ، كوكب الشرق ... مطرب الملوك والأمراء .. سلطنة الطرب .. عاهل التمثيل فى الشرق .. لو لم أكن مصرى لتمنيت أن أكون مصرى .



ولم لا تتمنى أن تكون حمارا ، فيكون لك نفع على الأقل ، نيلة تاخذكم أنتم وبلدكم !

وفي عام ١٩٥٠ زوج معبودته « كريمته » من موظف في البنك الأهلي . واحتفل بزواجها في الأوبرا ، وسعد كما لم يسعد من قبل فسعدنا به . وبعد ذلك بعامين ، وعلى التحديد في صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال :

— البقية في حياتكم في الأستاذ عبد الرحمن شعبان !  
وفزعنا كأنا نسمع عن الموت لأول مرة . كان حتى أمس يتخذ مجلسه بيننا في الإدارة ، وسرت معه حتى مسكنه في شوارع مكتظة بالمظاهرين والمخربين وألسنة النيران تشتعل هنا وهناك في المحال العمومية والملاهي والسينمات . وعلمنا في أثناء النهار ونحن نشيع جنازته أنه كان ساهرا في الترف كلوب مع بعض أصدقائه من الإنجليز حين هاجم المتظاهرون النادي فقتلوا من فيه ، وقتل الرجل فيمن قتل ، وانتهت حياته العجيبة .

## عبد الوهاب إسماعيل

إنه اليوم أسطورة ، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير . وبالرغم من أنني لم ألق منه إلا معاملة كريمة أخوية إلا أنني لم أرتح أبدا لسحته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الجادتين . وقد عرفته في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم في أثناء الحرب العظمى الثانية ، كان في الثلاثين من عمره ، يعمل مدرسا للغة العربية في إحدى المدارس الثانوية ، وينشر أحيانا فصولا في النقد في المجلات الأدبية أو قصائد من الشعر التقليدي . كان أزهريا ، لا علم له بلغة أجنبية ، ومع ذلك أثار اهتمامي واحترامي بقوة منطقه وهو يناقش أشخاصا من المعروفين بثقافتهم الواسعة واطلاعهم العميق على اللغات الأجنبية مثل الدكتور إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل . وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتد مرة أو انفعل ولا حاد عن الموضوعية ، ولا بدا في مستوى دون مستوياتهم الرفيعة ، فكأنه ند لهم بكل معنى الكلمة ، فاقنعت بحدة ذكائه ومقدرته الجدلية واطلاعه الواسع رغم اعتماده الكلي على التراث والكتب المترجمة ، ولم يداخلني شك في أنه أذكى من إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعا . وحتى نقده للكتب العصرية لم يتسم بالهزال أو السطحية بالقياس إلى نقد المتخصصين من حملة المؤهلات الباريسية واللندنية ، وإن كان ثمة فارق دقيق لم يكن لينكشف إلا لعين العارف المدقق .

قال لي عنه يوما الدكتور ماهر عبد الكريم :

— إنه شاب موهوب ومن المؤسف أنه لم يرسل في بعثة .

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممن يزنون أقوالهم بميزان دقيق . وبالرغم من أن عبد الوهاب إسماعيل لم يكن يتكلم في الدين ، وبالرغم من تظاهره بالعصرية في أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الإفرنجية في الطعام وارتياح دور السينما ، إلا

أن تأثره بالدين وإيمانه بل وتعصبه لم تخف على . أذكر أن كاتباً قبطياً شاباً أهداه كتاباً له يحوى مقالات فى النقد والاجتماع فحدثنى عنه ذات يوم فى مقهى الفيشاوى فقال :

— إنه ذكى مطلع حساس وذو أصالة فى الأسلوب والتفكير .

فسأله براءة وكنت مغرماً بالكاتب :

— متى تكتب عنه ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— انتظر وليطولن انتظارك !

— ماذا تعنى ؟

فقال بحزم :

— لن أشارك فى بناء قلم سيعمل غداً على تجريح تراثنا الإسلامى بكافة السبل الملتوية .

فتساءلت بامتعاض :

— أفهم من ذلك أنك متعصب ؟

فقال باستهانة :

— لا تهددنى بالأكليشهات فإنها لا تهزنى .

— يؤسفنى موقفك .

— لا فائدة من مناقشة وفدى فى هذا الموضوع ، وقد كنت وفدياً ذات يوم ،

ولكنى أصرحك بأنه لا ثقة لى فى أتباع الأديان الأخرى !

وقد كان حقاً وفدياً ، ثم انشق على الوفد وراء الدكتور أحمد ماهر وكان عظيم

الإعجاب به ، ورقى فى عهد السعديين إلى وظيفة مفتش . وكم تخلى عنه حلمه

بسبب مصرع الدكتور أحمد ماهر ، كأنما أصيب بنفس الرصاصة التى أودت

بحياة الرجل ، وقال لى بحزن بالغ :

— ضاع أعظم رجل فى الوطن .

وكان يشكو صحته كلما سنحت مناسبة ، وبها يتعلل في إفطار رمضان ولكنه لم يصرح بحقيقة مرضه لأحد ، كما أنه لم يهتم في حياته بالنساء ولم يتزوج ، وعرف في تلك الناحية بالاستقامة الكاملة . وعلى جدية أخلاقه ، وحملاته الصادقة على المنحرفين ، تكشف لي جانب منه لم أكن لأصدق له لو لم أخبره بنفسى . ذلك أنه كان يوجد كاتب صاحب مجلة ومطبعة تصدر سلسلة شهرية من الكتب ، وكان عبد الوهاب يحقره ويقول عنه :

— لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة .

وكم أدهشنى أن أطلع له مقالة في الرسالة عن صاحب المجلة رفعه فيها إلى السماء ! . حرت في تفسير ذلك ، حتى علمت بأنه اتفق معه على نشر كتاب له في سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر ! . وتذكرت في الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطى فأزعجنى جدا اكتشاف ذلك الجانب الانتهازى في شخصيته ، وساورنى شك من ناحية صدقه وأمانته . واستقر فى نفسى — رغم صداقتنا — نفور دائم منه . وظل يعمل مفتشا وكاتبا حتى ولى الوفد الحكم عام ١٩٥٠ ، فلم يرتح إلى معاملة الوزير الوفدى له ، فقدم استقالته وتفرغ للعمل فى الصحافة — وعرف فى تلك الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد ، وفى نفس الوقت شرع يكتب كتباً عصرية عن الدين الإسلامى ، لاقت نجاحا منعدم النظر . وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس فى محاربة الوفد والدفاع عن الدين الإسلامى . وكان مرعاضاً على الأقل لم نلتق فيهما أبداً وانقطعت عني أخباره الخاصة . ويوما كنت فى زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لى :

— الظاهر أن نجم عبد الوهاب إسماعيل سيلمع قريباً ...

فسأله باهتمام :

— ماذا تعنى ؟

— أصبح من المقربين .

— ككاتب سياسى أم ككاتب دينى ؟

— باعتباره من الإخوان المسلمين .

فهمت بدهشة .

— الإخوان ؟ .. لكننى عرفته سعديا متطرفا .

فقال متهمكا .

— سبحانه الذى يغير ولا يتغير !

وقابلته بعد ذاك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فتصافحنا بحرارة ، وسرنا معا

نتحدث حتى جاء ذكر الثورة فقال بتحفظ :

— ثورة مباركة ولكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون ...

ولمست فى حديثه مرارة لم أقف على سرها ولم يبح به ... كانت له قدرة على

الاحتفاظ بأسراره ليست إلا لقلة نادرة من المصريين .. وقلت له :

— بلغنى أنك انضممت إلى الإخوان المسلمين ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— أى مسلم عرضة لذلك !

— من المؤسف حقا أنك نبذت النقد الأدبى .

فضحك قائلا :

— يالها من ثمنيات جاهلية ؟

وافترقنا وأنا أشعر بأننا لن نلتقى مستقبلا إلا مصادفة فى الشوارع . وعند أول

صدام بين الثورة والإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة ،

وقدم للمحاكمة فحكم عليه بعشرة أعوام سجن ، وغادر السجن عام ١٩٥٦

فرأيت أن أزوره مهثا ، فذهبت إلى مسكنه بشارع خيرت . والحق أنه لم يتغير

كثيرا ، شاب شعر رأسه ، كما يتوقع لرجل فى السابع أو الثامن والخمسين من

عمره ، وزاد وزنه حتى خيل إلى أن صحته تحسنت عما كانت عليه . وتبادلنا

الأسئلة عن الظروف والأحوال ، وكان يحافظ على رزائنه المعهودة وبرودة

أعصابه الفذة ، وخاض دون مقدمات في المسائل العامة فأدلى بآرائه بكل ثقة ...

— يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة .  
وقال عن المرأة :

— على المرأة أن تعود إلى البيت ، لا بأس من أن تتعلم ولكن لحساب البيت لا الوظيفة ، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشا في حال الطلاق أو فقد العائل .

وقال بقوة :

— الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجثها من نفوسنا ..

وحمل على العلم حملة شعواء حتى ذهلت فسأته :  
— حتى العلم ؟!

— نعم ، لن نتميز به ، نحن مسبقون فيه وسنظل مسبوقين مهما بذلنا ، لا رسالة علمية لنا نقدمها للعالم . ولكن لدينا رسالة الإسلام وعبادة الله وحده لا رأس المال ولا المادية الجدلية ...

استمعت إليه طويلا ضاغطا على انفعالاتي حتى لا أدخل بواجب المجاملة ثم قمت للانصراف وأنا أسأله :

— ماذا عن المستقبل ؟

— هل لديك اقتراح ؟

— لدى اقتراح ولكنني أخشى أن يكون جاهليا هو أن تعود إلى النقد الأدبي ! فقال بهدوء :

— تلقيت دعوة للعمل في الخارج .

— وعلام عولت ؟

— إني أفكر ...

وودعته وانصرفت . وبعد انقضاء عام على المقابلة طلعت علينا الصحف  
بأنباء مؤامرة جديدة للإخوان ، ولم أعرف وقتها شيئا عن مصير عبد الوهاب  
إسماعيل الذى رجحت أنه غادر الوطن للعمل فى الخارج . غير أن الصديق قدرى  
رزق أكذلى أنه كان ضمن المؤامرة وأنه قاوم القوة التى ذهبت للمقبض عليه حتى  
أصيب بطلقة قاتلة فسقط جثة هامدة .

## عبدة سليمان

لعلها كانت أول فتاة تعين بوزارتنا ، ولكن مؤكدا أنها كانت أول موظفة بإدارة السكرتارية . عينت في أيام الحرب العظمى الثانية ، في نفس الشهر الذي تولى فيه عباس فوزى رئاسة السكرتارية . كانت في الخامس والعشرين من عمرها ، بضعة ممتلئة ، سمراء ، متوسطة الجمال ، خفيفة الروح . وكانت تحمل شهادة البكالوريا ، ولم ترغب في الوظيفة حتى توفي والدها . وقال عباس فوزى محذرا :

— كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم !

وهمس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

— صاحبك من السيدة زينب !

فسأله :

— وماله ؟

— السيدة مأهولة بالطلبة ولذلك فكثيرات من بناتها ..

ورسم بيده حركة مثيرة للشك . وعموما اشتدت العناية بالمظهر فى السكرتارية ، واسترقت الأعين النظر إلى ركن الحجرة حيث جلست عبدة إلى يمين الأستاذ عبد الرحمن شعبان . وكان علينا أن ننتظر طويلا حتى يصير عبده « عادة » يومية لا تثير الأهواء ولا تلفت النظر . وتواترت أخبار تصور سلوكها الخاص فى حى السيدة بالاستهتار . وقال لى عم صقر :

— لا تصدق أن فتاة « شريفة » تقبل أن تعمل وسط الرجال .

فقلت له :

— ولكنها مؤدبة حقا وتصعد عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعاية .



فقال بإصرار :

— سياسة حلوة .. حفظا على كرامتها كموظفة ، ولتوقع بالمغفل ابن  
الحلال !

ولاحظنا أن زميلا من الأرشيف أصبح يتردد على صديق له فى السكرتارية  
على غير عادة ، وكان زميلا مشهورا رغم حقارة وظيفته وبدائية تعليمه الذى لم  
يجاوز الابتدائية ، ولكنه كان جميلا ، له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم ،  
وكان من أسرة العادل — يدعى محمد العادل — فى الثلاثين من عمره . وكان  
ابن شقيق الباشا عميد الأسرة ، وزوج كريمته الغنية ، ورغم فقره وضآلة مرتبه  
كان يرتدى أفخر البدل وينفق عن سعة من مال زوجته ، وعرف أنه يطارد  
عبدة ، وأنه يزور السكرتارية جريا وراء هدفه . ولم يتعرض له عباس فوزى بأية  
ملاحظة لعلمه بصداقة عمه الباشا لوكيل الوزارة فتجاهله على مضض ، ولكن  
الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لم يبال بذلك فمضى نحوه يوما ثم قبض على  
أعلى جاكته ودفعه أمامه حتى باب الإدارة وهو يقول له :  
— إذا رجعت مرة أخرى فساكسر رأسك ...

ولكن عم صقر أخبرنى أنه يطارد عبدة حتى مشارف السيدة وأنه يلح بجنون  
فى التعرف بها . ووضع أن الفتاة رفضت تلبية النداء وأصرت على ذلك .  
رفضت بكل قوة أن تكون عشيقة وعاملته بخشونة . وأخذنا نناقش الموضوع  
همسا . فقال عباس فوزى :

— الولد فحل جميل ولا يقاوم ...

فقال عبد الرحمن شعبان .

— ولكنه حقير جاهل .

فقال له عباس فوزى !

— المرأة هى المرأة والرجل هو الرجل .

فقلت :

— من الطبيعي أن تبحث عن زوج فما معنى أن ترضى بدور العشيقه ...

— هذا هو المعقول ولكن الحب لا معقول ...

ولكن مضت الأيام وعبدة سليمان ترفض أن تستسلم . ذات يوم طلبت إجازة أسبوعا . ولم يهتم أحد بالطلب حتى جاءنا عم صقر وهو يقول :

— محمد العادل أخذ إجازة أسبوعا أيضا !

وتضاربت التخمينات ولكنها كانت مجرد تخمينات ، ومضى الأسبوع ورجعت عبدة ولكننا رأينا فيها فتاة جديدة كأنما فقدت في صميم روحها شيئا ثمينا لا يعوض . انتظرنا أن تقول شيئا ولكنها عكفت على عملها في صمت تكتنفها هالة حزن كأنما هي راجعة من قراقة . ومال عبد الرحمن شعبان نحوها وسألها برقة :

— مالك يا مدموازيل ؟

وبمجرد استشعارها العطف انهمرت دموعها ! . واتجهت إليها الأبصار . ومضى عباس فوزى فوقف أمام مكتبها وهو يسأل :

— مالك ؟ .. نحن زملاء . والإنسان للإنسان !

— لا شيء !

— لا نريد إكراهك على الكلام إذا كرهت ذلك ...

ف قالت يئأس :

— لن يخفى شيء !

— حسن فماذا يحزنك ؟

ترددت قليلا ثم قالت :

— أخذت الإجازة لأتزوج ..

— لا عيب في ذلك ولا حزن .

— تزوجنا أنا ومحمد العادل .

— محمد العادل !

— نعم .

— سرا ؟!

— قال لى إنه يقامر بمستقبله ، وأنه إذا عرفت زوجته أو عمه الباشا فسيقضى عليه إلى الأبد ..

فسألها عباس فوزى بنبرة لم تخل من عتاب :

— وكيف رضيت أن تتزوجيه وأنت على علم بحاله ؟

فقال عبد الرحمن شعبان بغضب :

— تذكر أقوالك عن الحب ...

فتراجع الرجل قائلاً :

— حسن ، وماذا حدث بعد ذلك ؟

— سافرنا إلى الإسكندرية فمكثنا أسبوعاً !

— ثم ماذا ؟

وهى تحاول تمالك أعصابها الباكية :

— طلقنى أمس !

— طلقك ؟!

— نعم ..

— لم ؟

— قال إنه إذا استمرت العلاقة فستعرف وإذا عرفت خسر كل شيء !

وهمس عم صقر فى أذنى :

— طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم . وتطوع كثيرون لمساعدتها

فى إجراءات القضية الشرعية . ونما الخبر إلى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل

الوزارة — بإيعاز من الباشا — عبدة فوبخها واتهمها بإغواء الولد الأرعن وطالبها

بالتنازل عن القضية فى نظير أن يحفظ لها حقها ولكنها صارحتنا بأنها حبلى ،

وبذلك تعقدت الأمور أكثر . ووضعت طفلة وكانت النفقة تقتطع لها من مرتب الشاب الصغير ، والحق أن محمد العادل لم يكن شبع تماما من عبدة ، وكانت هي من ناحيتها تحبه ، وهي حقيقة لم تخف عن المجريين مثل عباس فوزى وعبد الرحمن شعبان . وعادت العلاقة بينهما ، غير شرعية هذه المرة ، وفي تكتم لم يدر به أحد منا ، حتى فوجئنا ذات يوم بالوكيل يستدعى عبدة ومحمد ، ويهددهما بالنقل إلى الأقاليم إذا لم يقطعا علاقتهما « الآثمة » في الحال . وحدث ذلك بحضور الباشا نفسه ، وترامت الأصوات إلى السعاة فالتقط عم صقر الخبر وأذاعه بطريقته السادية ، حتى اضطر الأستاذ عبد الرحمن شعبان إلى تذكيره بابنته الضائعة فغادر الرجل الحجرة متقلص الوجه . ونقل محمد العادل بعد ذلك إلى وزارة الزراعة . وتزوجت عبدة من مقاول قبل أن تترى ابنتها في بيته تحت شرط أن تقدم عبدة استقالتها وقد فعلت . كان ذلك على عهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، ومر على ذلك عشرون عاما حتى لقيت عبدة مصادفة في ميدان التحرير .

تصافحنا بحرارة ، وكانت في الخمسين وبدينة جدا ، وسرنا معا وهي تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من أمر عباس فوزى ، ونهاية عبد الرحمن شعبان وقد تأسفت عليه بصدق ، وحتى عم صقر أخبرتها بسوء مآله ، أما هي فأخبرتني بأن زوجها توفي من عامين ، وأنها أنجبت منه ثلاثة ذكور في كليات الطب والزراعة والاقتصاد ، وأن ابنتها تزوجت من ضابط ، ثم تساءلت :

— أتدرى ماذا حصل لأبيها ؟

ولكني كنت نسيته تماما فقالت :

— بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعى بعام واحد مات الباشا ، ولم يبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربي به أولادها فامتنعت عن إعطاء زوجها أى نقود فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذى اعتاده فاختلف وفصل من عمله ... وهو يعيش الآن كالمشردين ، واضطر إلى العمل فى الإسكندرية منادى سيارات !

ثم سألتني ونحن نتوابع :

— خبرنى ماذا عن الموقف ، حرب أم صلح ؟  
فبسطت راحتى فى عجز عن الجواب واشرقنا ..

## عجلان ثابت

زاملنا فى الجامعة عاما ونصف عام ، واتهم بسرقة طربوش فافتضح أمره  
واضطر إلى قطع دراسته . حدثنى عنه فى ذلك الوقت الأستاذ عدلى المؤذن  
فقال :

— إنه يعيش مع أم عجوز على معاش بسيط .  
فقلت بأسف :

— لا أحد منا يستطيع معاونته ، وكان النجاح والتفوق فى ميسوره ..  
— ولكنه كان قليل الأدب . ألا تذكر مناقشاته الحادة مع الدكتور إبراهيم  
عقل ؟

فقلت بامتعاض :

— إنه أفضل فى نظرى من الدكتور إبراهيم عقل ..  
وفى أثناء تزامننا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه ، وكان ذا استعداد طيب  
لتعلم اللغات الأجنبية ، كما كان قارئاً ممتازاً . وأذكر أنه ترجم — فى تلك الفترة  
المبكرة من حياته — بعض قصائد شيللى ونشرها فى مجلة المعرفة . وكان يقول  
لى :

— لا تحترم طالبا غير مهتم بالسياسة . ولا تحترم مهتماً بالسياسة إن لم يكن  
وفديا ، ولا تحترم وفديا إن لم يكن فقيرا ..  
فقلت له :

— ولكن سعد زغلول لم يكن فقيرا ..  
— أما مصطفى النحاس فزعيم فقير !

— هل تعنى أن مصطفى النحاس خير من سعد زغلول ؟

— كان سعد زغلول عبقرى أما مصطفى النحاس فأرادة نقية .

و لم يستطع — بعد انفصاله عن الجامعة — أن يجد وظيفة ، فالوظيفة كانت مطلبا عسيرا لمن لا وساطة له ، ولكن أحد أعضاء الوفد استطاع أن يلحقه بدار صحفية محايدة مترجما بأجر زهيد . وافترقنا نحواً من عشرة أعوام ، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة في مقهى الفيشاوى . ورحبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال :

— ما زلت مترجما صحفيا وما زال الأجر زهيدا !

وضحك وكانت روحه المعنوية مرتفعة وقال :

— ولكنى متزوج ..

— أنت مغامر !

— إنه الحب ، عليه اللعنة ..

ودعاني إلى مسكنه بخان الخليلي فتعرفت بزوجته ، وكانت فتاة حسناء ، على قدر متوسط من التعليم ، ولاحظت أنها متفانية في الحب وذات إرادة صلبة في مواجهة حياتها المتقشفة . ودار الحديث عن الحرب والسياسة ، فقال :

— لم أعد وفديا كما كنت ..

فدهشت ، ولكنه صارحنى بأنه « شيوعى » ، وراح يؤكد لى أن الشيوعية حل لمشكلات العالم ، ثم وهو يضحك :

— وحل لمشكلتى أيضا ..

فضحكت زوجته وقالت :

— وهذا هو الأهم !

ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكننى شعرت بأنها حلت فى نفسه محل العقيدة الدينية . وفى أعقاب الحرب فصل من الدار الصحفية بإيعاز من الداخلية فى ظل الحكم الرجعى الذى سيطر على البلاد بعد إقالة الحكومة

الوفدية . وتخرج مركزه ، حتى سكنه المتواضع أصبح مهددا بالطرد منه لعجزه عن دفع الإيجار . وكنت أزوره ، وأقدم له أحيانا مساعدات لا تغنى . ثم تبين لي أن مسكنه يتحول إلى شيء جديد غريب ، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من أغنياء الحرب ، حيث تدور الجوزة . وتجلس زوجته بينهم كربة الاستقبال والبيت ! . وآثرت — تفاديا للإحراج — أن تقتصر مقابلاتنا على المقهى ، وأخذ يبدو لي مكشوف الوجه مستهترا ، وماجنا عابثا ، ورغم ذلك كله فإن عقيدته لم تتخلخل . ولم يتسلل إليها الفساد ، وبقيت جوهرة مدفونة في العفن ولكن محتفظة بقيمتها . وفي عام ١٩٥٠ رجع إلى عمله بالدار الصحفية ولكنه لم يغير أسلوبه في الحياة ، لزهادة المرتب من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى . ولقيت زوجته بعد انقطاع طويل فهالني أن أرى غانية متبرجة ذكرتني بالمحترفات فتقطع قلبي وحزنت حزنا لا حد له . ولعله لاحظ انقباضى إذ قال :  
— مهما يكن من أمرنا فثمة جانب فينا يستطيع أن يصنع المعجزات ، وهو الذى خلق الله !

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يهيئوا له عملا أرقى ، فتحسنت أحواله ، بل وغير مسكنه فانتقل إلى شقة في عمارة بميدان الجزيرة . رمزا لعزمه على تغيير أسلوبه في الحياة ، وممارسة حياة محترمة . وبسبب نشاطه العقائدى اعتقل أعواما حتى اضطرت زوجته إلى اللجوء إلى حماية أحد زبائن بيتها القديم . ولما خرج من المعتقل خرج متعبا متقرزا . استعاد عمله ودخله ولكنه لم يستطع استنقاذ زوجته . قال :

— أدمنت الأفيون ..

وهز رأسه فى رثاء وقال :

— إني أحبها ، وسأحبها إلى الأبد ، ولكنها لم تعد قادرة على إعطاء الحب !

ثم بغضب :

— إني أحمل على الفساد بصدق أيا ن أجده ، ولا يخيفنى أن يشهر بى أحد ...

وقدّس علاقته بها ، متفانيا في الإخلاص لها والتسامح معها ، فهبأ لها الحياة الطيبة ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرف ، تواجدت أم غابت ، استقامت أم استهترت . وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبق له من مسرات الدنيا إلا العمل والحديث والتسامح اللانهاى مع زوجته . وبالرغم من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ في تلك الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثماره ، فتابع مقالاته السياسية والاجتماعية متسمة بالطلاوة والعمق ، وإني لأعد كتابه عن الفكر العربى التقدمى من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها إيجاء وتفاؤلا ، كما أعد وجهه الشعبى ، وتناقضات حياته الشخصية ، ومتاعبه الجسمانية ، وحدة ذهنه وصفائه ، مثالا لعصر مضطرب جياش بعوامل هدم وبناء ، وتفكك وتجمع ، ويأس وأمل . ولشد ما تأملت عندما لم أجد من أستاذى الدكتور ماهر عبد الكريم استعدادا للترحيب به فى صالونه فقال بهدوئه المعروف :

— يقال إنه شخص ..

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع ! . وعلمت أن الذى وشى به عنده هو جاد أبو العلا ، ذلك الشخص الذى لا وجود له فى الواقع ! .



## عدلى بركات

له فى الذهن صورة قديمة ، كالعباسية القديمة بحقولها وسكونها الأبدى ،  
عندما كان يتهاذى به الحنطور من العباسية الشرقية إلى المدرسة ، فيغادره وهو  
يسير — رغم حداثة سنه — فى عظمة خيالية تناسب ولادة العرش ، ويمر بنا دون  
أن يلقي نظرة على أحد ، وحيدا بلا صاحب إلا فيما ندر ، ونتاجه بسخرية تخفى  
تحتها إعجابا وحسدا . وكان آل بركات — كآل الكاتب — من أرستقراطية  
العباسية الشرقية المقيمين فى القلاع . وكانت أم عدلى تركية وكان الأب فلاحا  
مصريا غنيا ، فأنجبا غلامين عدلى وأخا أكبر . وماتت الأم وعدلى فى الثانية  
عشرة ، فتزوج الأب بعد عام من وفاتها بسيدة مصرية . وقيل لى إن وفاة أمه  
رسبت الحزن فى أعماق روحه . كما أن حلول أخرى محلها قضى على توازنه مدى  
العمر . تلك أحزان يمكن تخيلها فحسب ، أما تحليلها فلا سبيل إليه ، وبخاصة وأن  
عدلى لم يكن يذكر سيرة أمه أمام أحد ، ولا يسمح لأحد بالتسلل إلى ذلك التاريخ  
القديم ، وبالرغم من أننى عرفته فى تدهوره ، وهو لا يعترف لشيء باحترام أو  
يعفيه من سخريته ، فإنه كان من المسلم به بيننا أن أمه سر مغلق مقدس لا يجوز  
مسه أو الحومان حوله أو مجرد التفكير فى الاقتراب منه . وكنا فى صبا نراه  
كثيرا ، فى المدرسة ، فى حديقة القصر ، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أى معرفة أو  
حتى ميل إلى ذلك . ومرة وكنا عائدتين من ملعب الكرة فى الصحراء وجدناه  
واقفا أمام قصره فقرر خليل زكى أن يتحرش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة :

— هل تعرف أين تقع دكان عم فلقوس يباع المدمس ؟

فتراجع إلى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعن  
خليل ولكن اجتاجنا سرور لا شك فيه . وطالما كان خليل يقول :

— يا ما نفسى أطبق فى زمارة رقبتة !

ودخلنا الجامعة فى عام واحد فزامل رضا حمادة فى كلية الحقوق ، وعارف رضا بينى وبينه ونحن نشاهد مباراة كرة حامية بين النادى الأهلى والمختلط . قلت له :

— نحن أبناء حى واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف إلا اليوم .

فابتسم قائلاً فى اقتضاب :

— نعم .

وتمتعته عن قرب فإذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحد التماثل ، ولم يرث عن الأم التركية شيئاً ظاهراً ينتفع به ! . وأدركت من أول وهلة أنه متعب . وأنه يحتاج إلى سياسة خاصة فى معاملته كى يمنح ثقته وصداقته ، وأنه يحتقر كل شىء فى الوجود ، وأن كلمة « مضحك » اكليشيه لاصق بلسانه يصف به أى شخص أو أى فعل مهما يكن رأى المتحدث فيه . فأستاذ المدنى « دكتور مضحك » ، ومصطفى النحاس « زعيم مضحك » ، وقرار الوفد بإعلان المقاطعة « إعلان مضحك » ، وقواعد الإسلام « قواعد مضحكة » حتى سألته مرة :

— من يستحق احترامك من الناس ؟

فأجاب وهو يضحك :

— الجميل الشرير !

ثم وهو يواصل الضحك :

— يقال إن إسماعيل صدق كان كذلك فى شبابه ..

فقلت :

— ولكنك تحترم والدك بلا شك ؟

فبصق على الأرض بتلقائية ووحشية قال :

— اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات !

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقتله لأبيه. وحدثني موسيقار من جيرانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال إنه — عدلى — لم يعد يخفى كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد ، وأن الباشا يداريه مسلما أمره الله . وسألت عن السبب فقال :  
— لا يدرى أحد شيئا على سبيل اليقين ، وعدلى نفسه لا يحب أن يفشى ذلك الجانب من أسراره ، ولكن المظنون أن مرجع هذه الكراهية إلى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمه ..  
ولما توثقت العلاقة بيننا سألته عما يدعو به إلى مقت أبيه واحتقاره فحدثني بنظرة قاسية وقال :

— ألا يكفي لذلك أن يورثنى سحته ؟!

فقلت :

— أنت فلاح جميل !

فعبس قائلا :

— لو ناققتنى مرة ثانية فسامقتك أكثر منه .

ولكى يتعد عن مجال أبيه ويتجنب رؤيته ما أمكن أقام فى مبنى مستقل بحديقة القصر كان يستعمل كمضيقة ، وربما مر الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر . وفى آخر عهده بكلية الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عرفت باستهتارها الأخلاقى ، وجعل منها خاصة أصدقائه ، وبهم خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوى ، وانقلب مقامه المستقل فى الحديقة إلى حانة وغرزة ! . ولا شك أن الباشا فطن إلى ديب الحركة الجديدة المرية ولكنه لم يستطع أن يتعرض لها إشارا للسلامة . وقال لى يوما :

— عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك ..

ولم أعرف ما يعنيه تماما إلا فيما بعد نسبيا ، عندما تبين لى أنه بقدر ما يحب مصاحبة الحسان فإنه لا يستجيب لهن ، وأنه لا يستجيب إلا للمومسات ذوات السحن الوحشية . وأتم دراسته عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرات ، وسعى

الباشا إلى تعيينه في النيابة العمومية بنفوذه ، ولكن لم يكن يقبل أحد في وظائف النيابة إلا بعد تحريات ، وقد كشفت التحريات عن الغرزة المستقرة في مسكنه المستقل فرفض الطلب وأبلغ والده بالحقيقة ! . وفاتحه أبوه بالأمر فقال باستهانة :

— النيابة العمومية وظيفة مضحكة !

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينهما حتى هددت النفوس . واتفق على أن يفتح الباشا له مكتب محاماة في مقامه المستقل على أن يجعل سهراته الخاصة في الخارج . وأعد في إحدى الحجرتين اللتين يتكون منهما المبنى مكتبا ، ومكتبة قانونية ، وألصقت على مدخل السراى لافتة باسم المحامى الجديد . ولم ينفذ الاتفاق إلا أياما معدودات ثم رجعت ريمة لعادتها القديمة ، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة ، وكان الحشيش قد أسره تماما . ولم يقنع الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهن عميلات للمحامى الجديد ، فتطورت الغرزة إلى ماخور ، وسكرت إحداهن ذات ليلة حتى فقدت وعيها فتجردت من ثيابها وراحت ترقص في الحديقة تحت ضوء القمر ..

ولأول مرة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار ، انهال على الابن سبا ولعنا ، فرد له الابن السبة سبتين واللعنة لعتين ، وصفعه الأب فهدده الابن بالصفع والركل ، وعند ذلك طرده من قصره وحذره من أن يريه وجهه مرة أخرى . وغادر عدلى القصر مطرودا في أوائل أيام الحرب العظمى الثانية ، وليس معه إلا ملابسه . وراح يبيت بالتناوب في بيوت أصدقائه ويفكرون في المستقبل . اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى وظيفة كتابية حتى يجيء الفرج ، ولكنه قال بكبرياء :

— إنى أفضل الصعلكة ..

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد في مكتبه ولكنه قال له :

— نسيت القانون ولاهمة لى الآن على استرجاعه .

فقال الرجل ببراءة :

— قم بأى عمل فى المكتب !

فأدرك أنه يعرض عليه أن يعمل كاتباً بمكتبه فصاح غاضباً :

— إني أحتقرك وأحتقر من خلقتك !

واختار الصعلكة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمان موت أبيه الذى جاوز السبعين من عمره وكان يتبلغ بالسندوتش ويسكت صراخ بطنه بالفول السودانى ، وينتقل فى الليل من غرزة إلى غرزة فيدخل بالجمان ، ثم يقضى الليل فى بيت صديق أو فى مقصورة من مقاصير مقهى الفيشاوى . وساء مظهره ، ووهنت صحته ، ورثت ثيابه ، وصار أشبه بالمتشردين ، ولكن كبريائه كان يتعقد ويتضخم حتى انقلب وقاحة وسفاهة . وكنا مجتمعين مرة بالفيشاوى فإذا به يضحك عالياً ويستغرق فى الضحك ، فسألته عما يضحكه ، فقال :

— تصور أن أموت أنا قبل « الكلب » ... ؟

فقلت باسمي .

— هذا محتمل ومتوقع أيضاً !

فلعننى وقال :

— إني على استعداد لأن أعبد الله إذا أخذ روحه ...

ثم مستدركاً :

— على أى حال ليس لدى ما أشكوه ما دمت أجد الجوزة فى آخر النهار !

وكان أيضاً قابلاً فى الفيشاوى ١٩٤٧ — أو ١٩٤٨ — عندما جاءه رسول

من شقيقه ينعى إليه والده ويدعوه إلى القصر . كان مسطولاً فلم يفهم من المرة

الأولى . ولما أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحاً ، فحملق فى الجدار

المطعم بالأرايسك ، وسرح فى غيابات لا يدرىها أحد ، ثم غادر المكان دون أن

يلقى تحية وراءه . واستقبله أخوه — رئيس محكمة كان — وقال له :

— البقية فى حياتك .

ومضى به إلى الداخل وهو يقول :

— ما كان كان ، وهذه ساعة مقدسة تنسى فيها الأحقاد .. حتى أوصله إلى

مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول :

— ادخل فودع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعا .

وتسلل عدلى إلى الحجرة — كما حكى لنا فيما بعد — ووقف وحده عند رأس

الجثمان المسجى ، ثم أزاح الغطاء عنه قليلا حتى انكشف وجهه المطوق ، ونظر

إليه مليا ، ثم غمغم :

— إلى الجحيم يا قدر !

وأكثر من صوت قال :

— مستحيل .. مستحيل ..

فنظر إليهم باحتقار لضعفهم وتمتم :

— كم وددت أن أمثل بجثته !

بعضنا لم يصدق كلمة مما حكى والبعض آمن بكل حرف وخمن أنه ربما فعل

أكثر مما قال . على أى حال ابتسمت له الدنيا بعد عبوس . وقد ترك الباشا أملاكا

منها أرض وعقار وأموال سائلة ، وكان نصيب عدلى عمارتين يدران دخلا صافيا

قدره ألف جنيه في الشهر ، بالإضافة إلى أربعين ألفا من الجنيهات . وقال كثيرون

من أصدقائه :

— لقد كانت أعوام التشرد درسا أريد به أن يعرف قيمة القرش فيحسن

معاملته !

والتف حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المأتم واستبقوا إلى تخطيط صورة

للمستقبل السعيد :

— من حسن الحظ أن مطالبك في الحياة معقولة وأنه بوسعك أن تعيش ملكا

حتى آخر يوم في حياتك .

— وفر لنفسك مسكنا جميلا ، واعرض نفسك على طبيب كبير ، واحمد

ربك أنك لم تغو القمار ، الطعام أمره هين ، ومزاجك في النسوان متواضع ، ولم نسمع عن أن الحشيش خرب بيت أحد ، فمبارك عليك رزقك الحلال !  
وصاح بهم :

— كفوا عن النصائح عليكم اللعنة !

كان يمقت النصيح ويعده تعاليا مرذولا ولكنه بدا ثملا بالفرح والسعادة ، وبات ليلتها في فندق سميراميس ، وأقام به حتى يدبر أموره ، ونشط نشاطا غير معهود فاستأجر شقة على النيل بخمسين جنيها شهريا . ومضى يؤثثها بأفخر الأثاث ، وقد ذهلنا — نحن البسطاء — عندما علمنا بأن تأثيثها تكلف عشرين ألفا من الجنيهات ، وأعجب ما أذهلنا فيها كان حجرة شرقية ، أقام بها بارا أمريكيا وغرزة موهت أدواتها بالذهب والفضة ، كما ابتاع سيارة كاديلاك ، وكان مجموع ما أنفقه على ذلك — بالإضافة إلى الملابس — ثلاثين ألفا . كان مبلغا خياليا ، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه من حرمان طويل ، وقالوا أيضا إن التأسيس عادة يتكلف أضعاف ما تتكلفه الحياة اليومية . ولكن الحجرة الشرقية شهدت سهرات ليلية جمعت الأصدقاء والطفيلين وغانيات الملاحى الليلية وبعض الفنانين والفنانات ، وجرت الخمر وانتشر الدخان الأزرق وجيء بموائد الطعام من نادى السيارات ، وراح يخطر بين الضيوف رافلا في الحرير محاطا بالإجلال والإكبار . وما لبث أن تطايرت العشرة الآلاف جنيه فلم يبق إلا دخل العمارتين ، وقال المتفائلون أن آن أو ان الانضباط وستسير الحياة سيرتها المترنة المعقولة ، ولكنه كان اعتاد عادة الإسراف وتقمص روح ليالى ألف ليلة وليلة . وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملاحى كان يمارس العشق الحقيقى مع بنات الهوى المتواضعات ، ومع يياعة فول سودانى فلاحه من المترددات على مقهى الفيشاوى ، ولذلك لم يوفق إلى التوازن أبدا ، واضطر إلى بيع إحدى العمارتين رغم توصلات الأصدقاء ، ثم ألحق بها الأخرى ، وتجلى في أثناء ذلك سعيدا مجنونا فوق الحذر والماضى والمستقبل . وما جاء عام ١٩٥٠ ( المريا )

حتى كان قد باع شقته ورجع للإقامة في فندق سميراميس ، ثم باع السيارة ، وبدأ المستقبل واضح المعالم . وأذكر أنني تدارست حاله مع الصديق رضا حمادة فقلت له :

— أهو مجنون ؟

فأجاب :

— لا يخلو من جنون .

— إنه لا يشعر بالغد .

— أو أنه مستغرق في لحظته الراهنة .

— أكاد — وسط همومنا التي تثقلنا — أحسده !

فضحك عاليا ، وقال :

— على الحياة أن تكون جدا أو فلتذهب إلى الشيطان !

وعندما نفذ حسابه غادر سميراميس . واجه الحياة مرة أخرى وهو لا يملك

مليما ولا أمل له من وراء وفاة أحد . ولم يكن بلا خطة . شرب زجاجتي

ويسكى وبلع ربع أوقية حشيش وهام على وجهه . وعثر عليه صباح اليوم التالي

جثة هامدة على شاطئ النيل .



## عز مى شاكر

تعرفت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكرم عام ١٩٦٠ ، وقد قلت له من  
فورى :

— أذكر أنى رأيتك فى زيارة للأستاذ عباس فوزى فى أثناء الحرب العظمى  
الثانية ..

فقال :

— لم أقابله من مدة طويلة ، وبالمناسبة كيف تفسر تحوله إلى تأليف الكتب  
الدينية ، أكان عن عقيدة حقا ؟

فأجبت بحذر :

— أنت تعلم أنه كان دائما من المهتمين بالتراث !

وكان عز مى شاكر يوم تعرفت به فى الأربعين ، وقد جذبنى بذكائه وثقافته  
وصراحته ، وأشعرنى تماما بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد ،  
ويلتمسون السبل إلى الأمل . وكان دكتور فى التاريخ من فرنسا ، ومتزوجا من  
مدرسة دكتوراة فى العلوم . وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه ، وقال لى عنه :

— إنه كان تلميذا وفديا ولكنه اهتم من هادى الأمر بالمشكلات الاجتماعية ،  
ويعترف بأن قلمى كان له الأثر الأول فى توجيهه ..

ولما حدثت عز مى شاكر فى ذلك قال لى :

— لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم ، وتخلصت منها تماما قبيل الثورة ،  
ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى ، وعددت منذ ذلك  
الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم ...

وقال لى أيضا :

— ولما قامت ثورة يوليو استقبلتها بترحاب وحذر معا ، أعجبت بإلغائها للنظام الملكي وبتحقيقها للجلاء ، ولم أعجب كثيرا بإصلاحها الزراعى ، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الإصلاح وتفادى الثورة الحقيقية .. وبسبب موقفه فصل من هيئة التدريس الجامعية ، ثم اعتقل أعواما ، ثم أفرج عنه فعمل فى الصحافة . وعكف على الكتابة فى الموضوعات التى تتيح له التعبير بإخلاص عن آرائه فأثر الكتابة فى الشؤون الخارجية أو التاريخية أحيانا . وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية تغير موقفه تغيرا ذاتيا وجذريا وعن إخلاص حقيقى . كان قد انضم إلى أصدقائنا ، وكان يجتمع بنا فى مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم . وذات يوم قال لى :  
— الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن .  
فقلت له :

— إذن غيرت رأيك ؟

— أجل ، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين ، وأن نؤيدها بكل قوانا ! وآمنت بصدقه . ولم أجد ما يدعو إلى التشكيك فيه ، ثم إننى من المؤمنين بإخلاصه . ومن يومها وهو دائب على تأييد الثورة بقلبه وقلمه ، فى سره وعلايته ، ولم يفهم موقفه على حقيقته فى أوساط زملائه . وأذكر أن عجلا ن ثابت قال لى عنه :

— إنه وغد لا أكثر ولا أقل ، ومهما خطر فى لباس قديس !  
فقلت له :

— إنى أعتقد بإخلاصه ، لا يداخلى شك فى ذلك .  
فقال ساخرا :

— إن أقواله تبرر ترددك ، هذا كل ما هنالك !  
وسنحت فرصة لرجوعه إلى الجامعة ولكنه أثر الجهاد فى ميدان الصحافة . ومن المهم أن أسجل أنه لم يكن مؤيدا أعمى أو متعاميا ، فلم تكن تخفى عنه

الأخطاء التي ترتكب . وكثيرا ما كان يردد :

— مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيين ، فخلقت منهم أعداء حينا ، أو وضعتهم تحت المراقبة حينا آخر .  
وقال مرة بحزن شديد :

— إن الفساد ينتشر كالوباء . لا نملك إلا التحذير ، وحتى ذلك لا يتيسر لنا إلا فيما ندر .

وثبت لي أنه من الشيوعيين المتجددين ، الذين يتطلعون دائما إلى الحرية ، الذين يعتقدون أن الحرية تعاني مأساة مريرة ، ولكنه لم يهون أبدا من شأن النقلة التاريخية التي وثبها الوطن ، وكان يتعلق بالمستقبل المضيء كلما ألحت عليه عثرات الحاضر . ولما عرفته بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعا ما يقرب بينهما من وجهات النظر فتوثقت العلاقة بينهما . ولما قبض على الشيوعيين حزن حزنا عميقا ، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير ، ولكنه قال :

— إنه التعصب ، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع !

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم ، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعي ، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة ، وقال :

— ها هم يرجعون إلى موقفى الذى اتهمت به عندهم !

فقال الدكتور صادق عبد الحميد :

— وفى ظروف مختلفة تماما !

وتولوا مناصب رئيسية فى الدولة والصحافة تاركين إياه — نسبيا — فى القاع ، فلم تخل نفسه من امتعاض ، وأفلت منه ذلك القول مرة :

— أخشى أن يكتشف الكتاب يوما أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضا !

ولم يعد يجد فى الصحافة الراحة النفسية التى نعم بها طويلا . فطلب العودة إلى التدريس بالجامعة ، وسرعان ما حققت له رغبته . ولما وقعت الواقعة —

هزيمة يونية ١٩٦٧ — تزلزل كيانه كالجميع ، وشدته إليها موجة النقد العاتية فغطس فيها وقب ، ولكنه لم يكتب كلمة في الموضوع بالرغم من أنه كان يكتب نظرات أسبوعية في مجلة سياسية . وأشهد بأنه كان من أوائل من تابوا إلى التوازن بل لعله كان أولهم ، ففي أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذى حلل به الهزيمة ، فاعتبرها درسا ، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس ، وأكد في النهاية حقيقة ما زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها ، لا سيناء ولا القدس ، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر . وفي الأعوام التى تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع « من الهزيمة نبدأ » ، وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة ، وقد شهدته وهو يعمل في وحدته بالاتحاد الاشتراكى بهمة مذهلة ، كما استمعت إليه في التلفزيون مرارا . وهو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية ، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية . وإشادتي به كانت بلا شك من أسباب إغضاب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر . ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوه مرة بكتاب « من الهزيمة نبدأ » فقال يبرود :

— طالما احترمته ولكنه لم يعد إلا المعادل الموضوعى المدنى !  
أما ثابت عجلان فسمى الكتاب « من الانتهازية نبدأ » وجعل يضحك ويقول :

— حسينا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمى شاکر ، يا بلد الاحتفال بالإسراء والمعراج فى عصر الهبوط على سطح القمر !  
ولكن الدكتور عزمى ما زال ثابتا فى إيمانه وصدقه ونشاطه .

## عزيزة عبده

عندما قدمنى لها الدكتور زهير كامل فى صالونه لم أكن أسمع باسمها لأول مرة ، لعلى اطلعت عليه فى مجلة أو جريدة . كانت بصحبة زوجها ، سمراء أنيقة القسمات خفيفة الروح ، قدرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا إنها فى الأربعين ، وكان ذلك فى عام ١٩٦٠ ، وهى وزوجها — فى الخمسين — فنانان تشكيليان ، وقد دعيتانى إلى مسكنهما فى مدينة الأوقاف فاطلعت على معرضهما الدائم ، ودهشت وأنا أتقل بين لوحات واقعية فى زمن ندرت فيه الواقعية وطغى التجريد ، بل كانت واقعية ذات أهداف واضحة ، وقلت مداعبا :

— أخيرا أظفر بفن رجعى !

ولكنها قالت باحتجاج عذب :

— أمامك فن تقدمى ، بل الفن التقدمى الوحيد !

ونشأت بينى وبينها مودة عميقة ، وكما أقنعتنى بفنها أقنعتنى بأمونتها الصداقة لابنين ، ولكنها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذى لا يحب الارتباط ، والذى يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان . وكانت مثقفة جدا ، وتعتبر هى وزوجها من ذوى الميول اليسارية ، ولكنها كانت تشعرنى دائما بقوتها بخلاف زوجها الرقيق ، القشة التى تتلاعب بها أخف الرياح . واصططحت معى الأستاذ يوسف بدران محرر إحدى الصحف الفنية إلى بيتها بناء على اقتراح منها ، فلاحظت أنهما تفاهما تفاهما روحيا عجيبا وسريعا ، وأنهما تبادلوا احتراما ومودة .

وذهبت يوما لزيارة يوسف بدران فى شقته بشارع قصر العينى ، وجلسنا نتحدث وأنفاسه تتردد على وجهى معبقة برائحة الخمر . وما لبث أن فتح باب حجرة النوم فخرجت منه عزيزة عبده مرتدية إحداى

بيجاماته ! . دهشت وارتبكت ولكنى واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت  
بعدم المبالاة . وشجعتنى على موقفى بضحكاتها العذبة وحديثها الطبيعى .  
وكانت أنفاسها تنفث أيضا شذا الخمر .  
وتكلمنا فى شئون كثيرة أما وجودها فى الشقة بالحال التى وجدت عليها  
فمضى دون ضوء أو تفسير كأنه حقيقة مسلم بها . وقال لى يوسف بدران فيما  
بعد :

— هكذا وقع الحب علينا من السماء !  
فقلت له :

— أنت تحب الغزل !

— ولكنها كانت البادية ..

فرميته بنظرة شك فقال .

— صدقنى ، وسيطرتها أقوى من جمالها ..

— تحبها ؟

— هى تحبني وفى ذلك ما يكفى .

— وأنت ؟

— هى كنز لا يستهان به ولكنها لا تعكس الأسلوب الذى أعشقه !

— وزوجها ؟

— لا أهمية له فى الموضوع !

والتقيت بها بعد ذلك فى صالون جاد أبو العلا ، وكانت وحدها إذ كان  
زوجها فى الإسكندرية ، فطلبت منى أن أوصلها إلى بيتها ، وسرنا معا فى الطريق  
فإذا بها تقول :

— أنا حريصة على صداقتك .

فقلت بصدق :

— وأنا حريص على صداقتك .



— ولا صداقة بلا احترام .

— وإني أحترمك .

— أكاد أقرأ في نفسك تساؤلات محيرة ..

— لست قليل الخبرة كما قد تظنين .

— ولكن قد يبدو لك زوجان شاذين لنظرتكما المغايرة للدنيا والحرية ؟

— لا أظن ..

— أنا لم ولن أمارس الخيانة !

— لا تسيئي الظن بفهمي يا عزيزتي ...

وحدثتني عن ماضيها فقالت إنها التحقت بالمدرسة الثانوية وهي مزودة بإرشادات أمها الطيبة المرددة لصوت الجيل السابق ، ولكنها سلمت نفسها لأول شاب بادها الحب وهي تظنه سيفي بوعوده ، ثم كررت ذلك مرارا ، بدافع الثورة حيناً وبدافع اللهو حيناً آخر وبدافع الحب في بعض الأحوال .

— وكنت أشعر بالخوف أحيانا ولكني لم أشعر بالندم قط ..

وتوقفت عن السير متأثرة ثم قالت :

— أصبحت سيدة نفسي ، وتحديث العالم كله ، بكل قيمه التي لم أعد أؤمن بها ...

وواصلنا السير وهي تقول :

— وآمنت دائما بأنني نقية مثل الأوكسيجين .

ولما حم الافتراق شدت على يدي وهي تقول :

— نحن أمل المستقبل الحقيقي !

وبعد سنوات من تعارفنا اعتقل زوجها فيمن اعتقل من الشيوعيين ، فحزنت حزنا عميقا شاملا ، ونهضت بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين جديد . وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد وسيلة للاطمئنان عليها إلا التليفون . وسألت يوسف بدران عنها فقال لي :



— علمى علمك ...

فسأله بدهشة :

— ألا تتقابلان كالعادة ؟

— قطعت العلاقة منذ اعتقل الرجل .

— حقا ؟

— إنها غريبة الأطوار ولكنى غير آسف .

انقطعت عنها فلم أعد أتذكرها إلا لمناسبة . وزرتها بعد ذلك بسنوات — بعد

الإفراج عن زوجها — للتهنئة . كان ابناها طالبين في الجامعة وكانت ابنتها في

السادسة . ودب النشاط في حياتها مرة أخرى ولكنها لم تصل ما انقطع من أسبابها

بيوسف بدران الذى تزوج في تلك الفترة من مهاجرة فلسطينية مثقفة . ويوما

كنت ويوسف في زيارة للجبهة الشرقية ضمن مجموعة من المواطنين ، وجاء ذكر

عزيزة فسألنى :

— أرايت ابنتها الصغيرة ؟

فقلت :

— نعم ، وهى جميلة جدا !

فهمس فى أذنى بهدوء :

— إنها ابنتى !

فقلت بذهول :

— كلا !

— هى الحقيقة !

ثم قال :

— حاولت إقناع عزيزة بإجهاض نفسها ولكنها رفضت ...

— متى كان ذلك ؟

— فى الأيام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل .

— ولم رفضت ؟

فصمت قليلا ثم قال :

— قالت لى لقد أحبيتك حبا لم أحبه أحدا من قبل وسأحتفظ بشمرته !

— رغم أنها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله !

— وزوجها هل يعلم ؟

— لا أدرى ..

وتفكرت قليلا ثم قلت :

— الحق أن البنت تشبهك !

— أجل ، ولذلك أحرص على تجنب رؤيتها !

وبحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أول نجاح حقيقى فى حياتها الفنية

بنجاح معرضها ، واعترف بها كفنانة مصرية أصيلة ..

## عشماوى جلال

يقع بيته فى شارعنا عند طرفه الشرقى المتصل بشارع العباسية ، وهو بيت رمادى اللون ، مكون من طابقين ، وحديقة شبه مهملة لم يبق من زرعها إلا ياسمينه ونخلتان وشجرة مانجو شائخة . وكلما مررت به ألقىت عليه نظرة مشحونة بحب الاستطلاع والنفور كحال سكان شارعنا جميعا . وأنا جديد طارئ على الحى ، وفى فترة التعارف والاستكشاف ، أشار صديق — لعله رضا حمادة — إلى البيت وسأل :

— أتعرف بيت من هذا ؟

فأجبت بالنفى طبعاً فقال .

— بيت عشماوى بك جلال !

وسرحت لحظة كالمذهول ثم هتفت :

— عشماوى بك جلال ؟!

— بنفسه ودون غيره !

— قاتل الطلبة ؟

— قاتل الطلبة !

— وهل ترونه ؟

— لا يعلم أحد بمكانه ، لا هو ولا أهله ، يخافون جمعية الكف السوداء ،

ولكن هذا هو بيته ..

— أكانوا يقيمون هنا ؟

— نعم .

— ومتى هجروا البيت ؟

— مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين ...

اقترن اسم عشناوى جلال بالرعب فى وجدانى منذ طفولتى . كان ضابطا كبيرا بلواء الفرسان بالجيش المصرى . واستحق بجدارة أن يوصف بأنه العدو الأول لثورة ١٩١٩ فى الجيش المصرى . وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنه يقتل بلا رحمة ، ويعذب ضحاياه فى ربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيته يسحل خلفه مرتطما بالحصى والأسفلت حتى تفيض روحه . ولما تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أجاله إلى المعاش ، فتسلل عائدا إلى بيته المهجور بشارعنا ، وقبع فيه لا يبرحه كأنه سجن . وددت كثيرا أن أراه ولو مرة ، أجلت البصر فى النوافذ والشرفات والحديقة ، لمحت زوجته وابنتيه ولكنى لم أره أبدا . وكان اختفاؤه مثار الأحاديث ، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر فى نافذة ولا يتمشى فى الحديقة ، وتعرض المناسبات فى الشارع فلا يزور ولا يجامل ، فكيف يمضى وقته ، وكيف يطيق سجنه ، قال جعفر خليل :

— إنه ينفرد بنفسه لأنه لا صديق له .

وقال رضا حمادة :

— إنه يخاف انتقام الشعب ...

وقال سرور عبد الباقي :

— يقال إنه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت

الناس به .

وكان له ابن وابنتان ، فأرسل ابنه إلى إنجلترا لياشر دراسته الثانوية خوفا عليه من انتقام الطلبة فى القاهرة . وسمعنا فيما بعد أنه التحق بكلية الطب فى لندن ثم عمل هناك طبيبا وتزوج وتجنس بالجنسية الإنجليزية . وأما البنتان فكانتا تلعبان فى حديقة البيت ، وكانتا وسيمتين جذابتين فعجبت كيف ينبج الوحش مثلهما ، ولما حجبا — عند الشباب — كان عزفهما على البيان يترامى إلينا فى الشارع ، فعجبت مرة أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان ، وحوالى عام

١٩٣٥ تزوجتا من عريسين مجهولين ، ولم يعد في البيت إلا الرجل وزوجته ، ثم شاع في الحى أنه هجر بيته تاركاً زوجته وحدها ، وقيل — وأكدت زوجته ذلك — أنه أقام في الأسرة في الحجرة المعدة لاستقبال زوار المقبرة في المواسم وأنه أوصى بأن يدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال ، وكانت زوجته جميلة وطيبة ، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته إلى المدفن ، فزارت الجيران ، واكتسبت ودهن بيسر ، وأصبح لها مكانة مرموقة في الحى ، وكل ما عرف عن الرجل الوحش عند ذلك فمرجعه إلى رجال الجيل السابق من قدامى سكان الحى ، قالوا عنه إنه كان غلاماً منطوياً على نفسه ، ولكنه كان مهذباً ، ورغم اجتهاده فشل في دراسته حتى اضطر أبوه — وكان ناظر وقف صغير — إلى إلحاقه بالمدرسة الحربية وهو ساقط ابتدائية . متشفعا بصداقته لهربت باشا ناظر المدرسة في ذلك الوقت . ولدى تخرجه عمل في السودان . فأثبت في الخدمة كفاءة حازت تقدير الإنجليز وخدمت سياستهم الموضوعية بحذق في جباية الضرائب بقسوة لتنفيذ المواطن السودانى من الضابط المصرى ، ومن ثم نشأت بينه وبين الضباط الإنجليز صداقة حميمة . وكان عشناوى جلال يعجب بالإنجليز إعجاباً فاق الحدود ، ويحبهم حباً عظيماً ويتيه بصداقتهم ويعتدها عزته الأولى في الحياة . وكان يمضى إجازته السنوية في إنجلترا سائحاً ومستطلعاً حتى آمن بأن الإنجليز هم سادة البشر وأنهم المبعوثون من العناية الإلهية لتمدين البشر وخاصة المتأخرين منهم كالمصريين . وأخبرنى رضا حمادة أنه بسبب آرائه احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يوماً حتى تبادلوا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودة والجيرة .

ولما قامت ثورة ١٩١٩ دعى الجيش المصرى لمساعدة جيش الاحتلال في قمع الثورة والقضاء على الثوار ، ولكنه لم يحز الثقة أبداً ، وافتضح تعاطفه مع الثورة ، وولأوه لزعيمها ، بل وتصديه جهاراً للدفاع عنه عندما تأمر أعداؤه على الغدر به . ولكن شذ عن ذلك عشناوى جلال باندفاعه الجنونى في الهجوم على الثوار

والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حتى فاق الإنجليز أنفسهم في عنفهم وقسوتهم ، وحتى احتل في قلوبهم منزلة لم يحتلها مصرى من قبل . وأبغضه مواطنوه حتى الموت ، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأن إخلاصه كان وقفا على سادته الإنجليز لا عليه ، وبذلت محاولات لقتله لم تكلل بالنجاح ، وإن أصابته شظية قبلية وطنية إصابة سطحية في ساقه . ولم يكثرث الرجل لموقف الشعب منه ، وتمادى في ضلاله كأنما كان يؤدي فريضة دينية . وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها إن والدها طالبه يوما بالاعتدال وأنه قال له :

— قم بواجبك بلا تورط في الأعمال المتطرفة ..

فقال له :

— إني لا أقوم بواجبي كضابط فحسب ، ولكنى أدافع عن مبدأ ، فأني أعتقد أن استقلال مصر عن إنجلترا سيؤدي بها إلى الانحلال والفساد ، وأنا إذا خرجنا من الإمبراطورية خرجنا من الحضارة !

وتوفيت زوجته بالسكتة قبيل الحرب العظمى الثانية فدفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد في حجرة استقبال المدفن . ولحق بها في العام الأول من الحرب بعد أن تمكن منه تليف الكبد ، ومن العجيب أن اسمه لم يمح من ذاكرة جيلنا حتى اليوم ، وأن الكثيرين ما زالوا يحفظون الأغنية الشعبية التي وضعت بقصد التشهير به .

## عصام الحملأوى

كان بيت آل الحملأوى يطل على شارعنا بضلع كما يطل على بين الجنأين بضلع آخر . وهو أكبر بيوت الشارع ، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات ، وبتراءى من فوق أسواره العالية رعوس النخيل والمأنجو بكثرة مذهلة . وكان ربه عصام بك من الأعيان والمضاربين فى البورصة . وكانت أسرته تتكون من زوجة وثلاث بنات . وكان الحنطور يحمله فى الذهاب والإياب معلنا برنين جرسه عن تحركاته . ولم تكن الأسرة تنتسب إلى زماننا ، ولا ألوانها البراقة تنتمى إلى جنسنا ، وهى وحدة كانت مستقلة بذاتها ، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران ، فلا تزور ولا تزار ، ولا تتبع تقليدا . ولا تحترم موسما ، وإذا خرجت الأم وبناتها — راكبات أو راجلات — خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراتهن العاجية وشعورهن الذهبية وعيونهن الملونة . وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا إلى بيته ممثلة مشهورة ، وعندما مضت تردد عليه فى أيام محددة . وسرعان ما عرف أنه اتخذها عشيقة . بل نشرت مجلة الفن أنه أهدى إليها عقدا ثمنه عشرة آلاف جنيه . وكنا نتجمع فى الشارع لنشهد مقدمها واستقبالها ونسعد بذلك حتى قال جعفر خليل :

— نحن نشاهدها بالمجان أما بقية المسرحية فلا يمكن تخيلها !

وتساءل خليل زكى :

— كيف يتصرف البك القواد أمام زوجته وبناته ؟

فقال سيد شعير :

— يتصرف أمامهن كما يتصرفن أمامه !

وكان بيت سيد شعير أقرب بيوتنا إلى بيت آل الحملأوى ، وكان آل ( المرايا )

الحملاوى يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى ، فجاءنا يوما وهو يقول :  
— انكشف الغطاء !

والتفنا حوله متلهفين فقال :

— الهانم تعشق محمد الكواء !

— محمد الكواء !

كنا نعرفه تماما فهو كواء الشارع ، وإلى ذلك كان فتوة كما كان أعور ، ولم  
نتصور أن الهانم الجميلة التى كنا نشبهها بمأى موراى يمكن أن تعشق ذلك الأعور  
ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح . وقال سيد شعير :

— وهى تذهب إلى بيته متخفية فى الملاءة اللف ، رأيتها بعينى !

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكواء يحمل الملابس بنفسه ويذهب بها  
إلى البيت فلا يغادره إلا بعد ساعة أو ساعتين . وحدث أن اصطحب عصام بك  
الممثلة إلى رحلة خارج القطر فكان الكواء يتردد على البيت لمناسبة ولغير ما  
مناسبة ، ومضى بيت فيه جهارا وبلا حذر . وفى أثناء ذلك كان البنات الثلاث  
يخرجن معا إلى أطراف العباسية الشرقية فيقابلن المعجبين ، أو يستقبلنهم مساء فى  
حديقة البيت ، ورأيت بين أولئك عيد منصور وشعراوى الفحام وقريبى أحمد  
قدرى وضابط قسم الوايلى وطبيب أسنان الحى ومدرس فرنسى ! . وتوهمنا أن  
واجب الرجولة يطالبنا بالتحرش بالبيت وبالترددين عليه ولو بالقذف بالطوب  
من بعيد لصغر سننا ولضعفنا ولكن شرطيا انبرى لحماية البيت ، ربما بإيعاز من  
ضابط القسم العاشق . وكنت إذ ذاك غارقا فى حب صفاء فغضبت أضعافا على  
سلوك بنات عصام ، واعتبرته زراية وتلويا لأسمى عاطفة فى الوجود . ولكن  
بدءا من عام ١٩٣٠ حدث ما خيب تقديرات أهل الحى جميعا . فقد تزوجت  
البنات الثلاث تباعا ، وفزن بزيجات ممتازة ! . تزوجت الكبرى من مهندس ،  
والوسطى من سكرتير وزير ، والصغرى من محام ناجح . والأعجب من ذلك  
أنهن قاطعن حياة بيتن مقاطعة شاملة فكون أسرا كانت مثالا فى التوفيق



والاستقامة ! . وفي الخمسينيات وما بعدها صادفت بعضا من أبنائهن من الشباب الموفق الناجح ، ومنهم من عرف بالوعى السياسي التقدمي ، وقد توفي عصام بك في أيام الحرب العظمى الثانية . في نفس الأسبوع الذي قتل فيه شعراوى الفحام . ووزعت التركة فورثت الهانم دخلا كبيرا ، وكانت في الخمسين من عمرها ولكن حيويتها فاقت سنها ، كما احتفظت من جمالها بقدر موفور . ومكثت في البيت وحدها ، وأصبح من النادر أن تزورها إحدى بناتها ، وذهبنا في تفسير ذلك مذاهب لا تخلو من سوء . والواقع أن علاقتها بالكواء كانت وما تزال مستمرة . ولكن بدا أن الرجل أراد التخلص منها ، حتى أنه صفعها مرة أمام دكانه وعلى مرأى من بعض الخدم وهي تحاوره بما لم يسمعه أحد . ولم تمض أسابيع حتى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصاب ، حتى قال جعفر خليل ضاحكا :

— الولية أرسقراطية ولكنها ذات ميول شعبية !

وفي أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحى . ولكنها لم تغب عن ناظرى طويلا ، إذ كانت ترى جالسة في مقهى اللواء أو جرونى أو الأرجنتين ، تشرب كأسا ، ثم تمضى وقد اصطادت شابا ، حتى اشتهرت بذلك في وسط المدينة . ورأيتها في أثنيوس بالإسكندرية تلعب نفس اللعبة . وتغيب فترة — طويلة أو قصيرة — ثم تظهر مرة أخرى في نفس الأمكنة لتلعب نفس الدور ، هذا والكبر يزحف والذبول يستفحل والفخامة تقل مما قطع بأن نقودها تنفذ مثل أيامها . وكلما رأيتها من جديد أدركت أنها تتدهور وتقترب من النهاية المحتومة . لم تعد إلا عجوزا معدمة أو شبه ذلك ، وسارع إليها الانحلال والتفسخ . وامتنعت عن الذهاب إلى تلك الأماكن الفاخرة أو اضطرت إلى ذلك . فقنعت بالتجوال في الشوارع في ملابس رثة ممزقة ، ثم لم تعد تظهر إلا في جلاباب وشبشب ، وانتهى بها الأمر إلى التسول أو ما هو قريب من ذلك . لم أرها تمديدا ولكن بعض أصحاب المطاعم الصغيرة ممن وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدقون عليها بالسندوتش أو ببعض النقود . وما زالت كلما لمحتها

أستشعر رجعا من الأسى وأستقبل فيضا من ذكريات الشارع القديم بالصورة التي  
كان عليها على عهد الفوانيس المدلاة من أعالي الأبواب والحقول المترامية والهدوء  
الشامل ، تلك المرأة التي راحت ضحية لنهم جنوني بالحياة . والتي يسعى من  
حولها أحفادها الناجحون وهم على جهل تام بأشجانها ووحدتها ...

## عيد منصور

من مجموعتنا العتيدة ، صادقها وصادقته ، واتصلت بيننا الأسباب على مدى العمر ، ولكنه كان وما زال الصديق بلا صداقة . وكان وما زال بلا قلب ، حتى خليل زكى له قلب وحتى سيد شعير له قلب ، أما عيد منصور فلا قلب له . وكان يعيش مع أبيه وخادم عجوز ولا رابع لهم ، أما أمه فماتت عقب إنجابه مباشرة . وكان أبوه تاجر عمارات ، عمل مع اليهود طويلا ، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم . وكان عجوزا فقد أنجبه وهو فى الخمسين ولم يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته فكان عيد وحيدة ، وكان بخيلا ، دقيقا ، فظا ، جامد المشاعر فربنى ابنه تربية شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة . مصمما على إخراجه على نمطه ، فلم يعرف صديقنا المعاملة العاطفية ولا جرب الحنان أو الرحمة ، كأنما كان يتكون فى معسكر لإعداد الإرهابيين . لذلك تجلت مواهبه منذ سن مبكرة ، فنشأ عمليا ، صارما ، ذا عقل نفعى ، وبلا قلب ، وما زال كذلك حتى اليوم والغد . ومنذ الصغر اتخذ من القرش معبودا ومقياسا للرجولة والتفوق ، ولم يتسع قلبه إلا لذلك المعبود الأوحى . وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة . صديق بحكم الجوار والزمانة واللعب وعشرة العمر ولكن بلا عاطفة ولا مودة ولا حب حقيقى ، يضحك للكارثة كما تضحك للنكتة ، فلم يعلن أى تأثير لموت شعراوى الفحام ولا لموت جعفر خليل ، ويوم قتل زميلنا بدر الزياى فى الإضراب لم يكن يخفى ارتياحه لخلو الميدان من منافسه فى رئاسة فريق الكرة ، ولما شعر يومها بعينى تحرقانه عض على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية فقلت له :

— أنت شيطان !

فهمس فى أذنى :

— ربنا يسمع منك !

ثم بمزيد من السخرية :

— لا فرق بينى وبينكم إلا أننى صادق غير منافق !

واعتماد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة تقاليدنا وديننا وأشواقنا ،  
بحكم تربيته ومزاجه وبلا دخل من تفكير أو فلسفة ، وبلا دافع من الفساد  
والشقاوة كما كان الحال مع خليل زكى وسيد شعير ، فلم تحتشد قواه إلا للعمل  
والربح ، وحدهما ، حتى الجنس وهو الترفيه الوحيد الذى مارسه لم يشغل إلا  
هامش وقت فراغه . وما إن حصل على البكالوريا عام ١٩٣٠ حتى أشركه أبوه  
فى العمل ، وظل يدربه حتى مات عام ١٩٣٥ مخلفا عليه ثروة طائلة . ورغم  
مغامراته فى حديقة بيت آل الحملاوى فلا أعتقد أنه تعلق بامرأة مثلما تعلق بثرىا  
رأفت ، رآها وهو يعمل مع والده فاندفع فى إغرائها ، وقد قال لى :

— مرى وقت وقعت فيه تماما تحت سيطرتها ولو تمنعت على تماما حتى النهاية

لربما ...

وسكت فسأله :

— لربما تزوجتها ؟

— على الأقل كنت فكرت فى ذلك ...

فسأله :

— ألم تحزن أو تنجل من الغدر بها ؟

فقال وهو يضحك :

— لا أظن ...

لم يعرف الحب . ولا رغب فى الزواج ، ولا حن إلى الأبوة ، وحتى اليوم  
وهو فى الستين أو جاوزها بقليل ما زال يعمل بنفس الهمة ويجمع المال بنفس النهم  
ولم يعرف للحياة غاية أخرى . وكنت أضييق به إذا سخر من عواطفنا الوطنية كما  
ضقت به يوم سخر من بكائى لوفاة سعد زغلول ، ولكنه كان يستهين بكل ذلك

ويقول :

— لولا الإنجليز ، لولا اليهود ، ما كان لهذا البلد حياة !  
وظل يردد ذلك حتى آخر يوم للإنجليز في مصر . ومع أنه كان بخيلا كأبيه إلا  
أنه استن سنة جديدة في البخل ، فقرر ألا ينفق مليما لغير ما ضرورة بشرط أن  
يهيئ لنفسه حياة رغدة .

— أنا أعزب وسأظل أعزب وبلا وريث فيجب أن أتمتع بحياتي ...  
طالما احتقر الزواج واعتبره عجزا وغباء ، ويبدو أنه لا يندم على قرار اتخذه  
أبدا ، وكلما تقدم به العمر نعم برضاه عن نفسه وعن قراراته . ومنذ عام ١٩٣٦  
غادر حيناً بعد أن باع البيت ، وأقام في فندق ميناهاوس إقامة دائمة مفضلا  
الفندق لما يوفره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم المسكن المستقل المتنوعة ،  
وفي الوقت نفسه استأجر بيتا ريفيا في الهرم لمغامراته النسائية المتقطعة ، إذ لم يكن  
يحب العلاقات الطويلة ويفضل غواني الملاهي الليلية من الأجانب ، ولم يرض  
على نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تام في الخمر ونفور طبيعي من  
المخدرات . وكان يقضى ليلته في سمر تجاري مع العاملين معه في حقل تجارة  
العمارات ولكنه لم ينقطع عنا في ليالي سهراتنا الأسبوعية . وكان يهيمه أن يقارن  
بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا أمثال الدكتور سرور عبد الباقي والأستاذ رضا  
حمادة ، ولم يخف إدلاله بالتفوق عليهما في الثروة التي يعتبرها القيمة الأولى  
والأخيرة في الحياة ... وقد داعبته يوما قائلاً :

— ها هو خليل زكي ينافسك في النجاح والثروة !

فقال باحتجاج :

— إنه قدر حقير .

فسأله :

— تعتبر نشاطك المالي نشاطا شريفا ؟

فقال بصراحة معهودة فيه :

— الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى ، قد أقوم بصفقة تعتبر في نظرك نهبا  
ولكننا نعتبرها خبرة وذكاء ولكنى أحتقر أساليب خليل زكى التى تعد من خبرة  
الفقراء !

وأحبته غانية أفرنجية ، ومضت تراسله ، فكان يقرأ علينا رسائلها ساخرا  
ويقول :

— هكذا تتوهم المرأة أنها تحب إذا رغبت فى الاستحواذ على رجل وامتلاكه !  
وتجلت عواطفه العامة فى أبشع صورة يوم نشبت الحرب بيننا وبين اليهود عام  
١٩٤٨ . حتى خيل إلى أنه يكره وطنه لأسباب لا أدريها ، أو أن مصالحه  
التجارية أفسدت عليه الميول التى نعتبرها فطرية ، وتكرر ذلك الموقف منه عام  
١٩٥١ لدى إلغاء المعاهدة وكفاح القنال ، ولذلك كان يكره الوفد بالرغم من  
لامبالاته السياسية بصفة عامة ، على أن حياته واصلت مسيرها فى استقرار حتى  
قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ . ومع أن الثورة لم تقتحمه بصفة عامة إلا أنها زعزعت  
طمأنينته وأقلقت ثقته . توالى عليه الهموم بإلغاء النظام الملكى وإعلان الإصلاح  
الزراعى والجلاء . توثبت فى أعماقه غريزة الدفاع عن النفس ، وأدرك — وإن  
لم يكن هدفا مباشرا — أنه ضمن الجبهة التى تهب عليها العواصف وأنها قد تقتلعه  
عاجلا أو آجلا . وهيا له الاعتداء الثلاثى عملية نقل دم ولكن سرعان ما انطفأت  
شعلة الأمل ، واختفى من الميدان كثيرون من أصدقائه اليهود حتى قال لى يوما :

— كم أتمنى أن أهرب أموالى وأهاجر !

ولما قرأ الوجوم فى وجهى قال :

— لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكاء !

ثم ضحك ضحكته القاسية وقال :

— لو لم أكن مصريا لتميت أن أكون مصريا .

وتابع نشاطه بنفس القوة بالرغم من مخاوفه ، واسترد أنفاسه فى يونية  
١٩٦٧ ، ومع أنه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذهول إلا أنه لم يفقد

الأمل هذه المرة ، وقال لى بشماتة :

— لا مفر !

وقال أيضا :

— طبعا سمعت عن صحوة الموت !

ومرت أشهر ، وعام وعامان وثلاثة أعوام ، وتحسنت الأحوال ، وصليت الإرادة ، وتجددت آمال النضال ، ولكن ذلك لم يهزمه وإن أقلقه أحيانا ، واعتصم بفكرته الثابتة ، وغذاها بمتابعة الإذاعات المعادية ، والإشاعات المغرضة ، ولما وجد منى ومن رضا حمادة اتهاما لوطنيته قال :

— لا وطن بعد اليوم إلا وطن المصالح ، فإما أن تكون أمريكيا وإما أن تكون سوفيتيا ، إما أن تقبل الحرية والإرادة الخلاقة والإنسانية وإما أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكية !

فقد الأمل فى الإنجليز ، وأصبح حلمه الذهبى أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدد له مدارا حضاريا فى مجالها الحيوى يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا .

هكذا علمته المصلحة أن يتكلم فى السياسة ، وما زال يعمل ، يشيد العمارات ويبيعها ، يقيم فى ميناهاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة ، ويمارس الجنس كل شهر مرة . ويزورنا فى أوقات محددة تحية لعشرة نصف قرن ، صداقة بلا حب حقيقى ولا احترام ، نراه مخلوقا شاذا قد من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقية ..

## غانم حافظ

كان مدرس الرياضيات في المدرسة الثانوية ، وكان وقتها شابا ، عرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ في معاملته عن حدود الأدب ، حتى الذين عرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزیادی وعید منصور . طلبه عید منصور مرة لدرس خصوصی بعد أن أقنع أباه بأن أجره الدرس الخصوصی أرحم من مصروفات سنة إعادة . وقابل غانم أفندی حافظ والد عید فسأله الرجل عما یطلب فطلب ریالا فی الساعة ولكن الرجل فرع وقال إنه لا یدفع أكثر من شلن ، فابتسم غانم أفندی حیاء واقترح أن یعطیه الدرس مجانا بشرط أن یحضره مع تلميذ آخر فی نفس الحی ، وقد كان ، وتلقى عید منصور درسا خصوصیا فی الحساب مجانا طيلة شهرین ! . وقد رأیته وهو یکی يوم مصرع بدر الزیادی ، وكان جزأؤه منا حبا واحتراما . وبعد التحاقی بالجامعة عرفته عن کتب فی مقهى الحی ، فتحولت التلمذة إلى صداقة — وكان أهم ما یميزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة الملبس ، كان یجالسنا فی يوم واحد فی الأسبوع — وخاصة فی العطلة الصیفیة — یدخن النارجيلة ، یصفی فی أدب ومجاملة وقلیلا ما یتکلم . وكان یعالج شتى الموضوعات فی إطار طبعه الهادئ ، ومهما یکن من عنف الموضوع وشدة حرارته فإنه یتحول على لسانه همسا عذبا تحیطه هالة باسمة . لم یر غاضبا أو محتدا أو صارخا ، حتى السیاسة كان یرجمها حدیثا جذابا لطیفا غاية فی الوداعة ولو هو جم حزبه المحبوب الوفد . وإذا تصدی للدفاع قال :

— إنهم ناس طیبون !

أو یقول :

— مصطفی النحاس ؟ .. إنه رجل طیب مبارک !



وأقسى ما يذهب إليه في الدفاع أن يقول :  
— سأمحك الله !

واقصر نشاطه السياسى على ذلك ، وعلى التوجه يوم الانتخاب — إذا تقرر إجراء انتخابات حرة — إلى اللجنة لإعطاء صوته لمرشح الوفد . ولذلك لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ إلا بقلبه وحده . وكان جم التواضع ، لا ينجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقته ، فحدثنى مرة عن أصله قائلا :  
— كان أبى شرطيا ..

ثم قال :

— وكان همه أن يجعل منى شرطيا غير أن جارا لنا — تاجرا — نصحه بإدخالى المدرسة الابتدائية ، ففعل ، ونجحت نجاحا استحققت عليه المجانية حتى نلت البكالوريا ، ولم أجد مدرسة ميسرة أمامى إلا المعلمين فدخلتها ! .  
وتزوج من كريمة مدرس اللغة العربية وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائية .

— وكانت أسرة زوجتى على تواضعها أرقى من أسرتى فصادفتنى متاعب مؤسفة ..

ثم قال بشىء من الحزن وفى صراحة مؤثرة :

— كان الموقف يتطلب شخصا أصلب منى ! ، ولكن زوجتى أنجبت لى ثلاثة ذكور !

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه فى المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك إلا لعمل ، ومرت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع فى عشه يراقب الأحداث من بعيد ، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة ، مركزا على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكره ضابطا فى سلاح الفرسان ، والأوسط مهندسا ثم التحق بالجيش ، والثالث بيطارا . وقد نجا ابناه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره ، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠ ، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية

سعيدة . ولما احتشدت قواتنا في سيناء في أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء ، وراح يسأل كل من هب ودب :  
— حرب أم لا ؟

ووقعت الواقعة ، وانحسر الظلام عن شيء من النور ، فرجع الابن الأوسط مصابا إصابة غير قاتلة ، أما بكريه فاعتبر من المفقودين ، وهزته الصدمة من الأعماق . وتبدد هدوءه التقليدي فانهيار انهارا يدعو إلى الرثاء ، وكان يحب أبناءه كأم ، ورفض أن يصدق أن ابنه قتل ، وظل يحلم دائما بمعجزة تعيده إليه سالما . وما لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشفاء فعاد إلى الجبهة ، وبقي الرجل ممزقا بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل ، وهو يتابع أبناء الجبهة ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم ، ترجفه أخبار الغارات في الأرض والسماء ، ويخذه إيمانه رغم رسوخه ، ويزلزه حبه العميق لأولاده . وأراه أحيانا شيخا عجوزا محنى الظهر قليلا أبيض الشعر . يجلس شارد النظرة ، يفكر في المجهول ، لا يبشر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة ، فأحтар طويلا بين العتب عليه والرثاء له ، ثم أنضم إليه مواسيا ، ثم تتبادل التخمينات عن الغيب .

## فايزة نصار

تعرفت بها في بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالى عام ١٩٦٠ كما تعرفت بزوجها في نفس الزيارة . كانت في الثلاثين ، لوجهها طابع ريفى رائق بالرغم من أناقتها العصرية . وهى وإن تكن متوسطة الجمال إلا أنها ذات جاذبية جنسية قوية ، أما زوجها — عبده إبراهيم — فصاحب جراج في الخمسين ، بدين مترهل خامل المظهر ، يشترك في الحديث بالنظرة أو الابتسامة البلهاء ولا يكاد يتكلم .

قال لى عجلان :

— إنها جارتنا في نفس العمارة وصديقة زوجتى .

فقلت :

— زوجها غير مقنع !

— ولكنه ذو دخل محترم ، أنجب منها طفلين ، وهى أم لا بأس بها وإن تكن

أمية !

— تبدو ذكية ..

— فى الأصل كانت ابنة بياعة جبن وزبدة ، ولكن استعدادها للتأقلم قوى ،

وهى تتقدم بفضل الإذاعة والتلفزيون والصديقات ..

وفى زيارة تالية لبيت عجلان ثابت قابلت فايزة نصار وكانت بصحبة رجل

أربعينى حاد البصر قوى الجسم علمت أنه يدعى جلال مرسى وأنه صاحب

كازينو الهرم . وقال لى عجلان ثابت باستهتاره المعروف :

— فى المرة السابقة عرفت زوج فايزة وها أنت تعرف فى هذه المرة عشيقها !

وضجت الحجرة بالضحك ، زوجة عجلان وفايزة وجلال صاحب

الكازينو ، وقال جلال :

— لا تصدق !

فسأله فائزة بنبرة وعيد :

— هل تنكرنى ؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لى :

— صدق يا سيدى ..

قال عجلان ثابت :

— وهو صديق الزوج !

ودعنتى فائزة لزيارة بيتها فتوطدت العلاقة بينى من ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى . وذهبت فى صحبتها مرات إلى كازينو الوادى فكان ينضم إلى مائدتنا جلال مرسى ، ولمست مدى عمق العلاقة بينه وبين الزوجين . ولم أقطع برأى فى مدى معرفة الزوج بالعلاقة بين زوجته وعشيقها ، وحتى عجلان ثابت لم يعلم أكثر مما أعلم ، ولكنه قال لى :

— تعود على هذه العلاقات حتى تبرأ من عبوديتك البرجوازية .

ومرة وكنا مجتمعين فى بيت عجلان أنا وعجلان وزوجته وفائزة . فأشار إلى دون تمهيد وبلا مناسبة وقال لفائزة :

— إنه يعانى من عشقه لك !

وانتقلت إلى جانبى بخفة وطوقت عنقى بذراعها السمراء البضة وقالت :

— أرنى !

فقال عجلان ضاحكا :

— بهوادة حتى لا يفرع .

فقلت :

— ولكن تحت شرط .

وسألها عن الشرط فقالت :

— ليلة واحدة...

ثم وهى تنظر فى عينى :

— المرأة الفاضلة يكفيا زوج وعشيق واحد !

هكذا كانت فى مزاحها ، ولكنها — فيما علمت — كانت تحب جلال حبا حقيقيا . وكانت فى الوقت نفسه تحرص على نقاء بيتها وتربية طفلها تربية حقيقية ، وقال لى عجلان :

— إن ما يتعبها حقيقة هو طموحها ، فبالرغم من أميتها تحلم بأن تكون شيئا عظيما !

فتساءلت :

— لعله المال !

— حياتها رغبة ، ولكنها تحب المال ، وشيئا أكثر من المال ..

— أى شيء ؟

— الفن إن صدق تخمينى !

ثم قال لى :

— كلفت أن أدعوك لزيارتهم معى ..

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال :

— يبدو أنه أمر هام ، وسنعرفه فى الحال .

وجدنا فائزة وزوجها وعشيقها فسلمنا وجلسنا ونحن نشعر بأن توترا ما

يكهرب الجو والوجوه ، وسرعان ما قالت فائزة :

— المسألة وما فيها أن أحد المخرجين عرض على دورا هاما فى فيلمه القادم !

ونظرت فى وجوهنا وقالت :

— ما رأيكم ؟

ولما رأيت عينيها تطارداننى قلت :

— المسألة تتعلق بك وبالسيد عبده أولا وأخيرا .

فقال عبده إبراهيم وهو يرفع وجهه ليجد للكلام ممرا خلال لغده :

— سيدات العائلات يمثلن فى هذه الأيام ..

ولكن جلال مرسى تساءل :

— أود أن أعرف كيف ومتى رآك ، ذلك المخرج ؟

فأجاب الزوج :

— وأنا ونحن عندك ليلة فى الكازينو ..

— وهل تجلت له موهبتها من النظرة الأولى .

— هذا شأنه لا شأننا .

فقال جلال :

— كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذلك الميدان .

فسأله فائزة وهى تبدو سعيدة رغم التوتر العام :

— لم ؟

— لم تظهرى فيما سبق أى اهتمام بالفن .

— لم توجد مناسبة .

— إنه لا يولد فجأة ولا لمجرد أن مخرجنا اقترحه ...

— بل هكذا يولد .

فقال الزوج :

— أظن ذلك .

فقال جلال بحدة :

— إنهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله .

فقال عجلاً ثابت :

— لوجه الفن .

فقال جلال :

— ولا لوجه الفن !

فقالت فائزة :



( المراهبة )

— لست قاصرا !

وقال الزوج :

— إنها أهل للثقة .

فقال جلال بإصرار :

— كصديق مخلص لكما لا أوافق .

فقال الزوج :

— هذه فرصة لا يجوز إهمالها ..

ووافق عجلان على رأيه كما وافقت أنا وكأثما كانت مؤامرة بلا تدبير سابق ،

وقام جلال مرسى فحيانا ومضى وهو يقول :

— قلت رأيي وأنا مصر عليه .

وقال عجلان بخبث :

— عليك أن تقابل المخرج في أسرع وقت ...

وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له :

— عبده إبراهيم بكل شيء يعلم !

فضحك عاليا وقال :

— وانتز الفرصة فوجه إلى غريمه ضربة موفقة .

— ولكنها ماذا ستفعل فيما ترى ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

— إن صح ظنى فطموحها أقوى من عشقها !

وصدق ظنه . قامت بتمثيل الدور . وكانت مفاجأة فنية لا يستهان بها ،

ودعيت إلى تمثيل دورين جديدين .

وهجرها جلال فلم تسع لاسترداده . ومالبت زوجها أن يطلقها بحجة حماية

بيته وطفليه من الجو الفنى الذى أخذ يغزو بيته ، ودل بقراره ذلك على أن حموله

لم يكن إلا قشرة تخفى وراءها حقدًا طويلا . وانتقلت فائزة إلى شقة صغيرة وأنيقة



بالزمالك . وقد زرتها يوما بصحبة عجلان فالتقيت عندها بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقتة الصحفية نعمات عارف زوجة الدكتور زهير كامل التي تخصصت أخيرا في النقد الفني ، ووجدت فائزة مرحلة كعادتها ، وسعيدة بالنجاح ، حتى قال لى عجلان ونحن راجعان معا :  
— محتمل أن نحن أحيانا إلى طفليها ولكنها ليست بالتي تنهار بسبب ذلك ،  
أعترف لك بأننى أسعد بنجاح أى فلاح أو فلاحه ، مهما يكن ثمن ذلك  
النجاح ! .

## فتحي أنيس

لفت نظري مذكرأيته في أول يوم التحقت فيه بالوظيفة . حسبته موظفا كبيرا أو سليل أسرة عتيقة ، وكم دهشت عندما تبين لي أنه كاتب القيد بالسكروتارية . كان في الثلاثين من عمره ، شهادة ابتدائية ، مرتب ثمانية جنيهاً ، متزوجاً وأباً لخمسة أبناء ، ولكنه كان طويلاً رشيقياً عظيم القسمات ، حتى قال لي الأستاذ عباس فوزي .

— انظر إلى عبث الطبيعة ، جادت عليه بمنظر يليق بموظف استقبال بالخارجية ولكنها ضنت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس .

وكان يقول عنه أيضاً :

— إنه حتى لا يرزق !

وكان مسئولاً عن أم وأختين مطلقتين ، فاستقبل أيام الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال . ولم يكن نادراً أن يقترب من عباس فوزي أو عبد الرحمن شعبان ويقول ببساطة :

— من يعطيني قرشاً أشتري به سندوتش فول وله الجزاء الأوفى في يوم

القيامة ؟

وكان إذا لمح أحداً من الأهالي في المشى الخارجى بادر إليه فيسأله إن كان في حاجة إلى خدمة يؤديها له عن طيب خاطر ، وفي الختام يسأله بلا حياء :

— هل أجد عندك سيجارة ؟

وعطف الأستاذ عبد الرحمن شعبان عليه يوماً فقال للأستاذ عباس فوزي :

— حال فتحي تستحق النظر .

فصدق الرجل على قوله وقال :

— العين بصيرة واليد قصيرة !

فقال عبد الرحمن :

— أسعفه بوظيفه يمكن أن تدر عليه رشوة !

فقال عباس فوزى باسم .

— يوجد فرص في المستخدمين والحسابات والمخازن والمشتريات ولكنه بدون

مؤهلات ..

فقال عبد الرحمن في شبه غضب :

— يوجد مديرون بالابتدائية .

— أعنى بالمؤهل الوساطة ويبدو أن أعظم من يعرف في الحياة هو عم صقر

الساعى !

واهتدى إلى وسيلة يستغل بها منظره في مقاومة الجوع ، فكان يتقدم إلى أسرة

ما كخاطب ، فيقابل بالترحيب من ناحية المبدأ حتى تتم الاستعلامات عنه ، وفي

الفترة الموضوع فيها تحت ، الاختبار يزور الأسرة فيستقبله رب البيت ، ويتعمد

البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء ، ولما يدعى للمائدة يلبي وهو يقول :

— لا يأبى الكرامة إلا لثيم .

ثم يأكل بوحشية وكأنما يخزن الطعام ليجتره بقية الأيام . ونجى ، نتيجة

الاستعلامات في غير صالحه طبعاً فيعتذرون من عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع

أكلات خيالية . ويواصل غزواته في أحياء المدينة حتى تسربت أنباؤها إلى

الموظفين فجعلوا منه نادرة تروى . وما ندرى يوماً إلا وهو يدخل علينا مرتدياً

جلباباً ! . وكان الأستاذ طنطاوى إسماعيل ما زال رئيساً للسكرتارية فاستدعاه

وسأله :

— ما معنى ذلك يا فتحي أفندى ؟

فقال ببساطة :

— البدلة استهلكتها تماماً ، قلبتها منذ ثلاثة أعوام فلم يعد بها رفق ، ولا

أستطيع أن أشتري زراراً !

فقال الرجل في حيرة :

— ولكن ذلك يخالف التعليمات !

فقال بثقة :

— لا نص في التعليمات على ذلك !

وتداولنا إن كان ذلك يجوز أو لا يجوز دون أن نهتدى إلى علاج . وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير الوفدى الجديد بزيارة تفتيشية . ولما رآه الوزير ظنه ساعياً فقال له :

— ألم يصرفوا لك بدلة الساعة ؟

فأجاب بإيمان :

— أنا موظف يا معالي الباشا ، ولكنى لا أملك ثمن بدلة جديدة !

فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتبته وعدد أولاده الذين بلغوا

التسعة عدا في ذلك التاريخ ، ثم سأله ضاحكاً :

— أليس لك هواية إلا الإنجاب ؟

فقال فتحى بجرأته المعهودة :

— أنا من شعب الوفد ولن أضام في عهدكم !

وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيتين ، ثم أدركته علاوة الغلاء التى تقرر

لأول مرة ، فاشترى بدلة ولكن حاله لم تتحسن إلا قليلاً . وذات صباح همس

لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

— أخيراً وفق ابن الشحاذة !

فسأله :

— فتحى أنيس ؟

— نعم .

— كيف ؟

— سيتزوج من أرملة غنية جدا ..

— حقا ؟ .. وجميلة ؟

فضحك قائلاً :

— عمرها ستون عاما ، وهى فى الجملة كالمومياء !

وصح الخبر كجميع أخبار عم صقر . وتزوج فتحي من أرملة عجوز تركية مستحقة فى وقف كبير ، وقيل إنه تزوج بموافقة زوجته الأولى إشارا لسعادة الأولاد على نفسها . وتغير حاله بصورة ملموسة ، وظهرت عليه النعمة فى ملبسه وصحته ورويقه ، ورغم كل شئ أثار حسد الكثيرين ، وكان عباس فوزى يتهم به فيسأله :

— كيف طاوعتك نفسك على معاشره مومياء ؟

فيجيبه بصراحتة وبساطته :

— عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كئوس

من الويسكى فإنه يستطيع أن يعاشر عزرائيل نفسه !

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفيت زوجته الجديدة مخلقة عليه ثروة طائلة ، ولم يفلح فى إخفاء أفراحه حتى فى الأيام الأولى للحدث ، واستقال من وظيفته ، وفكر فى إنشاء عمل حر . حتى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير فى التوفيقية ، وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة ، ثم نجح المشروع نجاحا منعدم النظير ، وانقطعت أخباره عنى بطبيعة الحال حتى بعثها من الظلمات عم صقر عقب خروجه من السجن فحدثنى عن ثرائه الفاحش ، وما ملك من عمارات . وعن معيشته الحالية فى قصره بالهرم ، وعن نجاح أبنائه فى المدارس والكلليات وقد بلغ عددهم اثنى عشر ولدا . أخبرنى كذلك بأنه أبقى على زوجه الأولى ولكنه اتخذ من راقصة إيطالية عشيقة له . قال عم صقر :

— إنه اليوم فى السادسة والستين من عمره . ولكنه قوى مهيب كرجل فى عز

شبابه ، ويرافق راقصة إيطالية فهل سمعت عن عاشق فى مثل هذه السن ؟ ، ولكنه الحظ ، ألف ليلة وليلة ، وكل ما عداه باطل ..

## قدرى رزق

كان يتردد على شقة عدلى بركات الفاخرة فى أوائل عام ١٩٤٨ ، وكان فى الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل ، وطالما جالسنا بيدلته الرسمية كضابط فى سلاح الفرسان ، فيضفى على المجلس من روحه مرحا وصفاء . وبدأ قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامة ولولا محاولة بذلت لاغتيال مصطفى النحاس ما فطنت إلى أنه ينطوى على ميول وفدية ، ورثها غالبا عن أبيه الذى كان عضوا بالهيئة الوفدية .

وكان ممشوق القوام أسمر واضح الملامح جذابا ذا شارب غليظ لا ينى يغازله فى إعجاب وارتياح . وفى جلسات الأتس التى اشتهر بها مسكن عدلى بركات شهدت له غزوات موفقة مع فنانات كثيرات . وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا فى شقة عدلى بركات وقد زايله المرح ووشى حاله عموما بامتعاى وقرى . وكنا — أنا ورضا حمادة — فى غاية من الحزن ، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعله يروى غلتنا أو يبدد من أفكارنا بعض الظلمات ، ولكنه لم يمس التفاصيل وقال بإيجاز :

— لقد ضحى بالجيش بطريقة دنيئة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله ..

وهز رأسه بضيق وقال :

— لا يمكن أن يمر ذلك بلا ثمن !

فقلت ببراعة :

— لكننا لم نهزم ، الفالوجة نصر مبین .

فقال بحدة :

— بل هزمتنا ، وحوصرتنا بين عدوين ، عدو في الخارج وعدو في الداخل .  
واستجابت نفسى لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبا معها ، وقال رضا حمادة :  
— كل ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلية الذى مكن لطغيان الملك .  
فقال قدرى رزق :

— ونتيجة أيضا لضعف الوفد الذى عجز عن تحقيق الإرادة الشعبية ..  
فاستاء رضا حمادة وقال .

— الوفد اعتمد دائما على ثورية الشعب ولكن الشعب تخلى عن ثورته !  
فقال قدرى رزق الذى لم أره من قبل على تلك الدرجة من السخط :  
— الوفد هو المسئول عن تخلى الشعب عن ثورته !

وتوثقت علاقته بنا فى تلك الأيام ، وتعددت لقاءاتنا بشقة عدلى بركات .  
وشهدنا معا تدهوره حتى انتحاره ، ولكنه لم ينقطع عنا فكان يجتمع بنا فى بيت  
رضا حمادة أو فى مقهى الفيشاوى ، ورجع إلى طبيعته الأصلية فقل اهتمامه  
بالسياسة والشئون العامة ، وعأوده المرح والمجون والتفرغ لغزو الحسان . ولما  
قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنه كان ضمن مجموعة الضباط الأحرار فعجبنا  
لقدرته الخارقة على الكتمان. وقد سهر معنا عشية الثورة فى مقهى الفيشاوى ،  
وجلس كعادته يضحكنا ويسامرنا ، وعدت معه قبيل منتصف الليل إلى العباسية  
مشيا على الأقدام من طريق الجبل ، ثم ملت أنا إلى العباسية الغربية وواصل هو  
سيره شمالا إلى مسكنه بشارع أحمد ماهر كما ظننت ، أما الحقيقة فإنه لم يذهب  
ليلتها إلى بيته ولكنه مضى صوب منشية البكرى ليقود قوة صغيرة إلى احتلال  
مفترق طرق ! . وغيبته الأحداث عنا فترة غير قصيرة طُرد فى أثنائها الملك ، ثم  
رجع إلينا وقد رقى إلى رتبة جديدة . وتتابع التطورات الهامة مثل الإصلاح  
الزراعى والجللاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعى فى بيت رضا حمادة قبل  
اعتقاله ، واستمر التلاقى بعد ذلك فى بيتى أو بيته أو فى مقهى الفيشاوى ، وطيلة  
تلك المدة لم يخرج حديثنا عن السياسة التى لم يعد له من حديث غيرها . ولم يكن

بيننا خلاف جدى ، استطاعت الثورة أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا فى لحظة تاريخية أسطورية باهرة . وقال قدرى رزق :

— اندثرت القوى الجهنمية التى كانت تعوق تقدم الشعب مثل الملك والإنجليز والحكام الفاسدين ورجع الأمر إلى أبناء الشعب الحقيقيين ، فهو حكم الشعب للشعب لخير الشعب ، انتهى الفساد والانحلال وسينطلق تيار الإصلاح والتقدم إلى الأبد ..

وقلنا إنه آن للحلم أن يتحقق ، وأن ينعم بالحرية والرقى والعدل ذلك الشعب الذى عانى الظلم والاستعباد والفقر والغربة آلاف السنين . أجل ساءنا بعض الشيء التوثب للقضاء على الوفد ، وسأله رضا حمادة — قبل اعتقاله — أكثر من مرة :

— أليس الأفضل أن تتخذوا من الوفد قاعدة شعبية لكم ؟  
كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا ، وخشينا أن تحل محل إنجلترا بطريقة أو بأخرى ، بعدما شعرنا بمدى تأييدها للنظام الجديد ، ولكن قدرى رزق قال :  
— الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم بفضل وطنية زعمائنا الجدد .

وحلت الأحزاب وضرب على أيدي الإخوان والشيوعيين ، وكان قدرى يتحمس لكل إجراء بلا قيد ولا شرط ، حتى سأله مرة :  
— ولكن من أنتم ؟

فضحك ، وتفكر مليا ، ثم قال :  
— نحن أصدقاء الوطنية والعروبة والثورة وأعداء الفساد والتعصب والإلحاد !  
وقال أيضا بحماسة الطيب :

— هدفنا تحرير الشعب مما يستعبده سواء أكان شخصا أم طبقة فقرا أم مرضا  
ثم دفعه إلى المكان اللائق به تحت الشمس ..  
ونقص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة فى شخصه وابنه وزوجته ، وشد



ما تأثر لذلك قدرى رزق وحزن ، ولكن هون من وقع المأساة القوة التى لاقاها بها صديقنا الجلد الصبور القوى . وكان قدرى يعجب به ويقول عنه إنه رجل ولا كل الرجال ، ويتعجب كيف أن رجلا مثله ورجلا مثل الدكتور زهير كامل ينبتان من أرض واحدة . وتتابع أحداث مجيدة مثل الاتجاه نحو الكتلة الشرقية للتسليح ، ومثل تأميم قناة السويس الذى بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل ، فشمל بذلك قدرى رزق وثملنا ، وقال لنا :

— رأيتم ؟ . نحن مصريون أولا وأخيرا ، لا أمريكيون ولا روسيون !  
وتزوج قدرى فى تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة إقطاعية ممن طبق عليهم قانون الإصلاح الزراعى ، وكانت مفارقة تستدعى الملاحظة وتحتاج إلى تفسير ، غير أنه يمكن اعتبارها ظاهرة عادية إذا نظر إليها من الناحية العاطفية البريئة ، ولم يغب عنى أن صديقى كان فخورا بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثورته وإخلاصه وطيبته ، وأما رضا حمادة فقال لى :

— إنها طبقة تتطلع إلى أن تحل مكان طبقة !

ثم كان الاعتداء الثلاثى وانقلابه على المعتدين ولكن صديقنا قدرى رزق أصيب فى ساقه وفقد عينه اليسرى فاضطر إلى ترك الجيش ، وعين فى وظيفة ثقافية كبيرة بوزارة الإرشاد . وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأول مرة فى حياته ، فكان يعمل نهارا ويدرس ليلا ، وأثبت أنه على الهمة فى التحصيل والإدارة . وكان فى إجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستدعى من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكرى فأصابه ما أصابه . ولما أعلنت القوانين الاشتراكية بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكية بنفس الهمة التى درس بها الثقافة ، وكان على استعداد دائما للإيمان بما تدعو الثورة للإيمان به إذ أن إيمانه الحقيقى كان بالثورة . بالثورة وحدها . والحق أنه كان وما زال برجوازيا فى أخلاقه وآماله وأحلامه وتقاليده ، ولكنه كان وما زال برجوازيا ذا لسان اشتراكى ، ولم يجبئ ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع إخلاص حقيقى للثورة

وما تنادى به ، وإني لأعده من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم ، كما كان من أشدهم سخطا على المستغلين والمفسدين ممن خانوا أمانة الثورة . ولما حاقت بنا هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتى خيل إلى أنه يموت وهو حي ، وتساءل فيما يشبه الهذيان :

— أيزهـب ذلك التاريخ كله هباء ؟!

ونظر في وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرة أخرى :

— أنركع مرة أخرى تحت أقدام الرجعيين والاستعماريين ؟!

وكان يجاهد بعنف ليسترد أنفاسه اللاهثة . وليخلق في الضياع أملا جديدا ، وليحول الهزيمة إلى درس وعبرة . وكلما مر يوم دون استسلام استرد بعضا من عافيته ، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعله يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل . وما أشبهه في ذلك بالدكتور عزمى شاكراً أو الدكتور صادق عبد الحميد ، وكان يقول :

— ما تاريخ العرب الحديث إلا سلسلة من الهزائم أمام الرجعية والاستعمار ، ولكن ما يكاد اليأس يخيم حتى ينبثق من ظلماته نور جديد ، وهكذا ذهب التتار والصليبيون والإنجليز وبقي العرب !

وهو يريد للثورة أن تبقى ، وأن تنتصر ، مهما كان الثمن ، كيلا تتعثر النهضة في زمن لم يعد يسمح بالتخلف يوما واحدا ، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنه لم يعد في إمكانه الاشتراك فيه . ويحزنه أن نتلقى ضربة دون أن نردها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذى نستكمل فيه استعدادنا للقتال . إنه يعيش يوما فيوما بل ساعة فساعة في متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها . وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخریات عجلان الحادة وانتقادات رضا حمادة المرة فإن قدرى رزق يعتبر رجلا محترما ومخلصا من رجال ثورة يوليو ، وقد يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق ، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية إيمانه بالملكية الخاصة

والخوافز ، ويؤمن بالاشتراكية العلمية إيمانه بالدين ، ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة العربية ، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم ، ويؤمن بالقاعدة الشعبية إيمانه بالحكم المطلق . وعندما يقبل على وهو يعرج ويطالعني بعينه الباقية ينبض قلبي بالمودة والإكبار .

## كامل رمزى

تعارفنا عام ١٩٦٥ فى بيت الدكتور عزمى شاكى . كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام . وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين براقهما فى الخمسين من عمره . دكتور فى الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه . قلت له :  
— قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى ..

فشكرنى وقال :

— كانت الحياة الجامعية تناسبنى جدا !

وقال الدكتور عزمى شاكى :

— اتهم خطأ بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف .

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصبا كبيرا ، وقال لى عزمى شاكى للمناسبة :

— إنه مثال فى العلم والحزم والنزاهة .

وكان صديقا لسالم جبر وزهير كامل ، وعرفته بدورى لرضا حمادة وقدرى رزق والدكتور صادق عبد الحميد فنال احترامهم جميعا ولكن لم يغال أحد فى حبه ! . وقد أشعرنى حديثه بالصدق والصراحة والعلم ، وهو ممن أتموا تعليمهم بإنجلترا ، وذو اطلاع شامل فى الاجتماع والسياسة ، وله قدرة فائقة فى المناقشة والجدل . ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة وقوة . ولا يؤمن فى شىء بالحلول الوسطى ، ولا بالمجاملة ، ولا بالتسامح ، بل يؤمن برأيه لحد التعصب ، ولا يطبق

المعارضة فهي تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضبا بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية . وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل في تعصبه على تناقضهما في الأسلوب ، حتى قلت مرة للدكتور عزمى شاكر :

— إنه عالم ولكنه ذو عقلية دينية .

فقال :

— إنه متعصب بلا شك ، ومشتعل في مناقشته ، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة الاعتقال .

وبمزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهي دكتورة في الاقتصاد أيضا ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية . وعرفت له أسلوبا في الحياة يعتبر غريبا في عصرنا ، فهو يميل إلى التقشف في ملبسه ، وطعامه الذى يشبه الرجيم ، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر . وقد قال لى مرة :

— لم أعرف المرأة قبل الزواج ، وقاومت جميع المغريات وأنا طالب في البعثة ! وأدهشنى أن يصوم فى رمضان رغم إيمانه الكامل بالمادية الجدلية وسأله :

— ما معنى ذلك ؟

فضحك قائلا :

— كان أبى عاملا بسيطا ، وكان متدينا ، فربانا تربية دينية شاملة فنشأت فى أحضان الأخلاق الإسلامية ، ولم أستطع بعد ذلك التخلّى عنها إلا فيما يناقض عقيدتى الجديدة ، وكان الصيام فيما استبقيت من العادات القديمة فهو رياضة تناسب سلوكى تماما ..

وتفكر قليلا ثم قال :

— العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا دينا !

وذكرنى فى الحال بإلحاح زهران حسونة فذهلت للفارق الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان . وقلت له :

— لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة ..

— المهم أن نعمل للمستقبل ..

— وطبعاً أنت تؤمن بالشيوعية ؟

— ذلك حق .

فسأله باسمها :

— أعتبر نفسك مخلصاً للثورة التي تعمل في جهازها ؟

فقال بوضوح وقوة :

— خلقت لأعبد العمل وأخلص له ..

— إني أسأل عن إخلاصك للثورة ؟

فأخذ شهيقاً عميقاً كأنه الترجمة الجسمانية لتفكيره وقال :

— لم أكن في يوم من الأيام ذا وجهين ، وما دمت قد قبلت العمل في جهازها

فأنا مخلص لها ..

فقلت باسمها :

— هذا هو الجواب الذي أسأل عنه ، ولكن ينقصه شيء ما !

— عظيم ، أنا مخلص لها ولكني غير مؤمن بها ، أو غير مؤمن بها إيماناً كاملاً ،

حسبى في الوقت الراهن أنها تمهد السبيل إلى الثورة الحقيقية !

فأشرت إلى صديقنا الدكتور عزمي شاکر وقلت :

— ما أشبه موقفك بالموقف الذي اتخذته هذا الرجل من بادئ الأمر ..

فضحك ، ورغم ضحكته قال بحدة :

— لقد سلم قبل المعركة أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة

عقمها .

— لعله كان أبعد نظراً !

— اسمح لي في هذه الحال أن ألعن بعد النظر !

وكان عزمي شاکر كبير الإعجاب به ، وكذلك رضا حمادة على تناقضهما

في المبدأ ، وكانت شخصية كامل رمزى تغرينا بتحليلها وتقييمها . ويوما قال  
رضا حمادة :

— لقد تشفعت به في نقل موظف فأعطاني درسا قاسيا في فساد الوساطة ،  
ومع أننى استأثت في نفسى إلا أننى ازددت إعجابا به ..  
فقال عزمى شاكر :

— بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر من عدم التنفيذ حرصا على مبادئ  
العدالة !

فقلت بدهشة :

— وزيره نفسه ؟ .

— أجل ، إنه خلق صلب غير قابل للثنى ، ولذلك أشك كثيرا في إمكانية  
بقائه في منصبه !

فسأله رضا حمادة :

— هل يستغنون عن موظف لاستقامته ؟

— إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته أكثر من الأسباب  
التي تدعو للاستغناء عنه لانحرافه !

واعترف لى كامل رمزى نفسه بأن أحدا في إدارته لا يحبه بدءا من الفراش  
حتى الوزير ، قال :

— لا أستطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معا ، إن منصبى يحتاج  
لألعبان لا لموظف أمين !

ثم قال بازدراء :

— نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات .

وضحك عاليا وقال :

— لقد عبدنا مصطفى النحاس يوما لا لشيء إلا لنزاهته وصلابته في الحق وهما

صفتان جدیرتان بكل مواطن عادى ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتین  
أساسیتین لزعامه شعبیه !

فسأله :

— هل عبت مصطفى النحاس يوما ؟

فقال بصراحته المعهودة :

— كنت وفديا ، وعطفي على الوفد عاش طويلا في نفسى حتى بعد نضوب

إيماني به ..

وحملق في وجهي بعينه البراقتين وقال :

— قل في الوفد ما شئت ولكن لا تنس أنه كان حزبا شعبيا بالمعنى الدقيق لهذه

الكلمة ، وأنه كان يغير سياسته أحيانا إذعانا لمشیئة التلاميذ بالمدارس الثانوية !

ثم حدثني عن أحداث عام ١٩٣٥ ، وكيف ناقش مصطفى النحاس ضمن

وفد من الطلبة ، وكيف احتدت المناقشة بين الطرفين ، وكيف عدل الوفد عن

تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن الثورة على لسان مكرم عبيد ، وكيف سالت

الدماء عقب ذلك بأقل من ساعة !

ولم يعمر كامل رمزي — كما تنبأ عزمي شاکر — في وظيفته طويلا . باشرها

عاما واحدا حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته ، وإذا بجرائد

الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية .

ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس . ولم أدهش لذلك كثيرا ،

وذكرت في الحال مأساة الأستاذ طنطاوى إسماعيل رئيس السكرتارية القديم كما

ذكرت الدكتور سرور عبد الباقي ، وقلت لنفسي إن أمثال أولئك الرجال يغلقون

الأبواب في وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم . كما أنهم بقوة أخلاقهم

يفضحون الضعفاء أمام أنفسهم فيمتثلون حقدا عليهم . لذلك لم أسمع رثاء له إلا

بين خاصة أصدقائه . وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل إليه أن



نواميس الطبيعة تقلقلت وشدت عن مداراتها . ولكن ذلك لم يمنعه من مزاوله عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة ، بل إنه وجد فراغا لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمى ، وشرع فى وضع قاموسه السياسى . وكان وما زال شعلة من النشاط المتواصل ، ونورا يطارد ظلمات اليأس .

## كاميليا زهران

يوم أقبلت علينا في السكرتارية بفستانها الأنيق وشعرها الأسود المخصوص المطوق لرأسها تذكرت عبدة سليمان ، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥ ! . اختفت الوجوه القديمة مثل طنطاوى إسماعيل وعباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان وعم صقر . اجتاحت السكرتارية موجة من الشباب نصفها من الجنس اللطيف ، وها هي كاميليا زهران تنضم إلينا ، كأحدث قطعة من تلك الأزهار . وكنا ألفنا وجودهن بيننا ، كما ألفنا الشائعات التى تلاحقهن فى الفترة الحرجة التى تسبق الزواج . وأكثرهن تزوجن من شبان خارج وزارتنا عدا واحدة تزوجت من زميل فى الإدارة القانونية . ولم تهجر واحدة منهن العمل بسبب الزواج ..

وكاميليا زهران حقوقية فى الثالثة والعشرين ، وقد استقبلت عملها بامتعاض لإلحاقها بعمل كتابى بعد دراسة قانونية توشك أن تذهب هباءموسرى أن أطلع فى عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحریم المستكينة الخاملة ، ومع ذلك شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها فى الحياة ، وأنها لا تكاد تختلف فى أمر جوهرى من هذه الناحية عن زميلها الجالس إلى جانبها . وسرعان ما رفع الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنه لم يجاوز حدود الأدب التقليدية ، شأن من تنظر إلى المستقبل بحكمة وتعمل حسابا للعقد الشرقية التى يحملها الزملاء من أسلافهم فى البيوت .

وعقب الإجازات الصيفية حدثنى زميل قديم نسبيا فى الإدارة فقال :

— لعلك لا تدري أن كاميليا زهران راقصة بارعة ؟

فسأله بدهشة :

— راقصة ؟ !

— رأيته في هانوفيل تراقص شابا وكانت مندججة في الرقص بنشوة كأنها  
نعمة ..

فقلت متوثبا للدفاع :

— لم يعد عيبا ما كان يعد عيبا على أيامنا ..

فهرش رأسه قليلا ثم قال :

— أود أن أتخيل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها ؟

فقلت :

— إن نسبة الطلاق في هذه الأيام أقل من نظيرتها على أيامنا وكذلك نسبة تعدد

الزوجات !

فقال ضاحكا :

— الظاهر أنك رجل عصرى رغم كهولتك ؟

— أود لو كنت من أبناء هذا الجيل ، لا استخفافا بمتاعبه ولكن لتخففه من

كثير من العقد التي نغصت علينا صفو الحياة .

وقد قلت مثل ذلك لصديقى رضا حمادة وهو أقرب أصدقائى القدامى إلى

المحافظة فسألنى عما أعنى فقلت :

— تبادل الحب في جو من الصراحة الصحية خير من الكبت والتقلب بين

أذرع البغايا ..

فقال بارتياح :

— يتخيل إلى أن الحب كالديموقراطية أصبح معدودا من المهازل البائدة !

وكنت أرهف السمع كلما دار الحديث بين الشباب في إدارتنا ، ومن كلمات

متناثرة أدركت أشياء لا بأس بها . خاصة عن كاميليا التي استحوذت على اهتمامى

أكثر من غيرها لحداتها . فأسرتها مثلا متوسطة وهى أول من توظف من إخوة

خمس ، وليس من الصعب تخيل المتاعب التي تعانيها أسرة من ذلك النوع

والدرجة ، ولا المتاعب التى تتحدى الفتاة كإنسانة مستقلة ومسئولة عن نفسها وربما عن أسرتها جزئيا . وما تطالبها به الحياة العصرية من نفقات وما يطالبها به المستقبل كفتاة تتطلع إلى عريس محترم . ولذلك فإن اهتمامها بالشئون العامة اهتمام سطحي ، وهى تسلم بأشياء تسليما واقعيا دون تفكير ولا إيجابية مثل الدين والثورة ، ولكن حياتها الخاصة هى شغلها الشاغل ، وما حياتها إلا الحب والزواج وثمرات الحضارة الحديثة .

وندر أن صادفتنا أنثى تهتم اهتماما حقيقيا بالدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولعل تفسير ذلك أننا لا نزامل منهن إلا الأوساط أما النابغات فلهن طريق آخر فى الجامعات أو الحياة العامة . وللدكتور زهير كامل رأى فى الموضوع . قال :  
— عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنها — العقائد والفلسفات — معطلة للنشاط الحيوى الحقيقى ..

وقال أيضا :

— المرأة لا تعنى إلا بالخلق وما يتعلق به ، هى خالق جميل ، الخلق محور حياتها كلها ، أما ما عدا ذلك من نشاطات فهى من صنع الرجل وهى ضرورية للسيطرة لا للخلق !

وقال أيضا :

— الدنيا هى هدف المرأة ومعبودتها ، وبمعنى آخر هى هدف الخلق ، وهذا يدل على أننا خلقنا لنهتم بالدنيا دون سواها ، وأن كل ما عداها باطل ، وأن الخلود يجب أن يتحقق فيها ، ولو أن الأديان تصورت الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هى السعادة الحقيقية !

وربما تعذر تفسير هذه الآراء على ضوء ما عرفنا من عقلية زهير كامل ، ولكن لن نتعذر تفسيرها على ضوء حياته إذ كان يعانى الحنين إلى زوجته وابنته اللتين هاجرتا إلى الخارج كما كان يفتح قلبه لحب جديد ، حب نعمات عارف . وكانت تظلنا سحابة من الغم والنكد فى أعقاب هزيمة يونية عندما قال لى الزميل القديم :



— توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة ...

فسأله عما يعنى فقال :

— كاميليا زهران تلعب مع المدير العام تلك اللعبة القديمة !

حقا أصبح المديرون فى سن الشباب لا كالعهد القديم ، ومديرنا العام فى الأربعين ولكنه متزوج وأب وذو سمعة — من هذه الناحية على الأقل — طيبة . قلت :

— ولعلها إشاعة !

— ولعلها حقيقة !

فسأله :

— وما تفسيرك للأمر ؟

— لعله حب ، وإن صح هذا الفرض فسيخرب بيت ويقام مكانه بيت جديد ..

وصمت مليا ثم عاد يقول .

— ولعلها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النحال .

— هل تسلت انتهازية جيلنا إلى الجيل الطازج ؟

— إن المغريات اليوم أقوى وأعنف ..

فقلت بامتعاض :

— لعل الانتهازية يعترف بها فى النهاية باعتبارها أخلاقا جديدة ، ومهارات

جديدة مثل التكنولوجيا !

وحدثت صديقى الدكتور عزمى شاكى فى الموضوع وقلت له :

— إنك مفكر بارع ، فلم لا تدرس الأخلاق الجديدة ؟ أعنى الأخلاق

الصالحة للعصر الحديث ، التى يجب أن تستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم القديمة ...

فسألنى :

— ما الذى دعاك إلى هذا التفكير ؟

فقلت وأنا من الاستياء فى غاية :

— انظر إلى مآل صديقنا الدكتور كامل رمزى ، وعندى نظائر له عرفتهم فى مجرى الحياة ممن نعدهم أمثلة طيبة للإنسان ، ألا يجوز أن أخلاقهم لم تعد صالحة للعالم الحديث ؟

فقال باسم :

— إنك تنفس عن مرارة نفسك ..

— الحق إنى حائر وحزين .

وتفشت الشائعات عن كاميليا والمدير ، وأصبح الشك يقينا عندما نقلت أخيرا إلى الإدارة القانونية ، ولكن لم يخرب بيت ولم يقم محله بيت جديد ، ولما تعين عندنا صبرى جاد نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حب صادقة . ومع أنه بدا أول الأمر متمردا ومستهترا إلا أنه أحب كاميليا كما أحبه ، وبالرغم من أنه كان يصغرها بعامين أو أكثر إلا أنهما أعلننا خطوبتهما رسميا . وسعدت أنا شخصا بهذه النهاية السعيدة ، التى شدت الاثنين إلى حياة أصيلة ومسئولية جادة من شأنها أن تعيد خلق الإنسان وتضمه إلى الركب الجاد فى الطريق . ويوما بعد يوم فإن إيمانى يرسخ بأن نقاء الإنسان يجىء من الخارج بقدر ما يجىء من الداخل ، وأن علينا أن نوفر الضوء والهواء النقى إذا أردنا أزهارا يانعة .

## ماهر عبد الكريم

كان أستاذا مساعدا بالكلية عندما التحقت بها عام ١٩٣٠ . وكان في منتصف الحلقة الرابعة ، يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك — ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله . وهو سليل أسرة عريقة ، عرفت بثرائها كما عرفت في التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطني ، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب ، ولكن ذلك لم ينل من حبناله ، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسي قط ، ولم يقع في رذيلة التعصب أبدا ، ولم ينطق في حديث عن هوى أو تحيز أو حقد ، ووهب نفسه للعلم والخير . قال لنا مرة الدكتور إبراهيم عقل :

— لو كان جميع الأغنياء . مثل ماهر عبد الكريم لقررت أن المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنيا !

والحق أن كرمه كان يلتهم ثروته ، فلم يصد محتاجا قط . وكان يجود بالإحسان سرا كأنما يتستر على عيب ، وكان مثالا لسعة الصدر ، هكذا كان في مناقشاته العلمية والعامة ، بل والسياسية إذا جر إليها جرا ، وكأن أسارير وجهه لم تهبأ أصلا إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة ، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب . وكان قصره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر ، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد ، وما أكثر الذين عرفتهم في صالونه من رجال الفكر . وكان التيار الجارف في أحاديث الصالون ثقافيا بالمعنى العام ولم تكن السياسة لتخالطه إلا في ظروف نادرة ، ومع ذلك لم يتردد الأستاذ سالم جبر عن إثارة موضوع فوارق الطبقات يوما من أيام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة في فرنسا ، قال :



— إنهم في بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا !

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال :

— أعتقد أنها حالة سيئة .

فقال الدكتور إبراهيم عقل مخاطبا سالم جبر :

— إنك تزور في فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا

أيضا ، على أن الإنسان لا تتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه ، وأنا شخصا أعتبر الفقير الهندي أجل إنسانية من فورد أو روكفلر !

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية ، كما اتهمه بالصوفية التي يعدها مسئولة عن تأخر الشرق .

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكر كما يفكر سالم جبر ولكنه اعتقد دائما بأن الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة ، كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى . ويوما دعاني أنا وجعفر خليل — عقب إحدى المحاضرات — لمقابلته في قصر المنيرة ، ووجدناه وحده في بهو الاستقبال . فرحب بنا وقال :

— ستزورني آنسة أمريكية بناء على طلبها وقد اخترتكما مترجمين بيني وبينها ..

وكان يجهل الإنجليزية ، ولعله فضل أن يستعين بنا على أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتى تتبين له أسباب الزيارة الغريبة . وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية في الجمال ، في العشرين من عمرها ، فسلمت وجلست وهي تعتذر عن تطفلها . وقدم لنا الشاي والحلوى ، وراحت الفتاة تقص قصتها فقالت إنها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب ، وأن أمها كلفتها بالبحث عن شخص في مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبا بالسوربون في أعقاب الحرب العظمى ، وأن مدير الفندق دلها عليه وطلب قصره لها بالتليفون ، ووضع لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا في باريس ، وأنها كانت صديقه أيضا ،

وأنها انتهزت فرصه سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحياتها إليه .  
وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة الجميلة ، وما آل إليه  
حال الصديقين القديمين في الوقت الحاضر . وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر  
خليل :

— الظاهر أن تأثير أستاذنا فيمن حوله سجية قديمة فيه منذ عهد الشباب ..  
فغمر جعفر بعينه وقال ضاحكا :

— ولكن التأثير في النساء ذو مغزى آخر !  
ثم قال بإيمان :

— الحق أن جمال الرجل يؤهله لدور الفتى الأول في أفلامنا !  
فرددت قول الفرزدق الذى كان يذكرني دائما بوجه أستاذنا :  
يغضى حياء ويغضى من مهابتة      فما يكلم إلا حين ييسم  
وقلت لجعفر :

— ما أتصوره أبدا متخليا عن وقاره . فإذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة  
اللحم والعظم .

والحق أنه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمس السمعة أو السلوك . وعند هذه  
النقطة أرى لزاما على أن أعرض لشائعة اقتحمته في فترة القلاقل التى اتسمت  
بالاغتيالات السياسية فى أعقاب الحرب العظمى الثانية . قيل إنه رفع خطابا سريا  
إلى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب ، مفصلا أسبابه وبواعثه  
ومقترحا العلاج له . سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى ، وحتى اليوم  
لم أتأكد من صدق الشائعة ، وكل ما قيل عنها كان ضربا من التخمين ونتيجة  
للأهواء السياسية المتنازعة ، فقال وفديون إنه اقترح على الملك حل الأحزاب  
 وإقامة ديكتاتورية صالحة تعجل بالإصلاح وترى الشباب تربية دينية علمية ،  
وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر إنها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة  
الحقيقية . أما أنا فسأنتى الرسالة — مهما كان مضمونها — باعتبارها انتماء كا

لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب ، ووجدتني في حرج شديد بين إجلالي لأستاذي وبين موقفى السياسى الواضح ، ووجدت حرجا أكثر من مفاتحته بالموضوع ، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته ! . حدث ذلك عندما زرنا الأستاذ معا ليودعه جعفر خليل قبل سفره إلى الولايات المتحدة ، وعند ذاك أخبره صديقى المرحوم بما يشاع وبما يقال . وأنصت الدكتور فى هدوء وابتسام ، ثم سأله :

— صدقت ما يشاع وما يقال ؟

فراجع جعفر خليل قائلا !

— كلا .

فاكتفى الأستاذ بقوله :

— عظيم !

ويدعونى ذلك إلى تذكر رأى رجلين فيه ، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر ، والآخر مريد من مريديه هو الأستاذ عباس فوزى . أما سالم جبر فكان يحبه ويعجب به ولكنه يرى أنه من طبقة النبلاء ، لم يعرف الفقر . ويرى الشعب من فوق ، وله رؤيته الخاصة وهى رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر .

أما عباس فوزى — معجم السخریات اللاذعة — فكان يعرب عن رأيه فيه ولكن فى حذر وعلى مهل ونقطة نقطة متجنباً سكب ما فى نفسه دفعة واحدة .  
فيوما قال عنه :

— إنه وجيه نبيل ، مملوك من نسل مماليك !

وتأملت قوله طويلا على ضوء ما أعرفه من خبثه وساءلت نفسى عما يقصد الشيطان . ومرة استمع إلى ثناء جميل منى على الأستاذ ثم قال :

— هذه هى فضائل الأغنياء النبلاء وهى فضائل لم تتعرض للتجارب المريرة !

ومرة ثالثة قال لى :

— فى مصر لا يجتمع النبىل والثروة والعلم ، ولكن النبىل الغنى متعالـم ، يستغل ذكاء الفقراء ، يجمعون له مواد البحث ويقترحون عليه الأفكار ، أما هو فيصغى بوقار ويوقع بإمضائه !  
ومرة رابعة قال لى :

— أستاذك ذواقـة لكل طعام جيد ، يلتهم فى اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش ، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث ؟!  
ولكننا كنا نتصل بعقل الأستاذ اتصالا مباشرا ونذكر مدى ما يتمتع به من دقة ووضوح وغزارة فى العلم ، ومرت به الأحداث وهو ثابت فى وقاره ، ولكنى استشففت قلقا فى ذاته فى مواقف من حياتنا لا تنسى ، مثل الاغتيالات السياسية ، حريق القاهرة ، ثورة يولية ، القوانين الاشتراكية ، ولكنه لم يجاوز القصد أبدا ، ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية فى مثل هدوئه ، تلك الضربة التى نزعـت من يده عشرة آلاف من الأفدنة ، وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيلا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى ، وواصل عمله الجامعى بنفس الهمة حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية ، فعمل أستاذا زائرا ، وعين عضوا فى المجلس الأعلى للأداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى . إذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات ، وهو وإن لم يعلن ولائه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشيء مما يمس الكرامة ، فإنه لم يتردد فى إعلان ذلك الولاء فى مجالسه الخاصة ، فقال يوما :

— إنى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له .

ولم أستشعر فى حديثه أو سلوكه أى أثر لمرارة ، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفدنة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك ، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية

منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقته ، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر . وفي عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين ، فازدحم الصالون بمن بقي على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى ، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزمى شاكر وكامل رمزى وقدرى رزق وجاد أبو العلا وعباس فوزى وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل ، وهفت على ذكريات إبراهيم عقل وجعفر خليل . و رأيت قلة من الشباب بينهم صبرى جاد وزوجته كاميليا زهران ، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجردة والعصى ، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديته وأثره وترفعه وتواضعه وحكمته ونزقه ، كأنما غفوت فى الديزل إغفاعة طويلة استيقظت بعدها فى محطة سيدى جابر . ورغم كل شئ فقد بقى لماهر عبد الكريم عيناه الزرقاوان الواسعتان وابتسامته الغازية ووقاره العذب . قال أستاذنا :

— لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل ، ولكنها فرصة طيبة للاجتماع .

وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد إلى بؤرة واحدة هى الصراع فى الشرق الأوسط ، ويعالج على مستويات سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية ، ويتفرع إلى الموقف العالمى والكشوف العلمية والمشكلات العامة الإنسانية والاضطرابات الخطيرة فى الغرب والشرق وذبول القيم ، والمستقبل ، أجل المستقبل ، وبأى وجه يطالعنا . وطغت موجة من التشاؤم ، وترددت كالهنگ المطرب بين الشيوخ ، طوبة يرمون بها الدنيا المولية ، واشترك أستاذنا فى الجوقة ولكن بنغمة أخرى ، وفجأة قال :

— رحم الله إبراهيم عقل ..

ما الذى دعاه إلى تذكره ؟. كان أحب الأصدقاء إلى قلبه ، ولم أشهد دمه إلا يوم جنازته عام ١٩٥٧ ، وتذكرت بدورى كلمته لنا قبيل التخرج . وعاد

يقول :

— سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس ..  
وابتسم طويلا ثم قال :

— قولوا في الدنيا ما شئتم ، لا جديد في التشاؤم ، ولكن الحياة في صالح  
الإنسان وإلا ما زاد عدده باطراد ، وما زادت سيطرته على دنياه .

## محمود درويش

كان يستلفت الأنظار بين طلبة الكلية بطول قامته ونحول قدمه ، وسرعان ما تميز بذكائه واجتهاده الخارق فاكسب مكانة محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريين والأجانب ، وكان دقيق الملامح وسيما ولكنه كان أيضا جافا منطويا على نفسه ، يزامل ويصاحب ولكنه لا يعرف الصداقة ، كان صديقه الحقيقي الكتاب . وكان أبوه إمام مسجد بالجيزة ، يشكو كثرة العيال وقلة المال ، فكان محمود درويش يعاني حياة متقشفة ، ومن أول يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان ثابت ، إذ سمع عجلان محمود وهو يقول إن أباه إمام مسجد فضحك ، فسأله محمود درويش :

— ماذا يضحكك ؟

فأجاب عجلان :

— ألا يضحكك أن تكون الإمامة وظيفة ؟

فغضب محمود وقال له :

— أنت قليل الأدب .

وهتف به عجلان :

— اخرس !

وفصلنا بينهما ، ولكنهما أصرا على الخصام إلى النهاية ، وفي حادثة سرقة الطربوش التي اتهم فيها عجلان شهد محمود ضده ، وكان ضمن الأسباب التي أدت إلى فصله من الكلية ، وقد عاتبناه في ذلك ولكنه قال :

— لا خير في أن نقدم للمجتمع لصا متعلما ..

وكانت آثار الكبت والحرمان تتجلى في عينيه كلما وقع بصره على طالبة من

( المرايا )

الطالبات . وأما سعاد وهبي فكادت تتسبب في جنونه ، ولكنه بدلا من أن يغارها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على « تهتكها » حملة كادت تبلغ العلانية ، وكان أول من أبلغ العميد عن تبرجها ، وعن الفتنة التي تثيرها في قاعة المحاضرات . والظاهر أنه تعرض لأزمات عنيفة ، وصراعات حادة بين حيويته وبين حرمانه الإجباري ، فلم يجد أبوه حلا لذلك — بعقليته الريفية الدينية — إلا أن يزوجه من ابنة عم يتيمة يكفلها فرجع إلى الكلية في العام الدراسي التالي متزوجا من فتاة ريفية أمية ، ولكنها أراحت باله ، وأطلقت قواه في التحصيل دون عائق . ولم يعد له من اهتمام إلا العلم والتفوق ، وكان إذا احتشد لكتابة بحث ما تكلف بكتابته في أثناء السنة الدراسية كتبه بذكاء واقتدار وأحاط به إحاطة تقطع باطلاعه الواسع وبدرأيته في استخراج المراجع . ولذلك كان يتابعنا أحيانا ونحن نهذر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع إلى مجانين . وتساءل مرة :  
— كيف تجدون متسعا بعد ذلك للدراسة !

فأجابه طالب متعجبا :

— كأن الإنجليز يحتلون وطننا غير وطنك وكأن الملك يستبد بشعب غير شعبك !

ولم يكن يفرق بين مصطفى النحاس وإسماعيل صدقي ، وأحيانا كان ينسى اسم « الباشا » الذي يرأس الحكومة . ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالها غاضبا وعاجزا ، وكان يتسلل إلى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق أبوابها . ويوما وثب إلى منصة الخطابة عقب خطبة ثورية ألقاها زعيم الطلبة . وثب إلى المنصة ، وبجراه جنونية . دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الأسمى ، وهاج الطلاب وماجوا ، وطالبوا بإنزاله ، ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكدا : وصدر أمر بإغلاق الجامعة شهرا ، وفي أثناء ذلك قبض على زعماء الطلبة جميعا ، ولما عدنا إلى الكلية وجدت همسا تتناقله الألسنة قال لي جعفر



خليل :

— سمعت ؟ .. يقولون إن محمود درويش متصل بإدارة الأمن العام ..

فاستفظعت ذلك ولم أصدقه فقال :

— يقال إن الذى رشحه لذلك أبوه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم !

— ولكنه شاب مستقيم !

فقال بحزن :

— ويقال إنه هو الذى أرشد إلى زعماء الطلبة !

كانت إشاعة قوية ولكن لم يكن من سبيل إلى التأكد منها ، وقد تحرش به بعض الطلبة وعرضوا بدوره في المؤامرة ، ولكن الدكتور إبراهيم عقل استدعاهم إلى مكتبه وهددهم — إذا عادوا — بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة . وعاشت الإشاعة معى زمنا طويلا ، وخلقت في نفسى نفورا منه وبخاصة وأننى استثقلت ظله من أول يوم ، وكدت أومن بصدقها عقب تخرجنا عندما اختير محمود درويش عضوا في بعثة إلى فرنسا في فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماما . وانقطعت أخباره عنى أعواما طويلا حتى صادفته في مكتب الأستاذ عدلى المؤذن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث . بدا لى وقتها في صورة جديدة ، مليئة بالحياة والصحة والعافية ، وطالعتنى عيناه من خلال نظارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة العلماء قال :

— أنا مدرس اليوم بالكلية ..

فقال عدلى المؤذن :

— وهو شارع فى إصدار سلسلة فى فلسفة التصوف ..

وقال محمود درويش :

— أدركتنى الحرب فى فرنسا قبل إتمام الرسالة فسافرت إلى سويسرا وهناك

حصلت على الدكتوراه .

ولما غادرنا قال لى عدلى المؤذن ضاحكا :

— عاد خواجاً كما ترى ليجد في انتظاره زوجة ريفية أمية .  
وسأله عما قيل عنه يوماً من اتصاله بإدارة الأمن العام وخاصة وأن عدلى  
المؤذن كان موظفاً في ذلك الوقت بإدارة الجامعة فقال عدلى باقتضاب .  
— كلام فارغ .

ولما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عباس فوزى ضحك طويلاً وقال :  
— يالك من رجل طيب ! ، ألا تعلم أن عدلى المؤذن نفسه كان متصلاً وقتها  
بإدارة الأمن العام ؟

والتقيت — بعد ذلك بأعوام — بالدكتور محمود فى صالون الدكتور ماهر  
عبد الكريم بالمنيرة ، وكانت قدمه قد رسخت فى عالم التأليف ، وصدر له أكثر  
من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة فى دراسة التصوف فى العصر الحديث ، وسمعت  
عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم . ويومها سأله عن أحواله فقال :  
— لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت  
متزوجة من ضابط طيار ..

فسأله باهتمام :

— هل تمارس التصوف ؟

فأجاب ضاحكاً :

— كلا ، ولكن لا مرأى فى أن الإنسان لا يتخصص إلا فى مادة متغلغلة فى  
نفسه ..

وفكرت فى زوجته التى اختارتها الظروف ربة بيت من المثقفين وهى بدائية  
بكل معنى الكلمة ، فوددت لو أتسلل إلى أعماق ذلك الجانب من حياته ، ولكنه  
كان يبدو متألقاً بالسعادة والنجاح . وقال لى :

— طبعا علمت بمأساة الدكتور إبراهيم عقل ؟

— طبعا ، كارثة ولا شك ، ولكنى لم أرك فى جنازة ابنه ؟

— كنت خارج القاهرة ، هل حافظت على اتصالك به مذ تركت الكلية ؟

— ٢٩٣ —

— كلا ..

— إنه أستاذ بلا تلاميذ ولا مریدین .

والتقيت به مرة أخرى في صالون المنيرة ، ثم دعى للتدريس في إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عني أخباره .

## مجيدة عبد الرازق

فى زياره لسالم جبر فى مكتبه بجريدة المصرى عام ١٩٥٠ قدم لى فتاة حسناء  
قائلا :

— مجيدة عبد الرازق محررة الصفحة النسائية .

كانت فى الثلاثين من عمرها ، رشيقة القوام ، تطالعك من عينيها السوداوين  
نظرة ذكية جذابة ، ولها شخصية قوية تفرض نفسها لى أول اتصال . والتقيت  
بها للمرة الثانية فى حفل انتخابى أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه  
فسألتها :

— إذن فأنت وفدية ؟

فقلت باسمه :

— أنا تلميذة للدكتور زهير كامل .

— آداب ؟

— قسم الصحافة .

— ووفدية ؟

— أبعد من ذلك بكثير !

فتساءلت وأنا أنظر فى عينيها الجميلتين :

— ماذا تعنين ؟

فابتسمت ولم تجب . والتقيت بها للمرة الثالثة فى بيت زهير كامل فشعرت  
بأننا نتقل من مرحلة التعارف الودى إلى مرحلة الصداقة الحقيقية . وعقب  
ذهابها قال لى الدكتور زهير كامل :

— إنها مثقفة ثقافة تستحق التقدير وذات شخصية محترمة .

فقلت بحماس !

— أعتقد ذلك .

وهو يتسم :

— وهى شيوعية أيضا !

— شيوعية ؟!

— امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتقال .

وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل . وكنا نجتمع فى أوقات متفرقة  
نجرونى مع نفر من الأصدقاء ، فتجالسنا مجالسة الأنداد ، وتتجاهل إيماءات الغزل  
التي توجه إليها أحيانا ، باعتبارها عبثا صغيرا ، إذ لم تكن تتبع الحيل النسائية  
البالية ، ولا تحترم القيم البرجوازية ، ولكنها كانت تنشد دائما العاطفة الصادقة  
الأصيلة . قالت لى يوما :

— حذار أن تظن بى البرود !

فتساءلت :

— ما الذى جعلك تفكرين فى ذلك ؟

فقلت بحرارة :

— إنى أعبد الحب .

ثم كالمستدركة :

— أعبد الحب والأيدولوجية .

ولما استب اطمئنانها إلى قصت على قصة حياتها فى مقهى الفيشاوى ،  
قالت :

— نشأت فى أسرة من البرجوازية الصغيرة ، ربها موظف مغمور ، وكنت

البنت الوحيدة بين أربعة ذكور !

فقلت باسمها :

— إذن كنت جوهرة مدللة ..

— بالعكس ، عانيت الاضطهاد من الجميع ، وكان يزداد بتقدم العمر ،  
ولكنى فرضت الاحترام عليهم بتفوقى فى المدرسة ..

فأعلنت إعجابى بابتسامة فقالت :

— وتقدم لى عريس بعد نجاحى فى الثانوية العامة وبالرغم من ترحيب الجميع  
به إلا أننى اشترطت عليه أن يسمح لى بإتمام دراستى الجامعية ، فسألنى عن  
الحكمة وراء ذلك . فصارحته برغبتى فى العمل ، ولكنه لم يوافق ، وانضم إليه  
فى رأى أهلى ولكنى صممت ، فذهب ..

— وحققت مشروعك بالكامل !

— أجل ولكنى عرفت فى الكلية أستاذًا كان له أكبر الأثر فى حياتى ، طبعًا  
سمعت عن الأستاذ محمد العارف ؟  
— أجل .

— علمنى العلم وما هو أخطر منه ..

— الشيوعية ؟

— نعم ، ثم ألف بيتنا حب عميق ، وسرعان ما تزوجنا بعد تخرجى  
مباشرة ..

فقلت بدهشة :

— حسبتك غير متزوجة !

— عشت أيامًا سعيدة وأنجبت توأمين ذكرًا وأنثى .

— جميل حقًا .

— وكانت أمه هى ربة بيتنا فلما توفيت اعترضتنا متاعب فتمزقت بين العمل  
فى الجريدة وبين واجبات البيت ، وكان زوجى يحب النظام كما يحب أن يكون  
موضع الرعاية فاقترح على أن أتفرغ للبيت ..

— رأى لا يخلو من وجهة .

فقالت بحدة :

— كلا ، كانت لى آمالى الخاصة أيضا فرفضت ، ولم أجد منه عطفًا ولا تقديرا .

فلم أنبس بكلمة فقالت :

— وتكشفت لى أنانيته وقلة أدبه ورغبته الدفينة فى السيادة ، واشتعل بيتنا بالعنف والخصام ، ثم انتهى الأمر بالطلاق ..

— متى وقع ذلك ؟

— أيام الكوليرا !

فسألت بإشفاق :

— وكيف حالك الآن ؟

فقالت بمباهاة :

— أتقدم فى عملى كما ترى ، وتعاوننى فى تربية الطفلين امرأة طيبة ، وهو يمدنى بالنفقة الشرعية .

ولما قامت ثورة يوليو بذرت فى ساحة صداقتنا الهادئة بذور خلاف عنيد لأول مرة . فاتهمتها بأنها ثورة رجعية ، أو لون جديد من الفاشستية ، أو انقلاب برجوازى صغير يشبع تطلعات أمثالى من البرجوازيين الصغار ! . وأصرت على رأيها حتى اتجهت الثورة إلى الكتلة الشرقية فأخذ عنادها يلين ورأيها يتغير . وساءتنى وحدثها كثيرا . وشعرت بأنها تعاني منها مرارة حادة ، ولكنها رفضت دائما رغبات الزملاء الجامعة العابثة انتظارا للحب الحقيقى الذى تعبده كما قالت لى من قديم . وبصراحتها العذبة قالت لى مرة :

— خدعت مرة واحدة !

— لا أصدق .

— طيب أطفالى عليه اللعنة !

— ولكن كيف .. ؟

— وكان أيضا متزوجا !

— ولكن الرجل المتزوج ... ؟!

— خطأ حقيقة ولكنه الحب ، وأفهمنى أنه غير سعيد وأنه سيطلق لأسباب

لا تتعلق بى !

— وصدفته ؟

— ما أفضع الخداع ، إنه أنكر من القتل ، وسلمت بدون قيد ولا شرط .

— شىء فظيع حقا .

— عليه اللعنة ، وكانت أيامه سوداء كخداعه فكنا نلتقى فى عيادته فى جو

غارات الاعتداء الثلاثى .

ومنذ تلك التجربة المريرة استقر سوء الظن فى أعماقها فتضاعف شعورها

بوحدها وحنينها إلى الحب الحقيقى . ومضى يغزوها الزمن حتى بلغت اليوم

الخمسین من عمرها ، وقد تزوجت ابنتها ، وسافر ابنها للعمل فى إذاعة

الكويت ، ففرقت فى الوحدة والكهولة حتى قمة الرأس . وما زالت حتى اليوم

محافضة على رشاقة قدها ، ومسحة من جمالها ، وإذا دعيت إلى التلفزيون فهى

تستأثر بالأنظار والأسماع بقوة شخصيتها ومرونة منطقتها وغازة معلوماتها ،

وإذا خلوت إليها خيل إلى أنى أستمع إلى وحوحة تند من أعماقها .

وما زالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور زهير كامل ، كما نشأت

صداقة حميمة بينها وبين زوجته الجديدة الصغيرة نعمات عارف ، ولا شك أنها

علمت بعلاقتها بالدكتور صادق عبد الحميد ، ولكنها تجاهلت ذلك تماما ،

وتمنت ألا تنكشف الحقيقة لأستاذها أبدا . وعلمت أخيرا — وسعدت بذلك

جدا — أنها ستقوم برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط

فقلت لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها وتجديدا لحياتها ومادة طريفة لقلمها .



## ناجى مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدا . لم يمح من ذاكرتى كأنه اسم علم من الأعلام ، رغم أننى لم أزامله إلا ثلاثة أعوام من حياتى ، ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ فى المدرسة الثانوية . أمضى فترة الدراسة الابتدائية فى السودان حيث كان يعمل والده . ولما عاد الرجل إلى مصر أقام فى العباسية وألحق ابنه بمدرستنا . وقال ناجى لى يوما :  
— كنا إخوة أربعة ، مات ثلاثة ، وبقيت أنا .

وقال لى مرة أخرى :

— أمى حزينة لا تضحك أبدا ..

وكان رشيقا طويلا وسم الوجه لطيفا مهذبا ورزينا لدرجة لا تناسب سنه ولعله كان الوحيد فى سنة أولى الذى يلبس بنطلونا طويلا . وربما كان أنبغ تلميذ صادفته فى حياتى . كان لكل تلميذ مجال فى تفوقه إن وجد ، فتلميذ يتفوق فى اللغات وآخر يتفوق فى الرياضيات وهكذا أما ناجى مرقص فكان متفوقا ممتازا فى جميع المواد ، فى العربية والإنجليزية والفرنسية والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا . وكان الأول دون نزاع وكان المدرسون على اختلاف جنسياتهم من مصريين وإنجليز وفرنسيين يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ . وكان بدر الزياى يسميه عبد الحليم المصرى تشبها لتفوقه بقوة المصارع الشهير . وسأله يوما :

— كيف تفوقت فى جميع المواد ؟

فأجاب بأدبه الجم :

— أنتبه فى الفصل وأذاكر من أول يوم فى السنة الدراسية .

وسأله جعفر خليل :

— ألا تذهب إلى السينما كل خميس ؟

— في الأعياد والمواسم فقط .

فسأله عيد منصور :

— ألا تلعب الكرة ؟

— كلا .

فسأله رضا حمادة :

— أليس لك هواية ؟

فأجاب :

— أعزف على البيانو في أوقات الفراغ .

فقال له رضا :

— إنك لا تشترك في الإضرابات أفلا تهتم بالوطنية ؟

— أهتم بها طبعاً ولكن ..

وتردد لحظات ثم قال :

— ولكن أخى الأكبر قتل في مظاهرة !

ونجح في امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين العشرة الأوائل في القطر

كله ، وعندما عدنا إلى المدرسة في بدء العام الدراسي الجديد لم نعثر لنا جى مرقص على أثر لا في القسم العلمى ولا القسم الأدبى .

وتساءلنا عن سر اختفائه دون أن نظفر بجواب . وكان يسكن بعيداً عن حيننا

في أطراف العباسية المشرفة على منشية البكرى فذهبنا إلى مسكنه نستطلع فعلنا

هناك بأنه أصيب في صدره وأنه أرسل إلى جدته بصعيد مصر ليعالج وأن علاجه

سيستغرق عاماً كاملاً في أقل تقدير . أحزننا الخبر كما أحزن جميع أقرانه

ومدرسيه ، وأرسلنا إليه رسالة جماعية حملناها تحياتنا وتمنياتنا له بالشفاء العاجل .

وحدث في ذلك الوقت أن قدم مصطفى النحاس إلى المحكمة في قضية سيف

الدين فبرأته المحكمة العليا ، وذهبت وفود من الشعب إلى بيت الأمة تهتهه ،

وذهب فيمن ذهب والد صديقنا وهو موظف في وزارة الحرية ، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهثين فقررت الوزارة فصله . وشق على الرجل الرفت وكان فقيرا كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه . وشفى ناجي من مرضه ولكنه عجز عن مواصلة التعليم فانتهر أهل الخير فرصة عودة الوفد إلى الحكم وسعوا إلى تعيين الشاب الصغير في وزارة الحرية فتعين في وظيفة صغيرة خارج الهيئة ، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ في جيلنا . وكثيرا ما كنت أتذكره وأتحسر على نهايته ، وكلما صادفني شيء من التوفيق في حياتي الدراسية أو العملية تذكرته فداخلني الأسى وتخيلت الأجداد التي وئدت بضربة عمياء من ضربات العيث . ومضت أعوام فأعوام دون أن تقع عليه عيناى أو أسمع عنه ذكرا حتى التقيت به مصادفة في كازينو حديقة الأزبكية عام ١٩٦٠ . مررت به أول الأمر دون أن أفطن إلى هويته إذ جذبت عيني لحيته البيضاء فحسبته فنانا ، ثم سمعت صوته يناديني فالتفت إلى وجهه وعرفته في الحال . وتصافحا بحرارة ثم جلسنا حول مائدة متواجهين . لم يكده يتغير وجهه لولا لحيته وشيبة رأسه ، وانبعثت من جملة منظره شفافية كالعبر الحلو أو الطمانينة الشاملة . وتذاكرنا الماضى والزملاء ، من رحلوا مثل بدر الزياى وجعفر خليل ، ومن نبغوا فى الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبد الباقي وغيرهما ، ثم جاء دوره فقال : — ما زلت موظفا بوزارة الدفاع ووصلت إلى الدرجة الثالثة ، متزوج وأب لفتاة فى العشرين طالبة بكلية العلوم ...

وسكت قليلا ثم استطرد :

— اتجهت من قديم إلى دراسة الروحانيات ، عن طريق الكتب والمراسلة .. فقلت له :

— قرأت بعض الكتب عنها .

فابتسم قائلا :

— إنى أدرسها وأمارسها !

— حقا ؟!

فقال بوجد وحماس :

— عالم الروح عالم عحيب ، أعجب من عالم المادة ..

فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد :

— وهو أمل الإنسان في الخلاص الحقيقي .

فقلت مجاملا وصادقا في آن :

— الإنسان في حاجة إلى الخلاص .

فقال بحرارة متشجعا بإقبالي :

— حضارتنا مادية ، وهي تحقق بالعلم — كل يوم — انتصارات مذهلة وتمهد

لسيطرة الإنسان على دنياه ولكن ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك ؟

فقلت بحذر :

— على الإنسان أن يملك الاثنين !

فابتسم بعذوبة وقال :

— لعلك لا تؤمن بقولي ، أو لعلك لا تؤمن به كل الإيمان ، ولكن ثق من أن عالم

الروح حافل بالمجاهل كعالم المادة . وأن التنقيب فيه يعد الإنسان بانتصارات مذهلة

لا تقل عن انتصاراته في غزو القضاء . وأنه لا ينقصنا إلا أن نؤمن بمنهج روحى كما

نؤمن بالمنهج العلمى ، وأن نؤمن أيضا بأن الحقيقة الكاملة هي ملتقى طريقين لا

غاية طريق واحد ..

— حكمة معقولة ..

فرنا إلى بنظرة حنون من عينيه السوداوين — أدركت لونهما لأول مرة — وقال

برثاء وشفافية :

— ما أضعف صوت الحق وسط هدير الآلات ، ولكن ما أحوج الإنسانية اليوم

إلى منقذ ..

فسأله بحب استطلاع :

— كيف تتصور المنقذ ؟

— أتصوره رجلا أو فكرة أو درسا باهظ الثمن !

— كحرب ذرية ؟

— ربما ، على أى حال أشعر بأن ثمة حجابا يفصل بينى وبينك ولكنه حجاب شفاف ضعيف الجذور ، وأن استعدادك لحب الحقيقة كبير ، وإني أمارس تخضير الأرواح فى بيتى فلعلك تزورنى يوما ...

وأعطانى بطاقته التى لم يطبع عليها إلا الاسم والوظيفة والعنوان بشارع دير الملاك . ومع أننى تلقيت كلماته بحب لا باقتناع إلا أنه خطر فى جحيم حياتى كعبير زهر اللارنج . وفى مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر فى مكتبه بالجريدة ، وحدثته عن ناجى مرقص ودعوته ، وبإغراء وتحد معا عرضت عليه أن نزوره معا ، ولكنه استسخف الفكرة ، وذكرنى بأنه لم يعد يوجد فاصل بين عالمى المادة والروح . وأن التوغل فى حقيقة المادة هو توغل فى حقيقة الروح ، وأن صديقك يدعوك إلى طقوس سحرية فى عصر الفضاء ! . ولم أر ناجى مرقص بعد ذلك ولكنه يهفو على قلبى أحيانا كذكريات الصبا فأدرك أنه يعيش فى ركن من نفسى ..

## نادر برهان

كان بطلا من الأبطال في حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائية ما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٥ . كان يكبرنا بأعوام ، وكان قويا طويل القامة ، ومنذ أول يوم لنا في المدرسة قيل لنا إنه زعيم التلاميذ بالمدرسة . وكنا نلتف حوله في فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام . وكان يقول :

— لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد ، أي جنود الوطن ..  
وكان يقول أيضا :

— علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حتى المشنقة ، فلا قيمة للحياة بلا حرية ، ولا حرية بلا تضحية ، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيما وعلينا أن نكون جديرين بزعامته ..

و كنت أجهل وأعجب به وكان رضا حمادة يعبده ولم يجرؤ سيد شعير أو خليل زكي على السخرية منه ، أما إذا حدث عن زيارته لبيت الأمة ومحاوراته مع الزعيم فكان يهرنا لحد الجنون ، ونفد مني الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت :

— أريد رؤية سعد بالعين فهلا أخذتنا إلى بيت الأمة ؟

فنظر إلى بعطف وقال :

— ما رلت صغيرا تسير في بنطلون قصير ، وزيارة بيت الأمة مغامرة خطيرة لا رحلة آمنة ..

وكان إذا تقرر إضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتى تنتظمنا طوابير الصباح ، ثم يتقدم خطوات إلى الأمام ويأخذ في التصفيق بقوة ، وسرعان ما تدوى الطوابير بالتصفيق . وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة إلى طوابير التلاميذ الصغار فيمضون بهم إلى الفصول بسماع من التلاميذ المضربين فنمضي ونحن

نهتف بحياة سعد ، ويذهب الباكون في مظاهرة على رأسها نادر برهان إلى الطريق فيلتقون بتلاميذ المدارس الأخرى ، وفي إحدى المظاهرات أصيب برصاصة في ساقه فقضى في المستشفى شهرين ثم لازمه عرج خفيف بقية عمره . وتحت زعامته اشتركت في أول مظاهرة في حياتي عام ١٩٢٤ . دعانا إلى الإضراب وخطب فينا قائلاً إن الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وإن سعد زغلول رئيس الوزراء — تلك المرة — يقف في صلابة للدفاع عن حقوق الشعب ، وإن علينا أن نذهب إلى ميدان عابدين لتأييد الزعيم . ولما كانت الحكومة شعبية لأول مرة ، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية ، فقد سمح لنا بالاشتراك في المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية ، وصرنا في حشود هائلة من التلاميذ والطلاب وأهل البلد حتى اكتظ بنا ميدان عابدين ، ورحنا ندق باب القصر بأيدينا ونهتف « سعد أو الثورة » ..

وترامى من بعيد هدير هتاف شامل إيذاناً بمقدم الزعيم لمقابلة الملك ، واشتد الضغط حول ممر ضيق شقه رجال الشرطة بصفين منهم لتسير فيه سيارة الزعيم ، وقلت لرضا حمادة بسرور غامر :  
— سترى أعيننا سعد زغلول .  
فقال بحماس :  
— نعم ولو لبضع ثوان ..

وتسللنا بخفة وعناد حتى بلغنا حافة الممر ، ورأينا السيارة قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلقون بأركانها ويقفون فوق غطاءها . وتطلعنا بأعين ملهوفة نهمة ولكننا لم نر إلا أجساد البشر ولم يتجل من الزعيم ملمح واحد . وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلاً .

ولما انتقلت إلى المدرسة الثانوية انقطعت عني أخبار نادر برهان . لم أره ولم أسمع عنه . افترقت عنه عام ١٩٢٥ وانقضت أربعون عاماً حتى صادفته في مقهى أسترا شتاء عام ١٩٦٥ . كنت عائداً من لقاء نهاري مع أماني محمد فملت إلى

مقهى أسترا لأشرب فنجان قهوة فرأيتہ جالسا وحده ، بدينا عملاقا ، ومعطفه مثنى على ظهر كرسى إلى جانبه . عرفته من أول نظرة ، وخيل إلى أنه لم يتغير كثيرا رغم أنه كان في الستين ، حتى شعر رأسه ظل أسود عدا سوا الفه . وأقبلت عليه باسماء فنظر إلى بانكار ولكنه صافحنى ، فلما ذكرته بالمدرسة الابتدائية والزعامة تهلل وجهه ودعانى للجلوس فجلست . قلت له :

— عینی عليك باردة ، لم تتغير .

فقال ضاحكا :

— أنا من أسرة معمرين لا يموتون إلا في الحوادث .

وذكرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر فاتضح أنه لا يعرف إلا رضا حمادة معرفة غير شخصية . ولما سألته عن حاله رحب بالحديث جدا كأنما كان يبحث عن متنفس له . قال :

— بعد الابتدائية التحقت بالمدرسة الثانوية في أسيوط لانتقال أبى إليها ، ولكنى رفت في عهد محمد محمود ، ورجعت في عهد النحاس ، ثم رفت مرة أخرى في حكم صدقي ، ثم اتهمت في قضية الشروع في اغتياله وسجنت ، حكم على عشرة أعوام ولكنى خرجت بعفو في حكومة النحاس التى عقدت المعاهدة ، ووجدت أنه من العبث أن أحاول إتمام دراستى الثانوية فعيننى الوفد وكيلا لجريدة الجهاد في الإسكندرية ...

وسكت قليلا متجهم الوجه لذكریات لا أدرى بها ثم قال :

— لم أحزن في حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحاس والنقراشى ، كان النحاس زعيمى ، وكان النقراشى أبى الروحى ، ولم أتصور الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين ، وسارت الأحداث في المجرى الذى تذكره . فبلغنى التفرز مداه . ولما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة ١٩١٩ وتحقق لنا الاستقلال ولو بعد حين ، فقد قررت اعتزال السياسة ، وصادف ذلك وفاة أبى ووراثتى لقدرا لا بأس به من المال ففتحت مطعم سمك في سيدى جابر وفتح الله على ..



— إذن اعتزلت السياسة ؟

— منذ عام ١٩٣٧ .

ثم وهو يعتدل في اهتمام :

— ولكنى لم أنقطع عن متابعة الأحداث ، لعل السماك الوحيد الذى يفلى

الجريدة قبل أن يقول يا فتاح يا عليم ...

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

— وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن ، وكلما تسلل إلى الوفد ضعف أو

انصرف عنه جيل من الشباب تقطع قلبى ، ولكن ما باليد حيلة ..

فقلت :

— لكل شىء شباب وشيوخة ، تلك سنة الحياة .

— ولكن الوفد فى حياتنا يمثل عصر الفتوة والبعث ، دانى على أى فترة تاريخية

منذ عهد ما قبل الأسر حتى اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ساد وتعملق أيام

الوفد ؟

ثم وهو يضحك :

— ولما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذى اتخذته بملء حرى قبل

أن أرغم عليه أو على ما هو أسوأ منه ..

— ولكنك قدرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شك ؟

— الاعتراف بالحق فضيلة ، ولكنى لا أغتفر لها محاولة النيل من زعامة سعد

زغلول .

فقلت :

— للسياسة مقتضياتها ، وأظنك لا تنسى موقف مصطفى كامل من أحمد

عراى .

فسألتنى باهتمام :

— هل شاهدت جنازة مصطفى النحاس ؟ . كانت رد اعتبار شعبى لسعد

وللوفد ولأكبر ثورة شعبية في حياتنا ..  
وأخبرني أنه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين لانتقال كريمته إليها بحكم  
الزواج ، ثم حدثني عن أسرته فقال :  
— ابني الأكبر سماك مثلي ، الأوسط مهندس ، الأصغر ضابط طيار ..  
ومنذ ذلك التاريخ واطببت لدى كل تصيفة في الإسكندرية على تناول العشاء  
ولو مرة في مطعم زعيمى القديم . وفي صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينا على غير  
عادته . وقال لى :  
— فى أواخر العام الماضى هاجر ابنى المهندس إلى كندا !  
ثم بنبرة متهدجة :  
— وفى شتاء هذا العام استشهد ابنى الطيار فى سبيل الوطن !

## هجار المياوى

كان الشيخ هجار المياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية ، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية ، وكان من أهل الصعيد ، ينطق بلهجتهم ، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة . قليل العناية بمظهره ، فعمته أصغر مما ينبغى ولا ذوق له فى اختيار ألوان الجبة والقفطان . ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة ، ولم يكن متزمتا ، كان يحب النكتة ، ويروى لنا جميل الأشعار ، ومرة تبارى فى فناء المدرسة مع مدرس الرياضة البدنية فى التحطيب ، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد . ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرا بعد أن انتظمتنا فى مجالسنا ، وكعادته فى حب المزاح ، قلد أستاذنا فقال له :

— عم صباحا .

وضحك الفصل وانبسط جعفر ، وتركه الشيخ هجار حتى جلس ، ثم ناداه :

— جعفر خليل .

فوقف فقال له بهدوء :

— أعرب « عم صباحا » .

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفرا ، فاحتج جعفر قائلا :

— إنها صعبة !

فقال الشيخ بهدوء :

— ولم تستعمل ما لا تفهمه ؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر . كان في المدرسة الابتدائية — عصر الثورة — مدرسا للغة العربية والوطنية . فلدى أى مناسبة يفتح باب الحديث الوطنى ، يستعيد الذكريات المجيدة ، ويشيد بالأبطال ، ونحن نتابعه والدموع في أعيننا . وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء الله أو صاحب معجزات ، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية ، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد ، ومهارته في المحاماة ، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة الحقانية ، وزعامته ، وتحديه لقوة الإنجليز ، وسحره وبلاغته ، وما ينتظر البلاد على يديه ، وكان يقول :

— ببلاغته عبأ الشعور ، وباسمه قامت الثورة ..

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول :

— هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة .

وكنا نحبه بقدر ما نجله ، ونتلقى عنه الوطنية والأصالة ، وبفضله أحبنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها .

وفي المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد ، فتوارت عنا وجوه الإنجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريين الموالين لهم ، واحتلت الحزبية المكان الأول في الصراع ، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة ، وكان يقول :  
— المعركة هي المعركة ولكن الأعداء ازدادوا عددا فوجب علينا مضاعفة الجهاد .

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود ، اليوم الذى استشهد فيه بدر الزياى ، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثا إياهم على الانتظام في الدراسة ، وكان في طبعه حدة تثور على التحدى وتنفجر غضبا أعمى ، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب :

— العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلا ضمائركم

فارجعوا إليها ..

وكتب الناظر تقريراً عنه فرفعه إلى وزير المعارف وسرعان ما تقرر فصله .  
ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطروا إلى  
الفرار من المدرسة ، واضطرت الوزارة إلى نقله حماية لحياته . وقد عاد الشيخ إلى  
المدرسة في عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى في عهد صدقي ، فعمل في مدرسة  
بين الجنائين الأهلية التي كان يملكها رجل وفدى معروف . وفي حكومة المعاهدة  
تعين مفتشاً بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة . وفي انتخابات ١٩٤٢ رشح  
نفسه على مبادئ الوفد فنجح ، كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠ . وقد التقيت به  
مرات في بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه . ولما صدر قرار حل  
الأحزاب — بعد ثورة يوليو — رجع إلى قريته في الصعيد فلم يرحها ، ولا  
أدرى إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربه . ومما يذكر أنه في  
سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت ماراً أمام نادى الجيش القديم بالشاطبي ،  
رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين في فناء النادى يحيط بهم جند . وسمعت من بعض  
المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة ، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون  
على الإجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المياوى . تأملت  
الموقف ، نظرت طويلاً إلى الابن ، تذكرت الأب ، ثم خيل إلى أنى أسمع هدير  
الزمن وهو يتدفق حاملاً متناقضاته المتلاطمة .

## وداد رشدى

رأيت وداد رشدى لأول مرة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بإدارة السكرتارية يوما من أيام ١٩٦٥ ، وكانت عملاقة ، تمتد طولاً وعرضاً ، ولكنها رشيقة بالنسبة لحجمها ، وقسماتها كانت كبيرة فى ذاتها ، ولكنها مقبولة وجميلة فى موضعها من الجسم المترامى ، وبصفة عامة يوحى منظرها بالقوة والجمال والطلاقة كتمثال ، وتؤثر نظرة عينيها العسليتين بجراتها غير العادية . هذا إلى جاذبية جنسية نفاذة كالعطر الفواح . وكلما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر إلى حتى ثارت تساؤلاتى . قدرت عمرها بالثلاثين ، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنها متزوجة ، وجعلت أتساءل عما يدعوها إلى ملاحقتى بنظراتها ، وكانت علاقتى بأمانى محمد ما زالت فى عنفوانها . وخيل إلى أنى عرفت السبب عندما أقبلت هى وكاميليا نحو مكتبى ، جلستا على كرسيين متقابلين أمام المكتب ، وقالت كاميليا :

— لا مؤاخذه يا أستاذ نريد استطلاع رأيك فى مسألة ؟

فسلمت وأنا أقول :

— تحت أمر كما ..

فقالت كاميليا :

— صديقتى وداد رشدى ، ستحدثك بنفسها ..

وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذى درجة عالية تناسب حجمها :

— المسألة بكل بساطة أنى حصلت على ليسانس الحقوق منذ خمسة أعوام ،

لكنى تزوجت ولم أتوظف ، وزوجى الآن معارفى الكويت لمدة عام ، وأفكر فى

التوظيف فهل يمكن إتمام ذلك عن طريق إدارة القوى العاملة ؟

فقلت :

— كلا ، ولكن جرى حظك بطلب خاص أو بالاشتراك في أى مسابقة يعلن

عنها ..

— واضح أن الأمل في تلك الحالة ضعيف ..

— لا أقول إنه قوى ، ولكن عليك أن تجربى ..

وقالت كاميليا زهران :

— إنها أم لطفلتين ومع ذلك تريد أن تتوظف ..

فقلت وداد :

— جميع زميلاتى متزوجات وموظفات !

فسألتها :

— وماذا عن الطفلتين ؟

— لن ألقى متاعب من هذه الناحية ..

— وماذا عن زوجك ؟

— موافق ..

وقالت كاميليا :

— ساعدها بما تستطيعه ..

وزكت وداد نفسها قائلة :

— نحن جيران من الزمن القديم !

فتساءلت بدهشة :

— حقا ؟

— لا تذكر لأنى كنت صغيرة ، ذلك تاريخ يرجع إلى عشرين عاما وكنت في

العاشرة ، ثم غادرنا حيكم منذ خمسة عشر عاما وأنا في الخامسة عشرة ..

— ذلك تاريخ قديم ولكن ليس جدا فكيف لا أذكرك ؟

— أما أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد الباقي وجعفر خليل الله

يرحمه ، وسرور عبد الباقي اليوم هو دكتورنا المفضل ، وما زلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة ..

فقلت بحنان :

— يا لها من ذكريات ! ..

وتساءلت كاميليا بمكر :

— أرايت ؟!

وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفنت إلى بخصوص الوظيفة أيضا ولكنني شعرت أنها لم تكن إلا مباحكة للمحاورة . وعجبت ماذا تريد العملاقة الجميلة المتزوجة ؟، وجعلت أقارن بينها وبين أمانى محمد ، بل بينها وبين درية ، واستشار الوجد فدعا من غيابات الماضي حنان مصطفى وصفاء الكاتب . وسألتها :

— ألن تزورى كاميليا مرة أخرى ؟

فسألتنى بصراحة :

— أتريد أن ترائى ؟

فلم أجد مفرا من أن أقول :

— يسعدنى ذلك ..

فسألتنى بتحد :

— ولماذا يسعدك ؟

فانزلقت إلى القول :

— مرآك يسعد الأنفس .

فضحكت وقالت :

— الإدارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق .

فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت :

— إذن ليكن فى مكان هادئ .

— أتحب الأماكن الهادئة ؟



— جدا ..

— بشرط !

— أفندم ؟

— أن تجيء بنية طيبة .

— طبعاً .

— تذكر ذلك .

— وعد .

— فما أهذا مكان في نظرك ؟

— حديقة الأسماك ..

ووجدتها تنتظر بلا ارتباك ولا حياء ، كأنما تنتظر زوجها أو أخاها .  
وسرنا معا في شه خلاء ، حتى اخترنا مجلسا تحت سفح الهضبة ، وقالت :  
— لعلك تسائل نفسك عن سر المرأة الجريئة التي رمت بنفسها في طريقك بلا  
سياسة ولا لباقة ؟

فقلت بسرور والرغبات تراقصني :

— ما دمت سعيدا فلا معنى للتساؤل .

فقلت ضاحكة :

— لا تنس شرطى !

— أنا متذكره .

فقلت بجدية :

— يجب أن تعرف أنني امرأة محترمة وزوجة مخلصة .

فقلت وأنا أستشعر شيئا من القلق :

— لا جدال في ذلك فعينى بصيرة ، وسن الطيش ودعتها من قبل أن تفارقى

حيناً !

- تكلم عن ذلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك .  
— له الاحترام والحب إلى الأبد ...  
فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت :  
— لم أقابلك مصادفة ..  
— حقا ؟  
— كاميليا حدثني عن زملائها . وعندما سمعت اسمك ... ماذا أقول ؟ ،  
قررت أن أقابلك ...  
— ولكنك ترغين في التوظيف .  
— لا أهمية لذلك ..  
— لا تتركيني فريسة للحيرة ..  
وهي تضحك في سعادة ناطقة :  
— أنا أعرفك منذ عشرين سنة !  
— أجل ..  
— كنت من سكان العمارة الخضراء ، تذكرها ؟  
— أمام السبيل بالشارع العمومي !  
فقلت بعتاب :  
— ولكنني كنت في العاشرة فلم تنتبه إلى .  
— كنا نمر تحت العمارة ولا موقف لنا تحتها وسن العاشرة ..  
— وسن العاشرة لا يستلفت النظر ، ولكنني بلغت الثالثة عشرة والرابعة  
عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه ..  
— سوء الحظ إذا استحکم ..  
— كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظ من نصيبي أنا .  
نظرت إليها في حرج فطالعتني بنظرة صريحة جريئة ضاحكة ، وقالت :  
— فعلت المستحيل لألفت نظرك ولكنني لم أفلح ..



— يا لها من ذكريات كالأساطير !

— ولكنها حقيقية ، وهى تعيش فى أعماق كخيبة لا دواء لها ..

فقلت بارتباك :

— لعلك تبالغين .

— أبدا ، كل كلام الدنيا لا شىء بالقياس إلى حقيقة ذلك الماضى .

وكنت أصغى بارتياح وافتتان وبلا عاطفة ، وبصراحتها العملاقة سألتنى :

— أحق ما يقال عن الحب الأول من أنه لا يفنى أبدا ؟

وتذكرت فى الحال حنان ، وصفاء ، ورجعت إلى قلبى الخامد ، ثم قلت :

— لا يخلو قول ماثور من حقيقة خالدة !

فقلت بحرارة :

— إنه عاطفة ساحرة لا تتكرر ولذلك لا يمكن أن ينسى ..

— وما فائدة ذلك ؟

— لا فائدة .

— ولكنك زوجة سعيدة .

فقالت بأسى :

— أجل ، لا أحب أن أكون جاحدة ، ولكن العين تثبت على ما ينقصها ..

— لذلك فالسعادة حكمة عسيرة .

— زوجى رجل كامل ، إنه مثال تتمناه أى امرأة ، ولكنه لا يشاركنى ميولى

الخيالية ، أشعر أحيانا بالوحدة ، وتعضىنى أحيانا خيبتى القديمة !

وضحكت ثم استدركت :

— عندى نخمة من السعادة ولكن روحى ظمأى !

فسألتها :

— ما عمر زوجك ؟

— أربعون عاما !

— أنت فى جنة ولا يجوز لك أن تحلمى !

فقطبت قليلا ثم قالت :

— أنت كبرت ، وأراهن أنك لم تعرف الحب !

ترى أين صفاء ؟ ، أما زالت على قيد الحياة ؟ ، وهل يمكن — لو صادفتها —

أن يجرى بيننا مثل هذا الحديث ؟! . وتراجعت قائلة :

— لا مؤاخذه ، صراحتى تخرجنى أحيانا عن حدود اللياقة ، ولكنى توقعت

أن تحترم عواطفى ..

فقلت بحرارة :

— إنى أحترمها من أعماق قلبى ..

فقلت بتأثر وامتنان :

— أشكرك .

ثم واصلت :

— أرجو ألا ينقطع الاتصال بيننا ، أيضا يـقـك ذلك ؟

— سأسعد به فوق ما تتصورين !

— اتصال روى لن يمس احترامنا لأنفسنا .

— اقترح عذب أقبـه على العين والرأس .

— وليكن التليفون وسيلتنا حتى لا نتعرض لظلم لا نستحقه .

— كما تشائين .

— إلا إذا غلبنى شوق فستقابل خطفا .

— ما أجمل أن نتقابل ولو خطفا .

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لى حياة جديدة أبوابها فدخلتها مدفوعا بالحنان والتعلق

بالذكريات وحب الاستطلاع ، وعاشت روابطها العائلية ومشكلاتها اليومية

وما ترزخ به من أبوة وأمومة وبنوة ، وارتباطات عاطفية بل وجنسية ، وخلافات

ومسرات وأمراض وأحلام وأهواء من كل شكل ولون .

وداد بعد من أبعاد حياتى لا يدرى به أحد ولكنه جزء من كينونتى لا يتجزأ .

## يسرية بشير

يرجعنى الاسم إلى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضى وأشجار البلح المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهى حارة مبلطة تنحدر فى هبوط ، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير . كنت فى السابعة أو الثامنة ، وكان يعجبني منظر الشيخ بشير وهو يجلس أمام مدخل بيته فى العصارى يسبح ، يضىء المكان بيشرته البيضاء ولحيته الشهباء والألوان الزاهية التى تعرضها عمامته وجبته وقفطانه . وعندما يمضى إلى ميدان بيت القاضى فى طريقه إلى الكلوب المصرى تظهر فى النافذة يسرية . لعلها كانت فى السادسة عشرة أو نحو ذلك ، يتجلى منها وجه كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضىء يتوجه شعر فاحم ، وتنادينى بصوت ناعم وتمازحنى وأنا أتطلع إليها سعيدا راضيا وعاشقا إن جاز لابن سبع أن يعشق . والحق لا يمكن تفسير تعلقى بها إلا بالعشق ، فما كانت قرية ولا من سنى ، ولا أهدتنى يوما لعبة أو قطعة من الحلوى ، ولا تحدثت بجمال وجهها . وكانت تغرينى أحيانا بالذهاب إليها فأتسلل من البيت إلى الحارة ولكن الخادمة كانت تدركنى فى اللحظة المناسبة وتحملنى إلى البيت وأنا أبكى وأرفس دون جدوى . ويوما أمطرت السماء ، ووقفت فى النافذة أرقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجرى نهرا ليصب فى القبر القديم . وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولا راكدا يستحيل عبوره إلا بالحمالين أو بالكارو . ومن خلال الأمطار المنهمة رأيت يسرية واقفة أيضا فى النافذة وهى تشير إلى فخطرت لى فكرة قررت فى الحال تنفيذها . فصعدت سرا إلى السطح وحملت طست غسيل نحاسى ومقشة ذات يد خشبية طويلة ومضيت بها إلى الطريق ، ثم أرسيت

الطست فوق سطح الماء ووثبت إليه وجعلت أذفعه بالمقشة فيسبح نحو بيت  
بشير ، وانتبهت الخادمة ولكن بعد فوات الأوان ، لم تستطع تلك المرة أن تخوض  
الماء إلى فوقفت عند ناصية الحارة تنادى ولا مجيب . وغادرت الطست عند باب  
آل بشير المثبت فوقه تمساح محنط ، ومرقت إلى الداخل حافيا متشبع الجلباب  
بالماء ، وقابلتنى يسرية عند رأس السلم فقادتني إلى الحجرة ، وأجلستني قبالتها  
على كنية تركية ، وراحت تداعب شعري برقة وأنا غارس عيني في وجهها  
المضىء ، ولا شك أنني رغم الجهد والبلل شعرت بالظفر والسعادة بين يديها ،  
وأرادت أن تسليني فتناولت راحتي وبسطتها وهي تقول :

— سأقرأ لك الطالع !

وراحت تتابع خطوط كفى وتقرأ الغيب ولكنني استغرقت بكل وعيي في  
وجهها الجميل .

## كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ — أول معرفتي به — سنة ١٩٤٣ م ؛ ذلك أن شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار ، حضر إلّى فى المكتبة التى أملكها — مكتبة مصر بالفجالة — وبصحبه شاب فى مثل سنّه ، فى حوالى الثلاثين من عمره ، وقَدّمه إلّى باسمه « نجيب محفوظ »<sup>(١)</sup> ، وقال لى : إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له .

وقَدّم إلّى نجيب محفوظ روايته « رادوبيس » ، وهى ليست أول رواية يكتبها ؛ فقد كتب قبلها رواية « عبث الأقدار » ، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى .

أخذت منه الرواية ، ووعدت أن أبدى فيها رأى بعد يومين .

وقرأت رواية « رادوبيس » فذهلت ! فهى مكتوبة بلغة عربية رصينة وبليغة ، وتختلف عن كل الروايات العربية التى ظهرت حتى ذلك الوقت ؛ فحوادثها شائقة ، محبوكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة ، وتحكى قصة غرام الفرعون ، أو الملك مرنرع الثانى بالراقصة الفاتنة رادوبيس ، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة ، وإنفاقها على نزواته الخاصة فى بذخ شديد ، حتى أطلق عليه الشعب لقب « الملك العايب » . وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحد أفراد الشعب .

والشئ بالشئ يُذكر ؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق — فيما بعد — أن

---

(١) قال لى شقيقى عبد الحميد : إن والدته نجيب محفوظ تعسرت فى ولادته تعسراً شديداً ، وأن الفرّج جاء على يدى الطبيب المعروف د . نجيب محفوظ ، وأنها أطلقت على وليدها اسم نجيب محفوظ ، تيمناً به .



بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب في مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العايب » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .  
ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيي في الرواية ، أبدت له استعدادي ، بل وترحيبي بطبعها ونشرها .

واعترضتني عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذي تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية في عنفوانها ، والورق معدوم تماماً من السوق .  
ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطاني ، وطبعت عليه الرواية — ٥٠٠ نسخة فقط — بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذي كان يخشى أن يعرضني للخسارة ، ألا تستوعب السوق عدداً أكبر .  
وأخيراً وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصص همس الجنون ، كفاح طيبة ، خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ؛ طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

\*\*\*

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦ م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق — أكثر من ألف فرخ فولسكاب — وطلب مني أن أطبعها وأنشرها له في كتاب واحد .

وكانت هذه الأوراق تحتوي على ثلاثية نجيب محفوظ .

وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقرأها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثاً مطوَّلاً في جريدة الأهرام ، بشر فيه بمولد روائي كبير في الأدب العربي ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .  
وكان رأيي أن طبع الرواية في كتاب واحد ، يحد من بيعها على نطاق واسع ،

واقترحت أن تُطبع في ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيي .  
وفعلاً ظهرت الثلاثية في ثلاثة كتب هي : بين القصرين ، وقصر الشوق ،  
والسكريّة .

وبظهور هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائي في مصر ،  
بل في العالم العربي كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ في أن شخصيات قصصه ورواياته هي من  
واقع الحياة في الأحياء الشعبية بخاصة ، التي عاش طفولته يرتع بين ربوعها ،  
وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها  
وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمع إليهم ، وفي نفس الوقت يغوص في  
أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع في نفسه من كل ذلك في كتاباته .  
وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغي بإمعان إلى كل من  
يحادثه ، ويهتم بكل ما يُروى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولاً طريفاً ،  
أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك في ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع  
بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك في كتاباته ، حيث يظهر  
في المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ  
— مدّ الله في عمره — يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية في الآداب هو اعتراف  
بقيمة الأدب العربي بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن  
موعدده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار

## مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	العاشرة ١٩٧٩
عبث الأقدار	١٩٣٩	الحادية عشرة ١٩٨٥
رادوييس	١٩٤٣	العاشرة ١٩٨١
كفاح طيبة	١٩٤٤	الحادية عشرة ١٩٨٥
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	الثالثة عشرة ١٩٨٧
خان الخليلي	١٩٤٦	العاشرة ١٩٧٩
زقاق المدق	١٩٤٧	الحادية عشرة ١٩٨٥
السراب	١٩٤٨	الثالثة عشرة ١٩٨٧
بداية ونهاية	١٩٤٩	الخامسة عشرة ١٩٨٧
بين القصرين	١٩٥٦	الثالثة عشرة ١٩٨٦
قصر الشوق	١٩٥٧	الرابعة عشرة ١٩٨٧
السكرية	١٩٥٧	الثالثة عشرة ١٩٨٧
اللص والكلاب	١٩٦١	التاسعة ١٩٨٠
السمان والخريف	١٩٦٢	التاسعة ١٩٨٥
دنيا لله	١٩٦٢	السادسة ١٩٨٧
الطريق	١٩٦٤	الثامنة ١٩٨٤
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	السابعة ١٩٨٣
الشحاذ	١٩٦٥	الثامنة ١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	السابعة ١٩٨٧
ميرamar	١٩٦٧	الخامسة ١٩٧٩
خمارة القط الأسود	١٩٦٩	السابعة ١٩٨٥
تحت المظلة	١٩٦٩	السادسة ١٩٨٤

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١
المرايا	رواية	١٩٧٢
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣
الكرنك	رواية	١٩٧٤
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
قلب الليل	رواية	١٩٧٥
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩
الشیطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩
عصر الحب	رواية	١٩٨٠
أفراح القبة	رواية	١٩٨١
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧
تحت الطبع		
قشتمر	رواية	
الفجر الكاذب	مجموعة	



رقم الإيداع ١٥٧٩

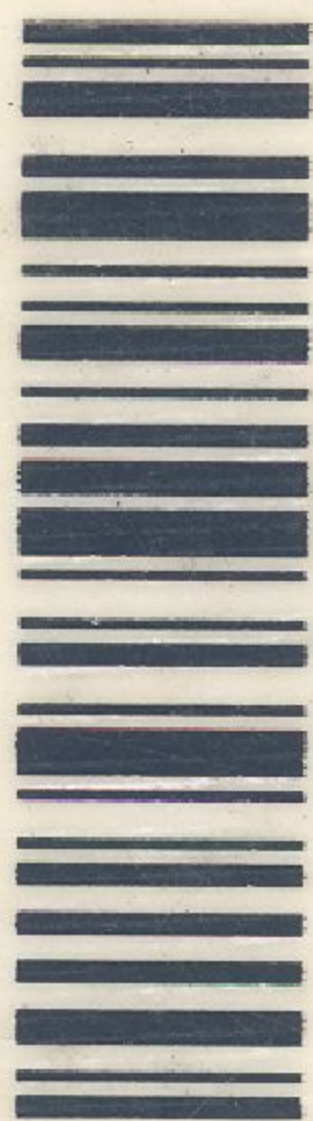
الترقيم الدولي ٥ — ١٠٠ — ٣١٦ — ٩٧٧





مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

Bibliotheca Alexandrina



0294374

الثلث ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة  
سعيد جولة السحار وشركاه